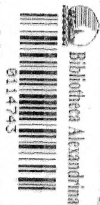


السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذين معه



عبد الحميد جوده السحار

سيرة نبلا

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

غزوة بدر

عبد الحميد جوهر النوار

بسم الله الرحمن الرحيم

« ولقد نصركم الله بيلدر وأنتم أذلة . فاتقوا الله لعلكم تشكرون .
إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من
الملائكة منزلين . بلى إن تصبروا وتتقوا ويأثتوكم من فورهم هذا
يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله
إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله
العزیز الحكيم . »

(قرآن کریم)

مدينة الرسول تنبض بالحياة . المهاجرون والأنصار في عدة القتال فقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي سفيان مقبلاً في غير قريش من الشام ، فندب المسلمين إليهم وقال :
 - هذه غير قريش فيها أموالهم ، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها .

فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حرباً . حتى إن كان الرجل ليساهم أباه في الخروج ، فكان ممن ساهم أباه سعد بن خيثمة فقال سعد لأبيه :

- إنه لو كان غير الجنة آثرتك به ، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا .

فقال خيثمة :

- آثرتني وقرمع نساك .

فأبى سعد فقال أبوه :

- إنه لا بد لأحدنا من أن يقيم .

فاستهما فخرج سهم سعد .

وأبطأ عن النبي صلى الله عليه وسلم وآله بشر كثير من أصحابه وكرهوا خروجه ، وتحلف بعضهم من أهل النيات

والبصائر لم يظنوا أنه يكون قتال إنما هو خروج للقيمة ، وبو
ظنوا أنه يكون قتال لما تخلفوا منهم أسيد بن حضير .

وبقي عثمان بن عفان إلى جوار زوجته رقية بنت محمد عليه
السلام فقد اشتد بها المرض وطاف بها شبح الموت .

وراح عثمان يرنو إلى وجه رقية الذابل فينص حلقه بالدموع
وتتال على رأسه الذكريات ، ففدا يرى نفسه وهو يحنو على بنت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن هاجرا إلى الحبشة فرارا
بدينهما وهما على قرب عهدهما بالزواج . وسرعان ما احتل
أقطار رأسه وجه رقية المشرق الصبوح وقد زاده الانفعال جمالا
لما كانت تصفى إلى جعفر بن أبي طالب وهو يحاور النجاشي
وأصحابه يوم أن جاء عمرو بن العاص يدبر لغدره . ورن في
أغواره صوت رقية الرصين وهي تحدث المهاجرات حديثا يريح
النفوس ويبعث في الصدور الآمال ، فحرك أشجانه وزاد في
مخاوفه فهو يحب زوجته حبا ملك عليه كل حواسه . ولكن كان
أخشى ما يخشاه أن تموت رقية فينقطع نسه لرسول الله عليه
السلام .

وتذكر عثمان يوم أن جاء الناعي ينعي الطاهرة أم المؤمنين .
إنه حزن لموت خديجة حاضنة الإسلام حزنا كادت أن تنفطر له
كبده ، ولكن حزن رقية على أمها كان ثقيلا هزه من الأعماق ،
إنه ما انفك يواسيها وإن كانت نياط قلبه تتمزق ، وإن كان على
بيته من فداحة المصاب ، كان يكفكف دموعها بينا العبرات
تبلل روحه وتسيل في قلبه على سيدة نساء قريش ، وعلى رقية

التي كانت تضطرب من الأسى كريشة في مهب الريح .
ورأى عثمان بعين خياله يوم أن ركب البحر مع رقية والزبير
ابن العوام وعبد الله بن جحش وأبو سلمة وامراته هند بنت أبي
أمية زاد الركب ، إنها كانت مستبشرة تهلل وجهها الجميل بالفرح
دون أن تكثرث بالموج ، فقد كانت في طريقها إلى مكة ،
إلى أبيها الحبيب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي طال إليه
الشوق وهوى إليه القواد .

إن عثمان لا يستطيع أن ينسى تلك اللحظة النابضة بأنبل
مشاعر البشرية ، ساعة أن ارتمت رقية في أحضان أبيها وهو يغمرها
بقبلات الحنان . إنه استشعر أن الكون كله يخفق بالركة حتى
إنه لم يستطع أن يحبس دموعه التي جرت من شدة الانفعال .
ورنا عثمان إلى وجهه وزوجه الذابل الذي علاه الاصفرار
ففرت سكينته ولفه حزن شديد امتزج بخوف قاتل ، فالأنفاس
المضطربة التي كانت تلتقطها رقية في جهد كانت على الرغم من
خفوتها تعلن بأعلى صوت فناء صاحبها ، وأنها تسرى في نفس
الطريق الذي سرت فيه أم المؤمنين من قبل ، سبيل الخلود في
ملكوت الله .

إنه حملها إلى يثرب بعد أن أذن رسول الله صلى الله عليه
وسلم لأصحابه بالمجرة إلى المدينة وهو يمنى النفس بحياة مستقرة
سعيدة يعمل فيها لآخرته ودينه . وقد كانت أول أيامه بالمدينة
مشرفة بالآمال فقد وضعت رقية طفلها عبد الله بن عثمان فكاد
يطير من الفرح أن صار له ولد جده رسول الله عليه السلام ،

وإنها لمناة الدنيا وسعادة الأبد أن يكون له ذرية من نسل خير البشر عليه صلوات الله .

وغمر النار استبشار وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يغمر حفيده بفيض من حنانه ورقته ، وتوجت الشفاء بسمات فسروه عليه السلام كان يسر المهاجرين والأنصار ، ولكن هذه البهجة سرعان ما غاضت فقد تفر ديك عبد الله بن عثمان فمات ، فذاقت رقية مرارة الشكل ، ولما كانت مرهقة الحسب فقد سقطت صريعة الحمى .

وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يزور ابنته التي تحملت في سبيل دينها كل الآلام وصنوف العذاب ، وكان يرى القناء يدب فيها فيتلوى ألما ، وود أن يبقى إلى جوارها يخفف عنها بعض ما تقاسى فهو يحبها بكل عواطفه ، ولكن ما إن سمع بأبي سفيان مقبلا من الشام بعير قريش حتى ندب المسلمين للخروج ، فحبه الله كان يفوق كل حب .

كان رسول الله قد بعث طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قبل خروجه من المدينة بعشر ليال يتحسان خبر العير ، فزلا ، كشد الجهني بالموضع المعروف بالتحيار من وراء ذي المرة على الساحل ، فاجارهما وأنزلهما فلم يزلوا مقيمين في خيابة وبر حتى مرت العير فرفعهما على نشر من الأرض ، فنظر إلى القوم وإلى ماتعمل العير وجعل أهل العير يقولون لكشد :

— يا كشد هل رأيت أحدا من عيون محمد ؟

— أَعُوذُ بِاللَّهِ ! وَأَتَى لِمُحَمَّدٍ عِيُونَ بِالنَّخِيزِ ؟

فلما راحت العير باتا حتى أصبحا ثم خرجا وخرج معهما
كشد خضرا حتى أوردتهما ذا المروة ، وساحت العير فأسرعت
وسار بها أصحابها ليلا ونهارا فرقا من الطلب .

وجاء إلى رسول الله عبد الله بن عمرو بن حزام فقال :

— يا رسول الله لقد سرتني منزلك هذا وعرضك فيه أصحابك
وتفألت به ، إن هذا منزلنا بنى سلمة حيث كان بيننا وبين أهل
حسيكة ما كان ، فعرضنا يا رسول الله ها هنا أصبحنا فأجزنا
من كان يطيق السلاح ورددنا من صغر عن حمل السلاح ،
ثم سرنا إلى يهود حسيكة وهم أعز يهود كانوا يومئذ فقتلناهم كيف
شئنا فذلت لنا سائر يهود إلى اليوم . وأنا أرجو يا رسول الله أن نلتقي
نحن وقريش فيقر الله عينك منهم .

وكان خلاد بن عمرو بن الحموح لما كان من النهار رجع
إلى أهله بخبرياء فقال له أبوه عمرو بن الحموح :
— ما ظننت إلا أنكم قد سرتتم .

— إن رسول الله (ص) يعرض الناس بالبقع .

— نعم القال ! والله إني لأرجو أن تغنصوا وأن تظفروا
عشرتي قريش . إن هذا منزلنا يوم سرنا إلى الحسيكة .

وانطلق رسول الله عليه السلام وأمامه رايتان سوداوان إحداهما
مع علي بن أبي طالب وهي العقاب وكانت من مرط لعائشة ،
وكان علي ابن عشرين سنة تتألق الشجاعة في عينيه ويشع التقي
من وجهه ولا غرو فهو ربيب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ،

والثانية مع سعد بن معاذ . وسلم عليه السلام اللواء إلى مصعب بن عمير . وسار جيش المسلمين حتى انتهى إلى المكان المعروف بالبقع ، وهي بيوت السقيا وهي متصلة ببيوت المدينة ، فكان عبده رباح يستقي له من بئر غرس مرة ومن بيوت السقيا مرة .

وتأهب المسلمون للسير وقد لبس رسول الله درعه ذات الفضول وتقلد سيفه العضب ، وأمر صلى الله عليه وسلم حين فصل من بيوت السقيا أن تعد المسلمون ، فوقف لهم عند بئر أبي عتبة وهي على ميل من المدينة فعدوا ، فعرض أصحابه ورد من استصغر ، وكان ممن رده عبد الله بن عمر وأسامة بن زيد ورافع بن خديج والبراء بن عازب وأسيد بن ظهير وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت .

ورأى سعد بن أبي وقاص أخاه عمير بن أبي وقاص يتوارى فقال له :

- مالك يا أخي ؟

- إني أخاف أن يراني رسول الله صلى الله عليه وآله فيستصغرنى فيردنى ، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقنى الشهادة .
فعرض على رسول الله (ص) فاستصغره فقال :

- ارجع .

فبكى عمير فرق له فأجازه .

وحين فصل صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا قال :

- اللهم إنيهم حفاة فاحملهم ، وعراة فاكسهم ، وجياع فاشبعهم ، وعالة فاعنهم من فضلك .

ودعا لأهل المدينة فقال :

— اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك دعاك لأهل مكة ،
وإنى محمد عبدك ونبيك أدعوك لأهل المدينة أن تبارك لهم فى
صاعهم ومدهم وثمارهم ، اللهم حبب إلينا المدينة واجعل ما بها
من الوباء نجم (١) . اللهم إنى حرمت ما بين لابتها كما حرم
إبراهيم خليلك مكة .

ثم خرج عليه السلام فى خمسة وثلاثمائة رجل : من المهاجرين
أربعة وستون وباقيهم من الأنصار ، بعد أن رد أبا لبابة واستعمله
على المدينة . واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس فى
المدينة : وخلف عاصم بن عدى على أهل قباء وأهل العالية بعد
أن أصبحت تلك البقاع مسرحا للمناقضين وأعداء الإسلام .

وخرج حبيب بن يساف نجدة لقومه من الخزرج طالبا للغنيمة ،
وكان ذا بأس ونجدة ولم يكن أسلم : ففرح المسلمون بخروجه معهم
ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستبشر بخروجه فقال له :
— لا يصحبنا إلا من كان على ديننا . ارجع فانا لانتعين
بمشارك .

وراح حبيب يزين لرسول الله صلى الله عليه وسلم خروجه
معهم والنبي عليه السلام يؤكد أن المسلمين لا ينتصرون بأهل
الشرك على أهل الشرك : فلما رأى حبيب صدق رسول الله
عليه السلام مع مبادئه قال :

- نوؤمن بالله ورسوله .

- نعم .

فأسلم وسار مع المهاجرين والأنصار بعد أن أشرق قلبه
بنور اليقين ، وقد وطد النفس على الجهاد في سبيل الله .
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم صائما ، فلما رأى ما يتحمل
المسلمون من جهد في السير أفطر ونادى مناديه :
- أفطروا .

فلم يفطروا ، فعاد مناديه يتادى :

- يا معشر العصاة إني مفطر فافطروا .

وكانت لإبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين
بعيرا فاعتقبوها كل ثلاثة يعتقبون بعيرا ، فكان رسول الله عليه
السلام وعلى بن أبي طالب ومرثد يعتقبون بعيرا ، فكان إذا
كانت عقبة النبي صلى الله عليه وسلم قال له رفيقاه :
- اركب حتى نغشي معك .

فيقول عليه السلام :

- ما أنتما أقوى مني على المشي ، وما أنا بأغنى عن الأجر
منكما .

وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون
بعيرا ، ورافعة وخلاد ابنا رافع وعبيد بن يزيد الأنصاري يعتقبون
بعيرا ، وكان حمزة وزيد بن حارثة وأبي كبشة يعتقبون بعيرا ،
وكان سعد بن أبي وقاص من أعظم أصحاب النبي عليه السلام
عنه غناء وأكثرهم قوة على المشي وأرمامهم لهم ، لم يركب خطوة

ذاهبا ولا راجعا ، وكان يعقد لأخيه عمير بن أبي وقاص حمائل صيفه من صفره .

وغدت الأجراس المعلقة في أعناق الإبل تتصلصل فأمر رسول الله عليه السلام بالأجراس أن تقطع حتى لا ترشد أصواتها أعداءه إلى مطلقه .

ولم يكن في الجيش إلا فرسان : فرس المقداد بن الأسود ويقال له سبعة ، وفرس الزبير بن العوام ويقال له يعسوب ، ولكن كانت بين الجوانح قلوب عامرة باليقين نابضة بحب الله . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيوت السقيا حتى سلك بطن العقيق ثم سلك طريق الحكيم حتى خرج على بطحاء ابن أزره فنزل تحت شجرة هناك ، فقام أبو بكر إلى حجارة هناك فبنى منها مسجدا فصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأصبح يوم الاثنين وهو هناك ، ثم صار إلى بطن ملل وثربان بين الحفيرة وملل :

فلما كانوا بثربان قال رسول الله عليه السلام لسعد بن أبي وقاص :

- انظر إلى الظبي .

فصوب سعد سهمه إلى الظبي وقد وضع رسول الله عليه السلام رأسه بين منكب سعد وأذنه ، ثم قال :

- اللهم سد رميته .

- فما أخطأ سهم سعد عن نحر الظبي .

فتبسم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وخرج سعد يعدو

فأخذ الظبي وبه رمق فذبحه ، فحملوه حتى نزلوا قريبا ، فأمر به رسول الله عليه السلام فقسم بين أصحابه .

وفي أثناء الطريق بعرق الظبية لقوا رجلا من الأعراب فسأله عن الناس فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له أصحاب الرسول عليه السلام :

— سلم على رسول الله صلى الله عليه وسلم :
قال :

— أفيكم رسول الله ؟

— نعم :

فسلم عليه ثم قال :

— إن كنت رسول الله فأخبرني بما في بطن ناقتي هذه .

فقال له سلامة بن سلامة بن وقش :

— لا تسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم . أقبل على أنا أخبرك

عن ذلك : نزوت عليها ففي بطنها منك سخلة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— مه ! أفحشت على الرجل .

ثم أعرض عن سلامة فقد كان عليه السلام يكره فحش القول .

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم يرقب عودة طلحة بن

عبيد الله وسعيد بن زيد فقد بعثهما يتحسان خبر غير أبي

سفیان . حتى إذا ما نزل المسلمون بواد يقال له ذفران أتاه الخبر

عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم . فقال لأصحابه :

— إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول

فما تقولون ؟ ألمير أحب إليكم من النغير ؟

إنه بخير هم بين الغنيمة والحرب فقالت طائفة منهم :

- بلى . العير أحب إلينا من لقاء العدو .

وارتفعت أصوات تقول :

- هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب له ؟ إنا خرجنا للعير .

- يارسول الله عليك بالعير ودع العدو .

فتغير وجه النبي صلى الله عليه وسلم وأوحى الله إليه :
كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين
لكارهون . يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى
الموت وهم ينظرون . وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم
وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق
الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل
ولو كره المجرمون .

وقام أبو بكر فقال وأحسن : ثم عمر فقال وأحسن ، ثم

قام المقداد فقال :

- يارسول الله امض لما أمرك الله فنحن معك ، والله لا نقول

لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا

إنا ههنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما

مقاتلون . فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد (١)

لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا ودعا له به ،
ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
- أشيروا على أيها الناس .

وإنما يريد الأنصار وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين
بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا برآء من دعامك حتى
تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا نمتك مما
نمنع منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليها نصره إلا بمن دهمه بالمدينة
من عدوه وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم ،
فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ :
- والله لكأنك تريدنا يا رسول الله ؟

- أجل .

- فقد آمانا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق
وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ،
فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك . فوالذي بعثك بالحق
لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل
واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا . إنا لصبر في الحرب صدق
في اللقاء . لعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله .
وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه
ذلك ، ثم قال عليه السلام :

- سيروا وأبشروا فإن الله تعالى وعدني إحدى الطائفتين ،
والله لكأنني الآن أنظر إلى مصارع القوم .

لحققت قريش بالشام في غيرها ، وكانت العير ألف بعير وكان فيها أموال عظام ، ولم يبق بمكة قرشي ولا قرشية له مثقال فصاعدا إلا بعث به في العير حتى إن المرأة لتبعث بالشئ الثافه ، وإن أكثر ما فيها من المال لآل سعيد بن العاص لأني أحيحة إما مال لهم أو مال مع قوم قراض على النصف . وكان لبني غزوم فيها مائتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهبا ، وللحارث بن عامر ابن نوفل فيها ألفا مثقال ، وإن في القافلة لخمسين ألف دينار .

ولما لحقت قريش بالشام أدركهم رجل من جذام فأنخبرهم أن عمدا عليه السلام قد كان عرض لعيرهم في بدأتهم وأنه تركه مقيما ينتظر رجعتهم قد حالف عليهم أهل الطريق ووادعهم . ولما كانوا بالزرقاء وهم منحدرين إلى مكة لقوا رجلا فقال لهم :

— قد كان عرض محمد لكم في بدأتكم في أصحابه :

— ما شعرنا .

— بلى . فأقام شهرا ثم رجع إلى يثرب وأنتم يوم عرض محمد لكم تخفون فهو الآن أخرى أن يعرض لكم ، إنما يعد لكم الأيام عدا فاحذروا على عيركم وارتنوا آراءكم ، فوالله ما أرى عددا ولا كراء ولا حلقه (سلاح) .

فاجمع القوم أمرهم فبعثوا ضمضم بن عمرو وكان في العير ،
وقد كانت قريش مرت به وهو بالساحل منه بكران فاستأجروه
بعشرين مثقالا ، وأمره أبو سفيان أن يخبر قريشا أن محمدا قد
عرض لعبيرهم .

وكانت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث
ليال قد رأت رؤيا أفزعته فقصتها على أخيها العباس والتمست
منه أن يكتمها . ولكن العباس قصها على صديقه الوليد بن
عتبة بن ربيعة واستكتمه إياها . فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا
الحديث بمكة حتى تحدث به قريش في أنديتها .

وسخر أبو جهل بالعباس وبني عبد المطلب وهزى برويا
عاتكة . فلم تملك العباس إلا أن ينكر أن تكون عاتكة رأت
شيئا . فلما جاء المساء غدت نساء عبد المطلب يلمن العباس لئنه
مع أبي جهل . فغدا في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد
ففضب فدخل المسجد فرأى أبا جهل . وفيما هو يشتد إليه إذا
بصوت ضمضم بن عمرو الغفاري يصرخ بطن الوادي واقفا
على بعيره قد جدغ بعيره وحول رحله وشق قميصه وهو
يقول :

- يا معشر قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي
سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أرى أن تدركوها . الغوث
الغوث !

واقشعرت جلود أهل مكة . نزلت بأفتدتهم رهبة . كانوا
يسخرون من رؤيا عاتكة لما قالت إنها رأت راكبا أقبل عنى بعير

له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا
يا لغدر لمصارعكم في ثلاث ، وأن الناس اجتمعوا إليه ، ثم
دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله قام به بعيره على
ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها ؛ ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في
ثلاث . ثم قام به بعيره على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها ، ثم
أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل
تفتت فما بقى بيت من بيوت مكة ولادار إلا دخلتها منها فلقه .
فاذا بالروية التي جعلت من رجال بني عبد المطلب ونسأهم
هدفا للسخرية تلبو لكأتما كانت نبوءة ، فقد جاء ضمضم مكة
بعد ثلاث ليال من تلك الرؤيا ، وكادت الهزيمة أن تشيع في
نفوس الرجال فيقعّدوا عن الخروج لولا ذلك الحقد الذي يملأ
قلوب أبي جهل وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث على محمد
ابن عبد الله ، فراحوا يمحّثون القوم على الخروج لاستئصال شائفة
ابن أبي كبشة الذي فر من القتل يوم أن حاصروه في داره في مكة
ليفتكوا به ، ويؤكدون أن الفرصة مواتية للقضاء عليه قبل أن
يستفحل أمره في المدينة ويقطع عليهم تجارتهم مع الشام .

وقام سهيل بن عمرو في رجال من قريش فقال :

— يامعشر قريش ، هذا محمد والصبابة من شبانكم وأهل
يثرب قد عرضوا لغيركم ولطيمتكم (١) ، فمن أراد ظهورا فهذا
ظهر ، ومن أراد قوة فهذه قوة .

(١) التجارة : وقيل المعركة خاصة .

وقام زمعة بن الأسود فقال :

— إنه واللوات والعزى ما نزل بكم من أمر أعظم من أن طمع محمد وأهل يثرب أن يعرضوا لغيركم فيها خزائنكم ، فأوعبوا (فاستعدوا) ولا يتخلف منكم أحد ، ومن كان لاقوة له فهذه قوة ، والله لئن أصابها محمد وأصحابه لا يروعوكم منهم إلا وقد دخلوا عليكم بيوتكم .

وقال طعيمة بن عدى :

— يامعشر قريش والله ما نزل بكم أمر أجل من هذه ! أن يستباح غيركم ولطيمة قريش فيها أموالكم وخزائنكم . والله لا أعرف رجلا ولا امرأة من بني عبد مناف له نسي (وزن نواة من ذهب) فصاعدا إلا وهو في هذه العير ، فمن كان لاقوة به فعندنا قوة نحمله وتقويه .

وقام حنظلة بن أبي سفيان وعمرو بن أبي سفيان فحضا الناس على الخروج ولم يدعوا إلى قوة ولا حملان . فقيل لهما :

— ألا تدعوان إلى ما دعا إليه قومكما من الحملان ؟

— والله ما لنا مال ، وما المال إلا لأبي سفيان .

ومشت قريش إلى أبي لب فقالوا له :

— إنك سيد من سادات قريش وإنك إن أنت تخلقت عن

التغير يعتبر بك غيرك من قومك . فاخرج أو ابعث رجلا .

— واللوات والعزى لا أخرج .

فقال له أبو جهل :

— أقم يا أبا عتبة : فوالله ما خرجنا إلا غضبا لدينك ودين
آبائك .

كان أبو لهب يشفق من رؤيا عاتكة فبعث مكانه العاص بن
هشام وكان قد استرقه لدين في الميسر .

كان أناس قد أجمعوا على القعود فكان أبو جهل وعقبة
والنضر يسخرون منهم . يقولون لبعضهم : اقعد فانما أنت من
النساء . ويثيرون في البعض النخوة والأحقاد فخرج كثير من
الناس وهم كارهون ، وقد خرج العباس بن عبد المطلب وبعض
بنى المطلب وهاشم وهم يمتنون النفس بالألا يكون قتال بين الفريقين ،
فقد أخرجوا كرها ولولا خشيتهم من الناس ما تجهزوا وما أجمعوا
المسير .

وتأهبوا للخروج إلى النبي صلى الله عليه وسلم فآخذوا بأستار
الكعبة وقالوا :

— اللهم انصر أعلى الجندين وأهدى الفئتين وأكرم الحزبين
وأفضل الدينين . اللهم لانعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه
بالحق .

وساروا : أبو جهل ينهش صدره الحقد ويأكل قلبه الحسد ،
وعقبة بن أبي معيط يتلهف على اللقاء ليسفك دم ابن عبد الله
الذى توعد بالقتل إن اتى به خارج مكة . والنضر بن الحارث
يتلمظ تلمظ الحيات قد استولى على ذهنه رسول الله عليه السلام
وكان طيفه هدفا ل سيفه وكل ما في جعبته من سهام . فهو لا يستطيع
أن ينسى الآيات التي نزلت فيه تسخر منه وتوعده بعذاب النار .

وكان عتبة بن ربيعة على جمل أحمر . إنه قد ألقى سمعه كثيرا إلى محمد عليه السلام وكان رأيته أن يخلى بينه وبين التقاتل فان قتلوه كفؤهم دمه وثأر بني هاشم . وإن ظهر كان ذلك لقريش . ولولا عناد أبي جهل وحقده على رسول الله صلى الله عليه وسلم لكان عتبة من أتباع رسول الإسلام .

إنه خارج للقتال وهو كاره . فان كان حليفه ابن الحضرمي قد قتله واقد بن عبد الله التميمي في الشهر الحرام لما بعث محمد ابن عبد الله ابن عمته عبد الله بن جحش على رأس سرية في شهر رجب . فهو على استعداد لأن يدفع دية حليفه وأن يخفن الدماء لولا إصرار ابن الحنظلية أبي جهل بن هشام على قطع دابر محمد وأصحابه ليخلو له وجه قريش .

وكان حكيم بن حزام على بعيره شارد اللب يستشعر عدم راحة لذلك الخروج الذي دفعهم إليه ابن الحنظلية دفعا . إنه صاحب دار الندوة وله رأى نافذ في شئون مكة . ولكن الأحداث قد جعلته يتقاد إلى أبي جهل دون تدبر . ويخرج لقتال المسلمين الذين انطلقوا ليستولوا على أموالهم التي مع أبي سفيان .

إنه لا يستطيع أن ينسى أيام أن حصروا بني هاشم في الشعب . كانت عمته خديجة فيهم وكان قلبه يكاد يتمزق لما يفكر أنه يا كل بينا عمته الحبيبة تتلوى من الجوع ، فكان يسوق العير التي تأتيه من الشام تحمل الخنطة إلى الشعب ثم يضرب أعجازها فتدخل عندهم فيأسفون ما عنيها من . وهو لا يستطيع أن ينسى أن الظاهرة سيدة نساء قريش قد ماتت وهي على الدين الذي

جاء به زوجها محمد بن عبد الله . إنه لو أطاع مشاعره للوى عتق
بعيره وانقلب إلى أهله لولا خشيته من الناس !

إنه ما توجه وجها قط كان أكره إليه من مسيره إلى بدر ،
وما بان له في وجه قط ما بان له قبل أن يخرج ، إنه استقسم
بالأزلام فكان في كل مرة يخرج ما يكره ، ولولا ابن الحنظلية
ما مضى لوجهه .

وأطلق أبو البخترى بن هشام بن الحارث بن أسد لخياله
العنان فاذا به يذكر قيامه في نقض الصحيفة التي كتبها قريش
وتعاهدت فيها أن لا تتبع لبني هاشم ولا تتنازع منهم وأن لا تزوجهم
وأن لا تزوج فيهم . إنه قال لأبي جهل في المسجد : لانرضى ما كتب
فيها ولا تقر به . وما زال مع أصحابه حتى أخرج بني هاشم من
الشعب وحطم ما ضرب حولهم من حصار ، فان كان القضاء
على محمد بن عبد الله وصحبه هو الهدف فقيم كان قيامه في نقض
الصحيفة ؟ !

وما كان أحد ممن خرج إلى العير أكره للخروج من الحارث
ابن عامر فانه قال :

— ليت قريشا تعزم على القعود وأن مالى في العير تلف ومال
بني عبد مناف أيضا .

— إنك سيد من ساداتها أفلا تردعها عن الخروج ؟

— إنى أرى قريشا قد أزمعت على الخروج ولا أرى أحدا
به طرق (قوة) تخلف إلا عن علة ، وأنا أكره خلافها وما أحب
أن تعلم قريش ما أقول ، على أن ابن الحنظلية رجل مشنوم على

قومه ما أعلمه إلا يحرز قومه أهل يثرب .

وجاء ضمضم بن عمرو وكانت للحارث عنده أياد فقال :
- أبا عامر إني رأيت رؤيا كررتها وإني لكاليقظان على
راحلي ، وأراكم أن وادىكم يسيل دما من أسفله إلى أعلاه .
فقال الحارث :

- ما خرج أحد وجهها من الوجوه أكره له من وجهي
هذا .

- والله إني لأرى لك أن تجلس .

- لو سمعت هذا منك قبل أن أخرج ما سرت خطوة ،
فاطو هذا الخبر عن قريش فأنها تنهم كل من عوقها عن المسير .
وكان الأنخس بن شريق مع بنى زهرة أخوال محمد بن
عبد الله ، إنهم خرجوا كارهين كما خرج العباس وبنو المطلب
وبنو هاشم ، ولولا الملامة لقتلوا مع القاعدين . ولولا عقبة بن
أبي معيط والنضر بن الحارث وأبو جهل بن هشام ما خرج منهم
أحد لقتال ابن أمية زهرة بنى زهرة ، ولو وجدوا سبيلاً للنكوص
لقتلوا راجعين .

وكان أمية بن خلف يرتجف من الخوف . إنه رأى رؤيا
أفرغته فكان قلبه كقلب الطير كلما خفت الرياح خفق معها ،
وجعل يرمق عقبة بن أبي معيط في غيظ فهو الذي قال له لما
أراد أن يقعد : يا أبا علي استجمر . فأنما أنت من النساء .
فأحزنه ذلك القول حتى قال : قبحك الله وقبح ما جئت به .
ثم تجهز ليخرج مع الناس .

دفع شياطين قريش : أبو جهل بن هشام وعقبة بن أبي معيط
والنضر بن الحارث الناس للخروج ليشفوا مرض قلوبهم . وكان
كثير من الخارجين كارهين للقتال يتمنون أن تفلت العير من
أيدى المسلمين حتى يجدوا عذرا للعودة بسلام ، فرويا عاتكة
وإن سخرها منها كانت تزلزل الأرض تحت أقدامهم .

ونزلوا بحر الظهران فتحرم لهم أبو جهل بن هشام عشر جزائر ،
وراحت القيان يضربن بالدقوف وعكفوا على الشراب ثم نهضوا
يستأنفون الرحلة ، حتى إذا بلغوا عسفان حطوا الرجال ونحروا لهم
سفيان بن أمية تسع جزائر . ونحروا لهم سهيل بن عمرو بقديد بعد
أن طافوا باللات عشر جزائر . وساروا من قديد فصلوا بها
ثم أصبحوا بالحفة فتحرم لهم عتبة بن ربيعة عشر جزائر .

وجلس عند الثنية البيضاء عداس غلام عتبة وشيبة الذي قبل
رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أن لقي من سفهاء الطائف
أشد ألوان الاضطهاد ، وراح الناس يمرون ، إذ مر عليه عتبة وشيبة
ابنا ربيعة فوثب إليهما فأخذ بأرجلهما في غرزهما وهو يقول :
- بأبي أنما وأمي ! والله إنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم
وما تساقان إلا إلى مصارعكما !

وإن عينيه لتسيلان دما على خديه . ومر به العاص بن منبه
بن الحجاج فوقف عليه حين ولي عتبة وشيبة فقال :
- مايكيك ؟

- ييكي سيدي أهل النجدة إلى مصارعهما ويقاتلان
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

— وإن محمدا لرسول الله !

فانتفض عداس انتفاضة واقشعر جلده ثم بكى وقال :

— إى والله ، إنه لرسول الله إلى الناس كافة .

وكان مع قریش رجل من بنى المطلب بن عبد مناف يقال له
جهم بن الصلت ، فوضیع رأسه فأغنى ثم قام فرعا فقال لأصحابه :
— هل رأيتم الفارس الذى وقف على ؟
— لا .

فقال وهو مبهور الأنفاس :

— قد وقف على فارس فقال : قتل أبو جهل وعتبة وشيبة
وزمعة وأبو البختري وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو .
ثم رأيت ذلك الفارس ضرب فى لبة بعيره ثم أرسله فى العسكر
فما من خباء من أخبية العسكر إلا أصابه من دمه .
فقال له أصحابه :

— إنما لعب بك الشيطان .

وشاعت هذه الرويا فى المعسكر فاذا بالخوف ينزل بالقلوب .
وإذا برويا عاتكة تستولى على النفوس فتقشعر الجلود ، وإذا
برهبة من المجهول تجثم على الأنتلة ، وبلغت الرويا أبا جهل
ففجرت غضبه ورأى أن خير ما يفعله أن يسفه صاحبها ليعيد
الطمأنينة إلى القلوب الواجفة وإلى النفوس التى ذهبت شعاعا فقال :
— قد جثمت بكذب بنى عبد المطلب مع كذب بنى هاشم .
هذا نبى آخر من بنى عبد المطلب سيعلم غدا من المقتول نحن
أو محمد وأصحابه .

ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران حتى نزل قريبا من بدر ، فركب عليه السلام هو وأبو بكر رضى الله عنه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله صلى الله عليه وسلم عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ :

— لا أخبر كما حتى تخبراني من أنتما .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— إذا أخبرتنا أخبرناك .

فقال الشيخ :

— ذاك بذلك ؟

— نعم .

— فانه قد بلغنى أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فان كان صدق الذى أخبرنى فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

وذكر المكان الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وقال :

— وبلغنى أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا ، فان كان الذى أخبرنى به صدق فهم اليوم بمكان كذا وكذا .

المكان الذى نزلت به قريش ، فلما فرغ من خبره قال :

— من أنتما ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— نحن من ماء .

ثم انصرفا عنه فقال الشيخ :

— من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله عليه السلام إلى أصحابه وهو يفكر في قریش ، ورجع صوت عمر يتردد في نفسه : « يا رسول الله إنها قریش وعزها ، والله ما ذلت منذ عزت ولا آمنت منذ كفرت — والله لتقاتلنك فتأهب لذلك أهبت وأعدد لذلك عدته » . وراح صدى صوت سعد بن معاذ يسرى في ذاكرته عليه السلام : « إني أقول عن الأنصار وأجيب عنهم فاطعن حيث شئت ، وصل جبل من شئت ، واقطع جبل من شئت ، وسالم من شئت ، وعاد من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا فنحن تبع لأمرك : فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك » .

فرفت ابتسامة رضا على شفتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أمسى عليه السلام بعث على بن أبي طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه إلى بدر يلتصمون الخبر فأصابوا إبلا لقریش تحمل الماء معها غلام لبني الحجاج وغلام لبني العاص ، فأتوا بهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فقالوا :

— لمن أنتما ؟

وظنوا أنهما لأبي سفيان فقالا :

— نحن سقاة قريش بمثونا نسقيهم من الماء .
فضربوها فلما أوجعوهما ضربا قالوا :
— نحن لأنني سفيان .

فتركوهما ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه و
صلاته قال :

— إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركت
صدقا والله إنهما لقريش .

والتفت عليه السلام إلى الغلامين وقال :
— أخبراني عن قريش .

— هم وراء هذا الكتيب بالعدوة القصوى (جانب
المرتفع) .

— كم القوم ؟
— هم والله كثير عددهم شديد بأسهم .
— ما عدتهم ؟
— لا ندرى .

وجهد النبي عليه السلام أن يخبراه كم هم فأبى
صلى الله عليه وسلم :

— كم تنحرون كل يوم ؟
— يوما تسعا ويوما عشرا .
فقال صلى الله عليه وسلم :
— القوم ما بين التسعمائة والآلف .
ثم قال للغلامين :

— فمن فيهم من أشرف قريش ؟

— عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو البختري بن هشام
وحكيم بن حزام ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل
وطعيمة بن عدى بن نوفل والنضر بن الحارث وزبيعة بن الأسود
وأبو جهل بن هشام وأمية بن خلف ونييه ومته أبنا الحجاج
وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبدود .

فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال :

— هذان مكة قد ألفت إليكم بافلاذ كبدها .

وأقبل من الأمر عجيز فكان أول من جاء قريشا بنجر النبي
صلى الله عليه وسلم : فنادى :

— يا آل غالب ! هذا ابن أبي كبشة وأصحابه وقد أخذوا
سقاءكم .

فماج العسكر ، وكان حكيم بن حزام وصحبه في خباء لهم
على جزور يشوون من لحمها ، فما هو إلا أن سمعوا الخبر
فامتنعوا عن الطعام ، ولقى بعضهم بعضا ولقى حكيم عتبة
فقال عتبة :

— يا أبا خالد ما أعلم أحدا يسير أعجب من مسيرنا ، إن
غيرنا قد نجت وإنا جئنا إلى قوم في بلادهم بغيا عليهم .
— أراه لأمر محم ولا رأى لمن لا يطاع ! هذا شوهم ابن
الحنظلية .

— يا أبا خالد أتخاف أن تبيتنا القوم ؟

— لأنت آمن من ذلك .

— فما رأى يا أبا خالد ؟

— نتحارس حتى نصبح وترون رأيكم .

— هذا رأى .

فتحارسوا حتى أصبحوا ، فقال أبو جهل في سخرية :

— هذا عن أمر عتبة كره قتال محمد وأصحابه ، إن هذا

هو العجب . أتظنون أن محمدا وأصحابه يعترضون لجمعكم !

والله لأنتجبن ناحية بقوم فلا يحرسنا أحد .

فتنحى أبو جهل ناحية وإن السماء لتمطر عليه ، فقال عتبة :

— إن هذا هو النكد .

ثم مضى رجلان من الصحابة إلى ماء بدر فنزلا قريبا منه

عند تل هناك ، ثم أخذنا شتا لهما (قربة) يستقيان فيه ، وإذا

بشخص على الماء ، وإذا جاريتان تتخاصمان وتمسك إحداهما

الأخرى على الماء تطلب منها ما عليها من دين ، فتقول المدينة

لصاحبتها :

— إنما يأتي العير غدا أو بعد غد فأعمل لهم وأقضيك

الذي لك .

وإذا بالشخص الذي كان على الماء يقول :

— صدقت .

ثم خلص بينهما والرجلان من الصحابة يصغيان إلى ذلك

الحوار الدائر بين الجاريتين وذلك الرجل الذي على الماء ، فجلسا

على بعيرهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم

فأخبراه بما سمعا .

— هو على ما تقول ، أفرجع من بين أهل العسكر ؟

فجاء أبو جهل بن الحنظلية فقال :

— ما تريدان ؟

— الرجوع : ألا ترى إلى رؤيا عاتكة وإلى رؤيا جهنم بن الصلت

مع قول عداس لنا ؟

— تخذلان والله قومكما وتقطعان بهم .

— هلكت والله وأهلكت قومك !

وبلغ أبا سفيان إصرار أبي جهل على أن يقيم بدر ثلاثة أيام ينحر
الجنود ويطعم الطعام ويسقى الخمر ، فلم يستصوب رأيه وقال :

— هذا بغى والبغى منقصة وشؤم . والله لئن أصاب محمد النفير
ذللتنا إلى أن يدخل مكة علينا .

وأراد بنو هاشم الرجوع فاشتد عليهم أبو جهل وقال :

— لا تفارقنا هذه العصابة حتى نرجع .

وانطلق أبو جهل وكفار قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى قريبا من
الماء ، ونزل رسول الله ﷺ والمسلمون بعيدا من الماء بينهم وبين
الماء رحلة . فظمى المسلمون وأصابهم ضيق شديد وراح الشيطان
يوسوس في صدورهم : « تزعمون أنكم أولياء الله وأنكم على الحق
وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم عطاش ، فإذا
قطع العطش أعناقكم مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى
مكة » .. فحزنوا حزنا شديدا وأشفقوا ، وكان الوادى لينا كثير التراب
تسيخ فيه الأقدام فإذا بالمطر ينهمر من السماء ، فانطلق المسلمون
تحت الشجر والجحف يستظلون تحتها من المطر وما كان فيهم قائم

إلا رسول الله ﷺ يصلى تحت شجرة ويكثر فى سجوده أن يقول :
— يا حى . يا قيوم .

وأصاب المسلمين نعاس شديد أمانة من الله ، واستمر عليه السلام
فى قيام وسجود واجتهال طوال الليل حتى أصبح ، فإذا المطر أطفأ
الغبار ولبد الأرض وطهر المسلمين وشربوا منه وملئوا الأسقية وسقوا
الركائب . وأصاب قريشا منه ما لم يقدروا على أن يرتحلوا منه ويصلوا
إلى الماء فكان المطر نعمة للمؤمنين ونقمة على المشركين .
وطلع الفجر فنادى رسول الله ﷺ :
— الصلاة عباد الله .

فجاء الناس من تحت الشجر والجحف فصلى بهم رسول الله ﷺ
وحرّض على القتال فى خطبة خطبها ، ثم خرج عليه السلام يسابق
قريشا إلى الماء فسبقهم عليه حتى جاء أدنى ماء من بدر فنزل به ﷺ
فقال له الحباب بن المنذر :

— يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمتزل أنزلكه الله تعالى ليس لنا
أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟
فقال رسول الله عليه السلام فى بساطة :
— بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

لو كان وحيا للزم المنذر الصمت ، وما دام رسول الله عليه السلام
قد قال إنه الرأى فإن للمنذر رأيا أفضل ، وإن الدين النصيحة ، وما
طالما نزل رسول الله ﷺ على رأى أصحابه إذا ما ظهرت فيه مصلحة
أو خير ، فقال المنذر :

— يا رسول الله إن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى تأتى

أدنى ماء من القوم فأنى أعرف غزارة مائه وكثرته بحيث لا يتزح فتزله ، ثم تغور ما عداه من القلب ثم تبني عليه حوضاً فتملأه ماء فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله ﷺ فى رضا :

— لقد أشربت بالرأى .

كان رأياً ضائباً قبله عليه السلام وإن كان معارضاً لرأيه ، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس فصار حتى أتى أدنى ماء من القوم فنزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت وبني ﷺ حوضاً على القلب الذى نزل به فملأه ماء ثم قذفوا فيه الآنية .

وخطب رسول الله ﷺ المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فأنى أحثكم على ما حثكم الله عليه وأنهاكم عما نهاكم الله عنه ، فإن الله عظيم شأنه يأمر بالحق ويحب الصدق ويعطى على الخير أهله على منازلهم عنده ، به يذكرون وبه يتفاضلون ، وإنكم أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد إلا ما ابتغى به وجهه . وإن الصبر فى البأس مما يفرج الله به الهم وينجى به من الغم ، تدركون به النجاة فى الآخرة فيكم بنى الله يحذركم ويأمركم فانضحوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنه تعالى يقول : « لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » انظروا إلى الذى أمركم به من كتابه وأراكم من آياته وما أعزكم به بعد الذلة فاستمسكوا به يرض ربكم عنكم ، وابلوا ربكم فى هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذى وعدكم من رحمته ومغفرته ، فإن وعده حق وقوله صدق وعقابه شديد ، وإنما أنا وأنتم بالله الحى القيوم إليه ألجأنا ظهورنا وبه اعتصمنا

(غزوة بدر)

وعليه توكلنا وإليه المصير ، ويغفر الله لى وللمسلمين .
كان الليل قد انتصف وكان الجهد قد نال من المسلمين فأسلموا
جنوبهم للرقاد ، حتى إذا ما تنفس الصبح جاء سعيد بن معاذ إلى رسول
الله ﷺ وقال :

— يا نبي الله ألا نبني لك عريشا تكون فيه ونعد عندك ركائبك ؟
ثم تلقى عدونا فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا . كان ذلك ما
أحببنا ، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلهجت بمن
وراءنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حبا منهم
ولا أطوع لك منيهم ، لهم رغبة فى الجهاد ونية . ولو ظنوا أنك تلقى
حربا ما تخلفوا عنك إنما ظنوا أنها العير . يمنعك الله بهم ويناصحونك
ويجاهدون معك .

فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيرا ودعا له بخير وقال :
— أو يقضى الله خيرا من ذلك يا سعد .

كان رسول الله عليه السلام على ثقة من نصر الله فقد وعده إحدى
الطائفتين ، فإذا كانت العير قد أفلتت فلن تفلت قريش فقد رأى
مصارع القوم .

وبنى العريش لرسول الله ﷺ فوق تل مشرف على المعركة ، وقال
المسلمون :

— من مع رسول الله ﷺ ؟

كانوا يخشون أن يهوى إليه عليه السلام أحد من المشركين ، فلم
يدن منهم أحد إلا أبو بكر شاهرا بالسيف على رأس رسول الله ﷺ
قائلا :

— لا يهوى إليه أحد إلا أهوى إليه .

ووقف أبو بكر وسعد بن معاذ على باب العريش في نفر من الأنصار ، فلما كان الصباح أقبلت قريش من الكتيب . ولما رأى رسول الله ﷺ قريشا وقد أقبلت بالدروع الساترة والجموع الوافرة والأسلحة الشاكية قال :

— اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وعجبها وفخرها تحادك وتخالف أمرك وتكذب رسولك ، فنصرك الذي وعدتني .
اللهم إنك أنزلت على الكتاب وأمرتني بالثبات ووعدتني الطائفتين وإنك لا تخلف الميعاد . اللهم احثهم الغداة .
واطمأنت قريش فأرسلوا عمير بن وهب الجمحي فقالوا :
— احرز لنا أضحاب محمد .

فخرج عمير لينظر عدة جيش المسلمين فاستجال بفرسه حول عسكر النبي ﷺ ، ثم رحل إليهم فقال :
— ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، ولكن أمهلوني حتى أنظر للقوم كميناً أو مدداً .

فذهب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا ثم رجع إليهم وقال :
— ما رأيت شيئا ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلياء (١) تحمل المنايا ، ألا ترونهم خرسا لا يتكلمون يتلمظون تلمظ الأفاعى لا يريدون أن ينقلبوا إلى أهلهم ، والله ما نرى أن تقتل منهم رجلا حتى

(١) التوق تبرك على قبر صاحبها فلا تعلق ولا تسقى حتى تموت ويقصد الإبل تحمل الموت .

يقتل رجل منك ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟

وصادف ذلك القول هوى فى نفس حكيم بن حزام فهو يكره قتال زوج عمته الطاهرة سيدة نساء قريش ، وإن خرج كارها لينقذ نفسه من تقرير ابن الحنظلية أبى جهل بن هشام ، فمشى فى الناس فأتى عتبة بن ربيعة فقال :

— يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها ، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها إلى آخر الدهر ؟

— وما ذاك يا حكيم ؟

— ترجع بالناس .

فقام عتبة خطيبا على جمل أحمر ، فقال رسول الله عليم السلام :
— إن يكن فى أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر .
وقال عتبة :

— يا معشر قريش ، إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ، والله لئن لا يزال رجل ينظر فى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه وابن خاله ورجلا من عشيرته ، أرجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذى أردتم ، وإن كان غير ذلك أكفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون .

يا قوم اعصبوها اليوم برأسى (أى اجعلوا عارها متعلقا بى) وقولوا جبن عتبة وأنتم تعلمون أنى لست بأجبنكم .

وولدت على الشفاء همسات :

— ودم ابن الحضرمي ؟

فخفف حكيم بن حزام إلى عتبة وقال له :
— تجير بين الناس وتحمل دم حليفك عمرو بن الحضرمي وتحمل
ما أصاب محمد من تلك العير .
فقال عتبة :

— نعم قد فعلت ، ونعم ما قلت ونعم ما دعوت إليه .
وصار عتبة يجيل جملة في صفوف قريش يقول :
— يا قوم ! أطيعوني فإنكم لا تطلبون غير دم ابن الحضرمي وما
أخذ من العير وقد تحملت ذلك . يا معشر قريش أنشدكم الله في هذه
الوجوه التي تضيء ضياء المصابيح أن تجعلوها أندادا لهذه الوجوه التي
كأنها عيون الحياة .

كان عتبة بن ربيعة الرجل الذي حنكته السنون يضيق بقريش أن
تلقى أقواما ليس لهم ملجأ إلا سيوفهم فجعل يزين لهم الرجوع ، فلما
رأى رسول الله عليه السلام راكب الجمل الأحمر يجيله في صفوف
قريش قال :
— يا علي ، ناد حمزة .

وكان حمزة أقربهم للمشركين ، فلما سماع نداء علي اتجه إلى ابن
أخيه رسول الله عليه السلام وفي وجهه إجلال وتوقير ، فقال له ﷺ :
— من صاحب الجمل الأحمر ؟ وماذا يقول لهم ؟

— هو عتبة بن ربيعة ينهى عن القتال .
ثم قال عتبة لحكيم بن حزام :
— انطلق لابن الحنظلية فقل له هل لك أن ترجع اليوم بمن معك عن
ابن عمك ؟

فجاءه حكيم فإذا هو في جماعة من بين يديه ومن ورائه ، وإذا بعامر ابن الحضرمي واقف على رأسه . إنه أخو عمرو بن الحضرمي الذي قتله وأقذ بن عبد الله في سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة ، وهو لا يرى إلا الحرب ليشفى غليل نفسه وهو يقول :

— قد فسخت عقدي من عبد شمس وعقدي إلى بني مخزوم .
كان يهدد بفسخ ما بينه وبين عتبة بن ربيعة وأبي جهل بن هشام إذا لم تتأرقيرش من قتلة أخيه ، فلم يعرفه حكيم التفاتاً بل قال لأبي جهل :
— يقول لك عتبة بن ربيعة هل لك أن ترجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟

فقال أبو جهل في غضب :

— أما وجد رسولاً غيرك ؟

— لا ، ولم أكن لأكون رسولاً لغيره .

ثم قتل حكيم بن حزام بن خويلد راجعاً إلى عتبة لثلا يفوته من الخير شيء ، وعتبة متكىء على إيماء بن رخصة الغفاري وقد أهدى إلى المشركين عشر جزائر ، فطالع أبو جهل الشر في وجهه فقال لعتبة :
— انتفخ سحرُك (١) ؟

قال له عتبة : ستعلم .

فسل أبو جهل سيفه فضرب به متن فرسه ، فقال إيماء بن رخصة :
— بئس القال هذا .

(١) السحر : الرثة فيقال للجبان « انتفخ سحره » ، لأن انتفاخه يرفع القلب إلى الحلقوم وهو مثل لشدة الخوف .

٤

دب الشقاق في معسكر قريش قبل أن ينشب القتال ، فقد تبادل عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام وأبو جهل بن هشام أفحش السباب ، قال أبو جهل لعتبة :

— أنت تقول ارجع بالناس عن ابن عمك بمن معك ؟ والله لو غيرك يقول هذا لأعضضته (أى قلت له : اعضض على بظر أمك) ، أن قد ملأت رثلك خوفك رهبا . كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

والتفت إلى حكيم بن حزام وقال :

— ما بعتبة ما قال : ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور وفيهم ابنه أبو حذيفة فقد تخوفكم عليه .

وأعجبت الفكرة فائلها فقام أبو جهل في الناس فقال :

— يا معشر قريش إنما يشير عليكم عتبة بهذا لأن ابنه مع محمد ، ومحمد ابن عمه فهو كره أن تقتلوا ابنه وابن عمه .

فغضب عتبة وسب أبا جهل وقال :

— سيعلم أينا أفسد لقومه .

وحسب أبو جهل أنه يقلب القوم على رأى عتبة لما ذكر أن ابنه في صفوف المسلمين ، وما دار بخلده أنه أيقظ الذكريات الرقيقة من مضاجعها وحرك أنبل ما في الإنسان من مشاعر ، وشائج القربى

والصدقات ، فإذا بكل من فى عسكر قريش يذكر الأقارب والمخلان فى عسكر رسول الله ﷺ ، فاحتلت رأس عبد الرحمن بن أبى بكر صورة أبيه الشيخ الجليل ، وإذا بالعباس بن عبد المطلب يفكر فى ابن أخيه نبي الله الذى خرج معه ليلا إلى العقبة ليستوثق له من الخزرج أن يمنعوه ما دام قد أبى إلا الانحياز إليهم . إنه كان يعنى سلامته فى تلك الليلة الفاصلة أفنحاربه اليوم ليسفك دمه ؟

وتذكر أخاه حمزة وابن أخيه على بن أبى طالب وكل من فى صفوف المسلمين من بنى المطلب وبنى هاشم ، فإذا به يتمنى من كل قلبه ألا يكون قتال ، ولولا خشيته من نشوب حرب بين أبني جهل ورهطه وبين بنى هاشم لقفل راجعا كما رجع الأخنس بنى زهرة . وتذكر أمية بن خلف رفيق العمر عبد الرحمن بن عوف ، إنه صديقه العزيز الذى فرق بينهما الإسلام . ترى لو اختلط إليجمعان والتقى هو والصديق الحبيب وجها لوجه أيستطيع أحدهما أن يهوى بسيفه ليقضى على حبيبه ؟

وتذكر رجال بنى تيم الأحية من بنى تيم الذين يقفون مع رسول الله عند ماء بدر ، وفكر بنو مخزوم فى إخوانهم المسلمين من بنى مخزوم ، وإذا بكل قبيلة من قريش تشفق على أبنائها الذين أبوا إلا الإسلام ، فوقعت الهزيمة فى قلوبهم قبل أن يشهروا السيوف ويدور القتال .

كان العقل يقضى بأن يعود أبو جهل بمن معه بعد أن أفلت أبو سفیان بالبعير ، ولكن الله قد بدد ذلك الصوت لأن الله أراد أمرا ليوطد لدينه فى الأرض ، فجعل أبا جهل يركب رأسه وينقاد لغرورة ويصر

على خوض غمار القتال ويقول دون وعى منه : كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد !

والثفت المشركون إلى عسكر المسلمين فجعلهم الله فى أعينهم قليلا ليستدرجهم إلى مصارعهم ، وجعل الله المشركين فى أعين المسلمين قليلا ليقوى جأشهم على مقاتلتهم حتى إن عبد الله بن مسعود التفت إلى رجل بجواره وقال :

— أترأهم سبعين ؟

— أراهم مائة .

وأُنزل الله تعالى : ﴿ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدَّةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدَّةِ الْقَصْوَى وَالرَّكِبِ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِذْ يَرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَكُمُ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ : وَإِذْ يَرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيِّمَ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ۖ ﴾

وكان قباث بن أشيم فى صفوف المشركين ، فلما ألقى نظرة على عسكر المسلمين هجس فى قلبه : « لو خرجت نساء قريش بأكمتها لردت محمدا وأصحابه » .

وأراد رسول الله ﷺ أن يستنفذ كل وسائل الصلح قبل أن يخوض القتال ، فما أرسل إلا رحمة للعالمين ، فبعث إليهم عمر بن الخطاب سفيرهم فى الجاهلية ليقول لهم :

— ارجعوا فإنه أن يلى هذا الأمر منى غيركم أحب إلى من أن تلوه

منى .

فتلقفها حكيم بن حزام فقال :

— قد عرض نصفاً فاقبلوه ، فوالله لا تنصرون عليه بعد ما عرض من

النصف .

وصوبت العيون إلى أبي جهل الطاغية الذى فرض إرادته على

الجميع ، فإذا به يقول :

— والله لا نرجع بعد أن مكنتنا الله منهم .

وخشى أبو جهل أن تتصبر رغبة السلام على القتال فبعث إلى عامر

ابن الحضرمى أخى المقتول وقال :

— هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ويخذل عن القتال وقد تحمل

دية أخيك من ماله ويزعم أنك قبلتها . ألا تستحى أن تقبل الدية من مال

عتبة وقد رأيت ثأرك بعينيك ؟ قسم فأذكر مقتل أخيك .

فقام عامر بن الحضرمى فاكشف إسته وخشاً عليه ألتراب ثم

صرخ :

— واعمره ! واعمره !

فثارت نفوس قريش بينا كان أخوه العلاء بن الحضرمى فى صفوف

المسلمين ينظر وقد ملأ أسى على ما يفعل أخوه من إثارة الأحقاد ،

ورأى الأسود بن أبى سلمة المخزومى وكان رجلاً سبىء الخلق شديد

العداوة لرسول الله ﷺ أن يشعل نار الحرب قبل أن تلعب بالرعوس

دعوة السلام فقال :

— أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأهدمنه أو لأموتن دونه .

وخرج الرجل الشرس ليقترح عسكر المسلمين فخرج إليه حمزة

بن عبد المطلب يلعب بسيفه ، فلما التقيا ضربه حمزة فقطع قدمه بنصف ساقه ، فطارت وهو دون الحوض فوق على ظهره تشجب رجله دما . ولم يجزع لما أصابه بل غدا يحبو إلى الحوض حتى اقتحمه وهدمه برجله الصحيحة يريد أن تبر يمينه ، فأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض .

وقضى مقتل الأسود بن أبي سلمة المخزومي على آخر أمل في السلام ، فراح عتبة بن ربيعة يلتمس خوذة ليدخلها في رأسه فما وجد في الجيش بيضة تسع رأسه لعظمه فتعمم بيرد له . ولم يجعل تحت لحيته من العمامة شيئا .

ورأى حكيم بن حزام عتبة يعمد إلى القتال فقال له حكيم :

— مهلا مهلا يا أبا الوليد ! لا تنه عن شيء وتكون أوله .

كان عتبة يحاول أن يقنع ابن الحنظلية بالرجوع ، وأما وقد أخفق ونشب القتال فلا بد أن يكون أول من يخوض غماره ، فخرج بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى فصل من الصف ودعا للمبارزة ، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة إخوة أشقاء هم : معوذ ومعاذ وعوف بنو عفراء ، فقال عتبة :

— من أنتم ؟

— رهط من الأنصار .

— ما لنا بكم من حاجة .

فأمرهم عليه السلام بالرجوع فرجعوا إلى مصافهم وقال لهم خيرا ، ونادى منادى عتبة وشيبة والوليد :

— يا محمد أخرج إلينا أكفأنا من قومنا .

فقال النبي ﷺ :

— قوموا يا بنى هاشم فقاتلوا بحقكم الذى بعث به نبيكم إذ جاءوا
بيطلانهم ليطفثوا نور الله .

قم يا عبيدة بن الحرث ، قم يا حمزة ، قم يا على .
فلما قاموا ودنوا قالوا لهم :

— من أنتم ؟

كانوا ملبسين لا يعرفون من السلاح ، قال عبيدة :
— عبيدة بن الحرث .

وقال حمزة :

— أنا حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله .

وقال على :

— أنا على بن أبى طالب .

— نعم . أكفاء كرام .

ومشى عبيدة وكان أسن الثلاثة إلى عتبة ، واتجه حمزة إلى شيبة ،
وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الأبصار وقد حبست الأنفاس ،
فالجولة الأولى كانت بين أبناء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى
هاشم . وغدت الدعوات ترف على شفاه المهاجرين والأنصار بعد أن
ابتهلت بها الأفئدة التى عمرت بأنوار اليقين ، فلو قتل عبيدة وحمزة
وعلى فى أول لقاء لكانت فاجعة رسول الله ﷺ فيهم تعز عن العزاء .
وكان أبو بكر ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينما كان عمر
يختلس النظرات إلى وجه رسول الله ﷺ وهو يرصد القتال فيستشعر
ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجدانه أن يتصمر رجال بنى هاشم

ليسعد عليه السلام بنصر المسلمين ونجاة الأحباب .
وكان في عسكر المشركين رجال يرجون أن يظهر عبيدة وحمزة
وعلى وإن كانوا على غير دينهم ، فوشائج القربى كانت أقوى مما
يربط بينهم وبين السماء .

ولم يمهل حمزة أن قتل شية فأشرقت وجوه المسلمين بالأمل
وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على الوليد فندت من شفاه
المسلمين صيحات فرح بينا غامت وجوه المشركين بالأسى ،
واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، وقعت
الضربة في ركة عبيدة فأصاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال
حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه إلى أصحابه
فأضجعوه إلى جانب موقفه فأفرشه رسول الله ﷺ قدمه ، فوضع خده
عليها وقال لرسول الله عليه السلام :
— أأنت شهيدا يا رسول الله ؟

— أشهد أنك شهيد .
وعدل رسول الله ﷺ — صفوف أصحابه بسهم في يده ، فمر
بسواد بن غزية حليف بنى النجار وهو خارج من الصف ، قطعنه في
بطنه بالسهم الذى لا نصل له ولا ريش وقال :
— استو يا سواد .

— يا رسول الله أوجعتنى وقد بعثك الله بالحق والعدل ، فأقذنى من
نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ، فلم يفضب
عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :

— استنقد .

فاعتنته سواد وقبل بطنه فقال ﷺ :

— ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد فى انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل ، واستبقوا نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يفشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم يستبقوا نبلهم ولا يرموه على بعد ، فالرمى على البعد يخطيء فيضيع النبل بلا فائدة ، ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع نفر من الأنصار فى خوف على رسول الله ﷺ — كُرة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله عليه السلام إن احتاج إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين الصفين وقال :

— لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن الخطاب فقتله عامر بن الحضرمى بسهم أرسله إليه ، وأصاب حارثة بن سراقة سهم غرب وهو يشرب من الحوض ، فإذا برسول الله ﷺ — يتذكر ما كان بينه وبين حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد

استقبله :

— كيف أصبحت يا حارثة ؟

— أصبحت مؤمناً بالله حقاً .

— انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة .

— يا رسول الله ، عزلت نفسي من الدنيا فأسهرت ليلي وأظلمات

نهارى ، فكأننى بعرش ربي بارزا وكأننى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون

فيها وكأننى أنظر إلى أهل النار يتعاونون فيها .

— أبصرت فالزم ، أنت عبد بذر الله الإيمان فى قلبه .

— ادع الله لى بالشهادة .

— فدعا له رسول الله ﷺ — بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق فى العريش ، وطلق

ﷺ — يناشد ربه ويقول :

— اللهم لا تودع منى ولا تخذلنى ، أنشدك ما وعدتنى ، اللهم

أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .

وما زال يدعو ربه ماذا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن

منكبه ، وشق على أبى بكر تعب النبى — ﷺ — فى إلحاحه بالدعاء

فأخذ أبو بكر رداءه عليه السلام وألقاه على منكبه ثم التزمه من ورائه

وقال :

— كفأك تناشد ربك ، فإنه سينجز لك ما وعدك .

كان الصديق فى مقام الرجاء والنبى — ﷺ — فى مقام الخوف ،

فإذا به يخفق خفقة وهو فى العريش ثم يتبته ويقول :

— أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل آخذ بعنان فرس

يقوده على ثأياه النقع .
ثم خرج رسول الله ﷺ — إلى الناس فحرضهم وقال :
— والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا
محتسبا ، مقبلا غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .
فقال عمير بن الحمام أخو بني سلمة وفي يده تمرات يأكلهن :
— بخ بخ ! أفما بينى وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلنى هؤلاء !
ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى يقتل فى
سبيل الله .
ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ،
فأنزل الله تعالى عند ذلك : ﴿ إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى
ممدكم بألف من الملائكة مردفين ﴾ (١) .

وعدل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — صفوف أصحابه
بسهم في يده ، فمر بسواد بن غزية حليف بني النجار وهو خارج
من الصف : فطعنه في بطنه بالسهم الذي لا نصل له ولا ريش
وقال :

— استو يا سواد .

— يارسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل ،
فأفقدني من نفسك .

كان سواد يطلب القصاص من رسول الله عليه السلام ،
فلم يغضب عليه السلام بل كشف عن بطنه وقال :
— استقد .

فاعتقه سواد وقبل بطنه فقال — صلى الله عليه وسلم :

— ما حملك على هذا يا سواد ؟

فقال سواد في انفعال :

— حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس
جلدي جلديك .

ولما عدل عليه السلام الصفوف قال لهم :

— إن دنا القوم منكم فانضحوهم عنكم بالنبل : واستبقوا
نبلكم ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم .

إنه نصحهم بأن يدفعوا عنهم أعداءهم بالنبل ثم استبقوا
نبلهم ولا يرموه على بعد ، فالرمى على البعد يخطئ فيضيع النبل
بلا فائدة ، ثم رجع إلى العريش فدخله ومعه أبو بكر ليس معه فيه
غيره ، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش متوشح بسيفه مع

(غزوة بدر)

نفر من الأنصار في خوف على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
كرّة العدو ، والركائب مهيأة لرسول الله عليه السلام إن احتاج
إليها ركبها .

ولما اصطف الناس للقتال رمى قطبة بن عامر حجرا بين
الصفين وقال :

- لا أفر إلا إن فر هذا الحجر .

وكان أول من خرج من المسلمين مهجع مولى عمر بن
الخطاب فقتله عامر بن الحضرمي بسهم أرسله إليه ، وأصاب
حارثة بن سراقة سهم غرب وهو يشرب من الخوض ، فاذا
برسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتذكر ما كان بينه وبين
حارثة . إنه عليه السلام قال لحارثة يوما وقد استقبله :

- كيف أصبحت يا حارثة ؟

- أصبحت مؤمنا بالله حقا .

- انظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة .

- يا رسول الله : عزلت نفسي من الدنيا فأسهرت ليلي
وأظلمات نهارى : فكأني بعرش ربي بارزا وكأني أنظر إلى أهل
الجنة يتزاورون فيها وكأني أنظر إلى أهل النار يتعاوون فيها .
- أبصرت فالزم ، أنت جديذر الله الإيمان في قلبه .
- ادع الله لي بالشهادة .

فدعا له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بذلك .

كان رسول الله عليه السلام وأبو بكر الصديق في العريش ،
وضنق - صلى الله عليه وسلم - يناشدر به ويقول :

- اللهم لا تدع مني ولا تحذلي ، أنشدك ما وعدتني ،
اللهم أنشدك عهدك ، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد .
وما زال يدعو ربه ماداً يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه
عن منكبيه ، وشق على أبي بكر تعب النبي - صلى الله عليه وسلم -
في إلحاحه بالدعاء فأخذ أبو بكر رداءه عليه السلام وألقاه على
منكبيه ثم أترمه من ورائه وقال :

- كفالك تناشد ربك ، فانه سينجز لك ما وعدك .
كان الصديق في مقام الرجاء والنبي - صلى الله عليه وسلم - في
مقام الخوف ، فاذا به يحقق خفقة وهو في العريش ثم ينبه ويقول :
- أبشر يا أبا بكر ، أنك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان
فرس يقوده على ثيابه النع .

ثم خرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى الناس فحرضهم وقال :
- والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل
صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة .

فقال عمر بن الخطاب أخو بني سلمة وفي يده تمرات يا كلهن :
- بخ بخ ! أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء !
ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه وانطلق ليحارب حتى
يقتل في سبيل الله .

ورأى المسلمون القتال قد نشب فعجوا بالدعاء إلى الله تعالى ،
فأنزل الله تعالى عند ذلك : « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم
أنى مذهبكم بالعلم من الملائكة مردفين » . (١)

راح المؤمنون والمشركون يقتتلون ، ونظر سراقة بن مالك إلى المسلمين فإذا به يرى الموت يطل من أسياфهم وهم يتلمظون تلمظ الحيات ، فانخلغ قلبه وتذكر يوم أن خرج في أثر الرسول عليه السلام وهو في هجرته إلى المدينة فرارا من قريش وما كان من سقوطه عن ظهر جواده كلما دنا من نبي الله ، فوقع في نفسه أنه يقاتل في سبيل الضلال فنكص على عقبيه ، فقال رجل لسراقة :
 — ياسراقة ، أترعم أنك لنا جار !

— إني برئ منكم ، إني أرى ما لا ترون ، إني أخاف الله والله شديد العقاب .

فتشبث به الحرث بن هشام أخو أبي جهل وقال له :

— والله لا أرى إلا خفافيش يرب .

وإذا بضربة تصوب إلى صدره فيسقط وينفلت سراقة وبعض من معه خارجين من المعركة .

وخشى أبو جهل أن يفت ذلك في عضد المشركين فقال :

— يا معشر الناس لا يهمنكم خذلان سراقة فإنه كان على

ميعاد من محمد ، ولا يهمنكم قتل عقبة وشيبة والوليد فانهم

قد عجلوا ، واللوات والعزى لا ترجع حتى تقرن محمدا وأصحابه

بالحبال .

لا تقتلوهم ، خذوهم باليد .
وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه :
- إنكم قد عزفتم أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا
إكراها لا حاجة لهم بقتالنا . فمن لقي العباس بن عبد المطلب
فلا يقتله . ومن لقي أبا البختري فلا يقتله .
كان أبو البختري ممن نهض في تمزيق الصّحيفة الظالمة ورفع
الحصار الذي ضربته قريش على بني المطلب وبني هاشم لمناصرتهم
رسول الله عليه السلام . فلماذا ذكر العباس دون غيره من بني
هاشم ؟ أكان العباس قد أسلم وكنم إسلامه ليكون عينا له على
قريش . أكان قلم مخابراته عليه السلام ! ؟
فقال أبو حذيفة :
- أيقول آباؤنا وأبنائنا وإخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟
لئن لقيته لألجمته السيف .
رأى أبو حذيفة مقتل أبيه عتبة بن ربيعة وعمه شيبة وأخيه
الوليد فهزته المأساة على الرغم من صدق إيمانه فقال مقالته :
فلما بلغت رسول الله عليه السلام قال لعمر :
- يا أبا حفص . أ يضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟
كان ذلك أول يوم كناه فيه رسول - الله صلى الله عليه وسلم -
بأبي حفص . فقال عمر في تأثر وانفعال :
- يا رسول الله . دعني أضرب عنقه بالسيف فوالله لقد
نافق .
ولم يدعه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يضرب عنق أبي

حذيفة ، فقد بلغ الرسول أربه باعلان أنه لن يرضى عن قاتل العباس ، ولو كان العباس كافرا ما اهتم به رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى بعث بالحق والعدل كل هذا الاهتمام : ولكنه كان عليه السلام يخشى أن يقتل مظلوما وأن يفقد قلم غابراته في مكة .

ودنا عوف بن الحرث بن عفراء من رسول الله عليه السلام وقال :

— يا رسول الله ما يضحك الرب من عبده ؟
كان عوف يريد أن يرضى ربه غاية الرضا : فقال له رسول الله — صلى الله عليه وسلم :
— غمسه يده في العدو حاسرا .
فزرع درعا كانت عليه فقتلها . ثم أخذ سيفه ليقاتل حتى يقتل .

وقاتل معبد بن وهب زوج هريرة بنت زمعة أخت أم المؤمنين سودة بنت زمعة بسيفين . ثم أخذ رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — جفنة من الحصاء فاستقبل بها قريشا ثم قال :

— شأهت الوجوه ! اللهم أرعب قلوبهم وزلزل أقدامهم .
وكان على ميمنة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أبو بكر . وكان على ميسرته على بن أبي طالب : وكان على ميمنة قريش الحارث بن عامر بن نوفل . وعلى ميسرتهم زمعة بن الأسود . وعلى خيل المشركين الحارث بن هاشم .

وتصاف المسلمون وتزاحفوا وهم لا يسلون السيوف
ولكنهم قد انتصوا القتي ، فقد أمرهم رسول الله عليه السلام
ألا يسلوا السيوف حتى يغشوهم ، وغدا المسلمون يهتفون
بشعارهم : يا منصور أمت .. يا منصور أمت . فإذا بالأرض تزلزل
تحت أقدام أعدائهم .

ولتى الزبير بن العوام عبيدة بن سعيد بن العاص على فرس
عليه لأمة (١) كاملة لا يرى منه إلا عيناه ، وهو يقول :
- أنا أبو ذات الكرش .

فقد كانت له صبية صغيرة ، وكانت لها بطين وكانت في يد
الزبير عزة (شبيه العكاز . أطول من العصا وأقصر من الرمح
لما زج في أسفلها) ، فطعن بها في عينه فوق وراح الزبير يبطأه
برجله على خده حتى أخرج العزة متعققة (٢) وأخرج حلقته .
وأقبل عاصم بن أبي عوف السهمي لما جاء الناس واختلطوا
وكأنه ذئب وهو يقول :

- يامعشر قريش عليكم بالقاطع مفرق الجماعة الآتي بما
لا يعرف محمد . لا نجوت إن نجا !

فاعترضه أبو دجانة فاختلعا ضربتين . فضربه أبو دجانة
فقتله ووقف على سلبه يسلبه : فمر به عمر بن الخطاب فقال :
- دع سلبه حتى يجفض العدو وأنا أشهد لك به .

وأقبل معبد بن وهب أحد بني عامر بن لؤي فضرب أبي
دجانة ضربة برك منها أبو دجانة كما يترك الحمل . ثم انتفض

(٢) عليها الدم .

(١) الدرع .

وأقبل على معبد فضربه ضربات لم يصنع سيفه شيئا حتى يقع معبد في حضرة أمامه لا يراها ، وتزل أبو دجاجة عليه فذبحه ذبحا وأخذ سلبه .

وراح عقبة بن أبي معيط يتقدم ليس له هدف إلا أن يصل إلى رسول الله عليه السلام ، فقد بدت العداوة من فمه لما قال يوم أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم :

أراك الناقة القصواء هاجرتنا

عما قليل تراني راكب الفرس
أعسل رمحي فيكم ثم أتتهله

والسيف يأخذ منكم كل ملتبس
إنه قال ذلك وقد بلغ رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يخارب ليحقق ما قاله في شعره ، فغاية أمانيه أن يسدد رمحه إلى قلب رسول الله عليه السلام .

ورأت بنو مخزوم مقتل من قتل فقالت :
— أبو الحكم لا تخلص إليه ، فإن ابني ربيعة عجلا ويطرا
ولم تخام عنهما عشرينهما .

فاجتمعت بنو مخزوم فأخذوا به فجعلوه في مثل الحرجة ، وأجمعوا أن يلبسوا لأمة أبي جهل رجلا منهم فالبسوها عبد الله ابن المنذر ، فصمد له على قنقه وهو يراه أبا جهل ، ومضى عنه وهو يقول :

— أنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها أبا قيس بن الفاكه بن المغيرة فكر عليه حمزة

وقد لبس ريشة معلمة وهو يراه أبا جهل ، فضربه فقتله وهو يقول :

- خذها وأنا ابن عبد المطلب .

ثم ألبسوها حرمة بن عمرو فصمد له على عليه السلام فقتله ، ثم أرادوا أن يلبسوها خالد بن الأعلم فأبى أن يلبسها .

وراح عبد الرحمن بن عوف يخوض في صفوف الكافرين فاذا بغلامين ليس منهما واحد إلا وقد ربطت حمائل سيفه في عنقه لصغره ، فالتفت إليه أحدهما فقال :

- يا عم ، أيسم أبو جهل ؟

- وما تصنع به يا ابن أخي ؟

- بلغني أنه يسب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وآله فحلقت لئن رأيته لأقتلنه أو لأموتن دونه .

فأشار عبد الرحمن بن عوف إليه وقال :

- من أنتما ؟

- ابنا عنراء .

فخرج يعدو إليه كأنه سبع ولحقه أخوه ، وغلوا يضطربون بالسيوف فاذا بأبي جهل يسقط وهو يخط في دمه .

وتقدم عمر بن الخطاب فاذا به أمام خاله العاص بن هاشم ابن المغيرة : فرفع عمر سيفه وهوى به على خاله فاذا به كأمس الدابر ، ثم تركه وتقدم يخوض المعركة لإعلاء كلمة الله .

وراح نوفل بن خويلد الأسدي ابن العديوية يصيح بصوت له زجل ، رافعا عقيرته :

— يامعشر قريش ، إن هذا اليوم يوم العلاء والرفقة .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— اللهم اكفني نوفل بن العديّة .

ورأى نوفل قتل أصحابه ، فأقبل يصيح وهو مرعوب :

— ما حاجتكم إلى دمائنا ؟ أما ترون من تقتلون ؟ أما لكم

في اللين من حاجة !

كان يرمز إلى القداء ، إلى التوق الخلوب . فأسره جبار بن

صخر فهو يسوقه أمامه ، فجعل نوفل يقول لجبار ورأى علياً

غلبه السلام مقبلاً نحوه :

— يا أبا الأنصار ، من هذا واللوات والعزى ؟ إني لأرى

رجلاً ، إنه يريدني !

— هذا علي بن أبي طالب .

— تالله ما رأيت كالיום رجلاً أسرع في قومه !

فصمد له على عليه السلام فضربه فثشب سيف على في ترسه

ساعة ، ثم نزع فضرب به ساقه ودرعه مشتمرة فقطعهما ،

ثم أجهز عليه فقتله .

وأقبل العاص بن سعيد بن العاص يبحث عن القتال فالتقى

هنوؤ على عليه السلام ، وقتله على .

وخرج على في أثر المشركين ، فاذا برجل منهم على كتيب

رمل يقاتل سعد بن خيصة ، فقتل المشرك سعد بن خيصة والمشرك

مقنع في الحديد وكان فارساً ، فاقتحم عن فرسه فنادى :

— هلم يا بني ، لآلب إلى البراز .

فمطف على عليه السلام عليه ، فأنحط الرجل إليه مقبلا
وكان على رجلا قصيرا ، فأنحط راجعا لكي ينزل إليه ، كره
أن يعلوه فقال :

- يابن أبي طالب فررت !

- قريبا مقر ابن الشراء .

فلما استقرت قدما على وثبت ، أقبل ابن الشراء فلما دنا
من على ضربه ، فالتقى على الضربة بالدركة فوق سيف ابن
الشراء ، فضربه على عليه السلام على عاتقه وهو دارع فارتعش ،
ولقد قط سيف على درعه فظن على أن سيفه سيقتله . فاذا
بريق سيف من ورائه فطأ طأ على رأسه ويقع السيف فيطن
يحف رأس ابن الشراء بالبيضة . وإذا بصوت يقول :

- خذها وأنا ابن عبد المطلب .

والتفت على من ورائه فاذا هو حمزة عمه ، والمقتول طعيمة
ابن عدى .

فالتفت على إلى طعيمة وقال :

- والله لا نخاصمنا في الله بعد اليوم أبدا .

وكان فتية من قريش خمسة قد أسلموا فاحتبسهم آباؤهم :
قيس بن الوليد بن المغيرة . وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة .
والحارث بن زمة بن الأسود . وعلى بن أمية بن خلف ، وللعاص
ابن منبه بن الحجاج . فلما قدموا بدرا ورأوا قلة أصحاب النبي
صلى الله عليه وسلم وآله قالوا :
- غر هؤلاء دينهم .

وقال عبد الرحمن :

— والله أن لا بد منه . ألا نجعل رجلا إن متنا كفانا ما خلفنا من
عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟

فنزل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون الجمل .
وانهزم قباث بن أشيم الكنانى فيمن انهزم وغدا ينظر فإذا المشركون فى
كل وجه ، فجعل يقول فى نفسه :

— ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فيينا هو يسير معه إذ لحقهما من خلفهما ، فقال
لصاحبه :

— أبك نهوض ؟

— لا والله ما بى .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجرى فى الدروب
ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .

وأسر من بنى هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر كعب
بن عمرو ، وعقيل بن أبى طالب أسره غبيد بن أوس الظفرى ، ونوفل
بن الحارث ، ومن بنى عبد شمس عقبة بن أبى معيط ، ومن بنى أمية
عمرو بن أبى سفيان أسره على بن أبى طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون
يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطفقوا نور
الله .

وألقى الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخفوا منها فراح المسلمون
يجمعونها ، فبينما عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا فإذا أمية بن خلف

فقال له :

— إن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وآله نهانا عن قتلك .
وكان مع أبي البختری زميل له خرج معه من مكة يقال له
جنادة بن مليحة فقال أبو البختری :

— وزميلي ؟

— والله ما نحن بتاركی زميلك . ما نهانا رسول الله — صلى
الله عليه وسلم — إلا عنك وحدك .

— إذا والله لأموتن أنا وهو جميعا ، لاتتحدث عني نساء
أهل مكة أني تركت زميلي حرصا على الحياة .

فنازله المجند روار تجز أبو البختری فقال :

لن يسلم ابن حرة زميله حتى يموت أو يرى سيله
ثم اقتتلا فقتله المجندر .

كان أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — في جيش قريش . إنه خرج كارها القتال ،
فلما دفع أبو جهل بقريش دفعا إلى خوض غمار المعركة امتشق
أبو العاص سيفه وهو يرجو ألا يلتقي محمدا عليه السلام ، فإما طالما
زاره في بيت خالته خديجة قبل أن يتزوج زينب وألقى إليه سماعه
وأعجب بمنطقه وحسن خلقه . وما أكثر ما اجتمع به بعد زواج
ابنته وكان له خير أسوة لولا ذلك الدين الذي جاء به ابن
عبد الله .

وراح على بن أبي طالب يفعل بقريش الأفاعيل : فما من
رهط من بيوت شرف قريش إلا وقد قتل منه رئيسا . إنه ترك

حنظلة بن أبي سفيان مجدلاً بسيفه فأوغر عليه صدور الأمويين ،
 وقتل الوليد بن عتبة بن ربيعة فقلب عليه بنى عبد شمس ،
 واشترك مع عمه في القضاء على طعيمة بن عدى ، وترك الحارث
 ابن زمعة بن الأسود كأمن الدابر فأصبح هدف أحقاد بنى
 أسد ، وزاد في حقهم أنه ثنى بنو فل بن خويلد بن أسد ، وأضاف
 إلى الأحقاد أحقاد بنى تيم لما صرع عمير بن عثمان بن عمرو
 بن كعب بن سعد بن تيم بضربة من حسامه .

وقطع عليه السلام رأس أبي قيس بن الوليد أخى خالد بن
 الوليد فاكتسب عداوة بنى المغيرة وبنى مخزوم ، وأضاف إليه
 مسعود بن أبي أمية بن المغيرة وحاجز بن السائب المخزومي ،
 فكانت قلوب بنى المغيرة وبنى مخزوم كلها عليه .

وقتل من بنى سهم خيرة رجالهم : جدل منه بن الحجاج
 ونبیه بن الحجاج والعاص بن منه بن الحجاج وأبا العاص بن
 قيس بن عدى بن سعد بن سهم ، فكان عليه السلام قتي بلر
 أطاح برعوس أبناء الشرف في قریش في سبيل الله ، فبذر الغل
 في الصدور وراح يقاسى مرارة الأحقاد على مر الأيام وإن جاء
 الإسلام ، حتى آخر الأنفاس !

وكان حمزة أسد الله ورسوله يمشى إلى الكفار وقد أطل
 من سيفه المنون ، فما إن يرى صناديدهم ريشة النعام التي في
 صدره حتى تنخلع قلوبهم ، فقد قتل سيدهم عتبة بن ربيعة
 وفارسهم عقيل بن الأسود بن المطلب وأبا قيس بن النفاكه بن
 المغيرة ، والأسود بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن

مخزوم . إن صوته يجلجل بعد كل ضربة : « خذها وأنا ابن
عبد المطلب » ، فتخلع لها القلوب .
وارتفعت أصوات المسلمين من كل جانب .
- يامنصور أمت .

فإذا من بقي على قيد الحياة من المشركين لا يدرون أين
المقر . وراح حكيم بن حزام يسعى ويقول :
- قاتل الله ابن الحنظلية ! يزعم أن النهار قد ذهب ، والله
إن النهار لكما هو .

كان حكيم متلهفا على أن يأتي الليل فيقصر عنه طلب التوم .
وفيما هو يهرول وقد ولى الأدبار قد أدرك عيد الله وعبد الرحمن
ابن العوام على جمل لهما ، فقال عبد الرحمن لأخيه :
- انزل فاحمل أبا خالد .

وكان عيد الله رجلا أعرج لا قوة له على المشي ، فقال
عيد الله .

- إنه لأرجلة (قوة) بي كما ترى .

وقال عبد الرحمن :

- والله أن لا بد منه . ألا نحمل رجلا إن متنا كفانا ما خلفنا

من عيالنا وإن عشنا حملنا كلنا ؟

فنزّل عبد الرحمن وأخوه الأعرج فحملاه فكانوا يتعاقبون
الحمل . وانهمز قباث بن أشيم الكتاني فيمن انهزم وغدا ينتظر
فاذا المشركون في كل وجه ، فجعل يقول في نفسه :

- ما رأيت مثل هذا الأمر فر منه النساء !

وصاحبه رجل فينا هو يسير منه إذ لحقا من خلفهما ،
فقال لصاحبه :

- أهلك نهوض ؟

- لا والله ما بي .

ولحق بصاحبه المسلمون فقتلوه ، وراح يشتد ويجري في
الدروب ولم يسلك المحاج خوفا من الطلب .

وأسر من بني هاشم العباس بن عبد المطلب أسره أبو اليسر
كعب بن عمرو ، وعقيل بن أبي طالب أسره عبيد بن أوس
الظفري ، ونوفل بن الحارث ، ومن بني عبد شمس عقبة بن أبي
معيط ، ومن بني أمية عمرو بن أبي صفيان أسره على بن
أبي طالب .

وأسر خراش بن الصمة أبا العاص بن الربيع . وراح المسلمون
يضعون أيديهم على من غرهم أبو جهل وزين لهم القتال ليطفثوا
نور الله .

وأتى الذين ولوا الأدبار دروعهم ليتخففوا منها فراح
المسلمون يجمعونها ، فينا عبد الرحمن بن عوف يجمع أدرعا
فاذا أمية بن خلف صديقه في الحاملية يساق كأنه جمل ومعه
ابنه على ، فوقعت عينا أمية عليه فنادى :
- يا عبد الإله .

فأجابه عبد الرحمن فقال له أمية :

- أما لكم حاجة في اللين ؟ نحن خير لك من أدرعك هذه ؟
- امضيا .

— الحمد لله الذى أعز الإسلام . الحمد لله الذى أعز الإسلام .
الحمد لله الذى أعز الإسلام .
وخر ساجدا شكرا لله .
وراح على يقول :

— اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأتني ضربته ، وأضر به
فاتقاني بيده اليسرى فأبانها السيف فكأننى أنظر إلى وميض خاتم فى
شماله ، ثم ضربته أخرى فصرعته وسلبته فرأيت به الردع
(الزعفران) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد بعرس .

وجاء المجذر إلى رسول الله — ﷺ — يعتذر عن قتل أبى البخترى
بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح يوم أن نقض صحيفة
قريش الجائرة وقال : « لا يعرض اليوم أحد لمحمد بأذى إلا وضعت
فيه السلاح ، فجعل يقص على النبى عليه السلام ما كان بينه وبين أبى
البخترى ثم قال :

— والذى بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيك به فأبى إلا
القتال ، فقاتلته فقتلته .

وبان الأسى فى وجه رسول الله — ﷺ — فقد كان من صفاته
الوفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .
وغدا رسول الله — ﷺ — يتفقد القتلى فوقف على مصرع ابنى
عفراء فقال :

— يرحم الله ابنى عفراء فإنهما قد شركا فى قتل فرعون هذه الأمة .
ورأى عليه السلام الحارث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن
أسد ، وأبا قيس بن الفاكه بن المغيرة ، وعلى بن أمية بن خلف ، وأبا
(غزوة بدر)

قيس بن الوليد بن المغيرة ، والعاص بن منبه بن الحجاج وقد هبّرتهم
أسياف المسلمين وتركهم كأمس الدابر . إنهم كانوا أسلموا ورسول
الله ﷺ — بمكة ، فلما هاجر عليه السلام إلى المدينة حبسهم
آباؤهم وعشائرتهم بمكة وفتنهم فافتتوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر
فلما رأوا المسلمين قلة قالوا هازئين :

— غر هؤلاء دينهم .

فأنزل الله فيهم : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم
قالوا : فيم كتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا : ألم تكن
أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا .
إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا
يهتدون سبيلا . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفوا
غفورا » (١) .

وأمر رسول الله ﷺ — بالقتلى أن يطرحوا فى القليب (البئر)
فطرحوا فيه ، إلا ما كان من أمية بن خلف فإنه انتفخ فى درعه فملاها ،
فذهبوا ليحركوه ففرق لحمه فأقروه وألقوا عليه ما غييه من التراب
والحجارة .

وأخذ عتبة بن ربيعة فسحب إلى القليب ، فنظر — ﷺ — فى وجه
أبى حذيفة بن عتبة فإذا هو كتيب قد تغير لونه ، فقال :
— يا أبا حذيفة لعلك قد دخلك من شأن أهلك شيء ؟
فقال أبو حذيفة فى صوت خافت فيه رنة أسى :

— لا والله يا رسول الله ما شككت في أبي ولا في مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبي رأيا وحلما وفضلا فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام ، فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له أحزنتنى ذلك .

فدعا له رسول الله — ﷺ — بخير وقال له خيرا .

وجاء رجل من المدينة يسعى ، إنه يحمل أنباء ستدخل السرور على قلوب المسلمين ، أنباء انتصار الروم على فارس وقد كانت آيات الله البيئات تلوى بين جنبيه دويا فتجعله يود لو أن راحلته تطير ليزف البشرى إلى رسول الله — ﷺ — وكانت كل خوالجه ترتل : « ألم . غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون . فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم . وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون (١) » .

وكان الرجل يحسب أن فرح المؤمنين بنصر الله إنما سيكون لقلبة الروم على الفرس وحسب . فما كان يبرى أن المؤمنين قد انتصروا نصرهم الكبير على الكافرين فى بدر وأن الفرخ قد ملأ أفئدتهم وأن نبأ انتصار الروم على فارس تحقيقا لوعده الله إنما سيزيد فى استبشارهم ويثبت إيمانهم .

إن كسرى الثانى قد اضطهد أشراف قومه وسامهم سوء العذاب وساعد على تدهور الدين حتى فسدت الأخلاق والعقيدة وعبادات

— لله ولرسوله .

فأُقلع بيضته عن قفاه وقال ابن مسعود :

— إني قاتلك .

— لست بأول عبد قتل سيده ، أما إن أشد ما لقيته اليوم

لقتلك إياي ، ألا يكون وليّ قتلى رجل من الأحلاف أو من
المطيّين !

فضربه عبد الله ضربة وقع رأسه بين يديه ، ثم قفل عائدا

إلى رسول الله عليه السلام وعنده عقيل بن أبي طالب أسيرا ،
فقال وهو يتهلل بالفرح :

— قتلت أبا جهل .

فقال له عقيل :

— كذبت ما قتلته :

فقال ابن مسعود :

— بل أنت الكذاب الآثم ياعدو الله ، قد والله قتلته .

وقال ابن مسعود إنه قطع رقبته ، فبعث عليه السلام رجالا

يلتمسونه في القتلى وقال :

— إن خفي عليكم انظروا إلى أثر جرح في ركبته ، فإني

أزددحت يوما أنا وهو على مائدة لعبد الله بن جدعان ونحن

غلامان وكنت أسن منه يسرا ، فدفعته فوق علي ركبته فجحش

على إحديهما جحشا لم يزل أثره به .

فغدوا يطلبونه فوجدوا ذلك الأثر فعادوا إلى رسول الله —

صلى الله عليه وسلم — وقالوا :

— أبشر يا نبي الله بقتل عدو الله أبي جهل .
فقال — صلى الله عليه وسلم — وقد ترقرت في عينيه الدموع :
— الحمد لله الذي أعز الإسلام . الحمد لله الذي أعز الإسلام .
الحمد لله الذي أعز الإسلام .
وخر ساجدا شكرا لله .
وراح على يقول :

— اختلفت أنا والوليد بن عتبة ضربتين فأخطأتني ضربته ،
وأضر به فاتقاني بيده اليسرى فأبأها السيف فكأنني أنظر إلى
وميض خاتم في شاله . ثم ضربته أخرى فصرعت وسلبته فرأيت
به الردع (الزعفران) من خلوق ، فعلمت أنه قريب عهد
بعرس .

وجاء المجذر إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يعتذر عن
قتل أبي البخري بعد أن نهى عليه السلام عن قتله لأنه لبس السلاح
يوم أن نقض صحيفة قریش الحائرة وقال : « لا يعرض اليوم
أحد لمحمد بأذى إلا وضعت فيه السلاح ، فجعل يقصص على
النبي عليه السلام ما كان بينه وبين أبي البخري ثم قال :
— والذي بعثك بالحق لقد جهدت أن يستأسر فأتيك به
فأني إلا القتال . فقَاتلته فقتلته .

وبان الأسى في وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقد كان
من صفاته الوفاء لكل من قدم إليه حسنة وإن كان على غير دينه .
وغدا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتفقد القتلى فوقف
على مصرع ابني عفرأ فقال :

قدع عنك التذكر كل يوم
ورد حرارة الصدر الكئيب
وخبر بالذى لا عيب فيه
بصدق غير أخبار الكذوب
بما صنع الملك غداة بدر
لنا فى المشركين من النصيب
غداة كأن جمعهم حراء^(١)
بدت أركانه جنح الغروب
فلاقيناهم منا بجمع
كأسد الغاب مردان وشيب
أمام محمد قد وازروه
على الأعداء فى لفتح الحروب
بأيديهم صوارم مرهفات
وكل مخرب خاظي^(٢) الكعوب^(٣)
بنو الأوس الغطارف وازرتها
بنو النجار فى الدين الصليب^(٤)

(١) حراء : جبل بمكة .

(٢) الخاظي : المكتنز .

(٣) الكعوب : عقد القناة .

(٤) الصليب : الشديد .

فَعَادَرْنَا أَبَا جَهْلٍ صَرِيحًا
وَعَبَّةٌ قَدْ تَرَكَهَا بِالْجَبْرِبِ
وَشِيَّةٌ قَدْ تَرَكَهَا فِي رَجَالِ
دَوَى حَبِّ إِذَا نَسَبُوا حَبِيبَ
يُنَادِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ لَمَّا
قَلَفْنَاهُمْ كِبَاكِبَ (١) فِي الْقَلْبِ
أَلَمْ تَجِدُوا كَلَامِي كَانَ حَقًّا
وَأَمَرَ اللَّهُ بِأَخْذِ الْقُلُوبِ ؟
فَمَا نَطَقُوا وَلَوْ نَطَقُوا لَقَالُوا :
صَدَقْتَ وَكَأَنَّا رَأَى مُصِيبَ

(١) كِبَاكِبِ : جَمَاعَاتِ .

٧

نزل رسول الله ﷺ — الأئيل فعرض عليه الأسرى ، فالتق بصره ببصر عمه العباس فإذا بمشاعر رقيقة تكتنفه وقد التمعت عيناه سرورا أن أطاعه المسلمون في العباس فلم يقتلوه . وقد اكتفى بأسره أبو اليسر كعب بن عمرو وكان موقفه عليه السلام من العباس يشير كثيرا من التساؤل ، فلماذا أعلن على الملأ الأمان لعمه ؟ ألوشائج القرى التي بينهما ؟ إذا كان ذلك هو السبب فلماذا لم يعلن الأمان لعقيل بن أبي طالب وسادات بني هاشم وبني المطلب ؟ أولو كان أبو لهب في صفوف قريش أكان محمد عليه السلام يؤمن حياته ؟ إن أبا لهب قد بعث عوضا عنه العاص بن هشام بن المغيرة وكان قد قامره في عشر من الإبل فغلبه ثم في عشر فقمرة ثم في عشر فقمرة إلى أن خلعه من ماله فلم يبق له شيء ، ثم قامره على أن من غلب يصبح عبدا لصاحبه ، وقد غلب العاص وصار لأبي لهب عبدا . فلما خرج المشركون إلى بدر كان من لم يخرج أخرج بدلا . وكان أبو لهب عليلا فأخرجه وقعد على أنه إن عاد إليه أعتقه ، فقتله على بن أبي طالب . لو كان أبو لهب أسيرا لأمر عليه السلام بضرب عنقه ، فلماذا أحيا العباس ؟ أكان العباس مسلما وقد كنتم إسلامه ليكون عينا لرسول الله عليه السلام في مكة ؟ ليكون قلم مخابراته ؟! أكنتم عليه السلام سر عمه وتحمل في صبر ما رفر ف على بعض الشفاه من إنكار لذلك التحيز الظاهر في سبيل

على الفرس ، وهاهو ذا وعد الله قد تحقق ، ولكن أين أمية بن خلف ليسوق إلى أبي بكر الرهان ؟ إنه غارق في خزيه تحت التراب والحجارة . وأين أبو جهل والمكذبون ؟ إنهم في القليب نهاية كل الطغاة المتعجرفين ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وبقى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثلاثة أيام بيدلر ، وفي الليل أمر براحلته فشد عليها رحلها ثم مشى واتبعه أصحابه حتى قام على شفة القليب وجعل يقول :

— يا عتبة بن ربيعة ويا شيبة بن ربيعة ويا أمية بن خلف ويا أبا جهل بن هشام ، بئس عشيرة النبي كنتم . كذبتُموني وصدقني الناس ، وأخرجتُموني وآوأتني الناس ، وقتلتُموني ونصرتني الناس . هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني قد وجدت ما وعظمتني ربّي حقاً . فقال عمر :

— يا رسول الله كيف تكلم أجسادا قد جيّفوا ؟
— ما أنتم بأسمع لما أقول منهم .
وسار المؤمنون يحملون الغنائم ويسوقون الأسرى ، وراح حسان بن ثابت شاعر الرسول يقول :

عرفت ديار زينب بالكثيب كخط الوحي (١) في الورق القشيب
تداولها الرياح وكل جَون (٢) من الوسمي (٣) منهمر سكوب

(١) الوحي : الكتابة .

(٢) الجون : الأبيض والأسود

(٣) الوسمي : مطر الخريف .

كذبا وكذبا .

— يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي ، إن قتلوا قتلتي وإن منّ عليهم منّ علي .

— إنك كنت تعذب أصحابه .

— أما والله لو أسرتك قریش ما قتلتي أبدا وأنا حي .

قال مصعب :

— والله إنني لأراك صادقا ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام

العهود .

وقال عليه السلام :

— اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

— أسيري يا رسول الله !

— اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه .

فقام علي فاضرب عنقه ، وإذا بخوف قاتل يدثر الأسرى جميعا ،

وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى المقدم فقد رماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم حتى وجده قد أخذه مالك

ابن الدخشم وهو ممسك بناصيته فقال سعد :

— أسيري رميته .

فقال مالك :

— أسيري أخذته .

فأتيا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذه منهما

جميعا ، ورآه عمر فقال لرسول الله ﷺ :

— انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطييا أبدا .

فقال رسول الله ﷺ :

— لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نيا ، ولعله يقوم مقامها لا
تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر رسول الله
عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبرا ، فلم يعد سهيل بن عمرو
يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .

ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبي معيط نظرة ارتجفت لها
فرائضه . إن عقبة قد داس على رقية رسول الله وهو ساجد في الحرم
حتى كادت عيناه الشريفتان أن تخرجا من محاجرهما ، وقد قال له
عليه السلام وقتئذ : لأقتلنك . إن التقيت بك خارج مكة . وها هو ذا
عليه السلام ينظر إليه وهما في الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار ،
ولكن رسول الله — ﷺ — قد شغل عنه بالنظر إلى أبي العاص بن
الربيع زوج ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله — ﷺ — بالأثيل قبل الغروب فنزل به ، وبات به
وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ، فلما انتهى من إلقاء نظرة على
الأسرى قال :

— من رجل يحفظنا الليلة ؟

فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكت ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— أبو سبيع .

فسكت ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :

— وأين صاحبك ؟

— يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى

محبوسون فى الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لا تنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنين العباس^(١) من وثاقه .

(١) روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبى رافع قال : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد فشا فبنا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل وزوجه . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتبهم لإسلامه .

أَكْتَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سِرَّ عَمِّهِ وَتَحَمَّلَ فِي صَبْرٍ مَا رَفَرَفَ عَلَى بَعْضِ الشُّفَاهِ مِنْ إِنْكَارٍ لَذَلِكَ التَّحِيزِ الظَّاهِرِ فِي سَبِيلِ نَصْرَةِ قَضِيَّةِ الْإِسْلَامِ؟
إِنْ سِرَّ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ كَانَ فِي صَدْرَيْنِ لَانْتَالَتْ لهُمَا :
صَدْرُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَصَدْرُ عَمِّهِ الَّذِي خَرَجَ مَعَهُ لِيَقْفَ إِلَى جَوَارِهِ فِي بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ وَلِيَأْخُذَ عَلَى الْأَنْصَارِ الْمَوَائِقَ لِحِمَايَةِ رَسُولِ اللَّهِ — صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَرَأَى عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَحَبَّ أَبْنَاءِ عَمِّهِ إِلَى قَلْبِ الشَّيْخِ فِي الْأَسْرِ ، وَنُوفَلُ بْنُ الْحَارِثِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ وَقَدْ أَسْرَهُ جِبَارُ بْنُ صَخْرٍ ، فَتَجَاوَزَهُمَا ثُمَّ نَظَرَ إِلَى النَّضْرِ بْنِ الْحَارِثِ وَقَدْ أَسْرَهُ الْمَقْدَادُ فَآذَا فِي مِثْلِ لَمَحِ الْبَصْرِ يَتَذَكَّرُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كُلِّ مَا كَانَ يَفْعَلُ النَّضْرُ مِنْ هَزْءٍ بِهِ وَبَيَّاتٍ لِلَّهِ . فَيَا طَالَمَا قَالَ :
« قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١) » . « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ (٢) » ، وَارْتَجَفَ النَّضْرُ وَاقْشَعَرَ جُلْدُهُ مِنْ نَظَرَتِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لِرَجُلٍ إِلَى جَنْبِهِ :

— مُحَمَّدٌ وَاللَّهِ قَاتِلِي ! لَقَدْ نَظَرَ إِلَى بَعِيْنَيْنِ فِيهِمَا الْمَوْتُ !

فَقَالَ الَّذِي إِلَى جَانِبِهِ :

— وَاللَّهِ مَا هَذَا مِنْكَ إِلَّا رَعْبٌ .

فَقَالَ النَّضْرُ لِمَصْعَبِ بْنِ عَمِيرٍ :

— يَا مَصْعَبُ أَنْتَ أَقْرَبُ مِنْ هَاهُنَا بَنِي رَحِمَا ، كَلِمٍ

صَاحِبِكَ أَنْ يَجْعَلَنِي كَرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِي ، هُوَ وَاللَّهِ قَاتِلِي إِنْ لَمْ تَفْعَلْ .

قال مصعب :

— إنك كنت تقول في كتاب الله كذا وكذا وكذا وتقول في نبيه كذا وكذا .

— يا مصعب فليجعلني كأحد أصحابي ، إن قتلوا قتلتي وإن منّ عليهم منّ علي .

— إنك كنت تعذب أصحابه .

— أما والله لو أسرتك قريش ما قتلنا أبدا وأنا حي .

قال مصعب :

— والله إني لأراك صادقاً ولكن لست مثلك ، قطع الإسلام العهود .

وقال عليه السلام :

— اضربوا عنقه .

فقال المقداد :

— أسيري يا رسول الله !

— اللهم أغن المقداد من فضلك ، قم يا علي فاضرب عنقه .

فقام على فاضرب عنقه ، وإذا يخوف قاتل يدثر الأسرى

جميعاً ، وكان سهيل بن عمرو يرتجف من الرأس إلى القدم فقد

رماه سعد بن أبي وقاص بسهم فقطع نساءه ، فاتبع أثر الدم

حتى وجده قد أخذه مالك بن النخشم وهو ممسك بناصيته

فقال سعد :

— أسيري رميته .

فقال مالك :

— أسيري أخذته .

فأتيا رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — فأخذه منهما جميعا ، ورآه عمر فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
 — انزع ثنيتيه يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيبا أبدا .
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 — لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبيا ، ولعله يقوم
 مقامها لا تكرهه .

كان ذلك قبل أن يسوق المسلمون الأسرى . أما وقد أمر
 رسول الله عليه السلام بقتل النضر بن الحارث صبورا ، فلم يعد
 سهيل بن عمرو يأمن على حياته فراح يتحين الفرص للهرب .
 ونظر عليه السلام إلى عقبة بن أبي معيط نظرة ارتجفت لها
 فرائضه . إن عقبة قد داس على رقة رسول الله وهو ساجد
 في الحرم حتى كادت عيناه الشريقتان أن تخرجا من
 حاجرهما ، وقد قال له عليه السلام وقتئذ : لأقتلنك إن التقيت
 بك خارج مكة . وها هو ذا عليه السلام ينظر إليه وهما في
 الأثيل نظرة كاد من هولها أن ينهار ، ولكن رسول الله — صلى
 الله عليه وسلم — قد شغل عنه بالنظر إلى أبي العاص بن الربيع زوج
 ابنته الحبيبة زينب .

مر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالأثيل قبل
 الغروب فنزل به . وبات به وبأصحابه جراح ليست بالكثيرة ،
 فلما انتهى من إلقاء نظرة على الأسرى قال :
 — من رجل يحفظنا الليلة ؟
 فسكت القوم ، فقام رجل فقال :

— من أنت ؟

— ذكوان بن عبد قيس .

— اجلس .

ثم سكث ساعة وأعاد القول ، فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

— ابن عبد قيس .

— اجلس .

ثم مكث ساعة وأعاد القول فقام رجل فقال عليه السلام :

— من أنت ؟

٥

— أبو سبيع .

فسكث ثم مكث ساعة وقال :

— قوموا ثلاثكم .

فقام ذكوان بن عبد قيس وحده ، فقال له عليه السلام :

— وأين صاحبك ؟

— يا رسول الله أنا الذى كنت أجيبك الليلة .

— فحفظك الله !

فبات ذكوان يحرس المسلمين تلك الليلة وأمسى القوم والأسارى محبوسون فى الوثاق ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

— مالك لاتنام يا رسول الله ؟

— سمعت أنين العباس (١) من وثاقه .

(١) دوى عكرمة مولى ابن عباس عن أبى رافع قال : كنت غلاما للعباس

فقاموا إليه فأطلقوه ، فنام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى كان آخر الليل فارتحل ذكوان . وأقبل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالأسرى حتى إذا كان بعرق الظبية أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح أن يضرب عنق عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس . فجعل عقبة يقول :

- يا ويلي علام أقتل يامعشر قريش من بين ما هنا ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

- لعداوتك لله ولرسوله .

- يا محمد منك أفضل ، فاجعلني كرجل من قومي إن

قتلتهم قتلتي وإن مننت عليهم مننت علي . وإن أخذت منهم

الغداء كنت كأحدكم ، يا محمد من للصبيبة ؟

- النار ، قدمه يا عاصم فاضرب عنقه .

فقدمه عاصم فاضرب عنقه ، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - :

- بلئس الرجل كنت ، والله ما علمت كافرا بالله وبرسوله

وبكتابه مؤذيا لنبيه ، فأحمد الله الذي قتلك وأقر عيني منك .

وكان منادى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد نادى :

- من قتل قتيلا فله سلبه ، ومن أسر أسيرا فهو له .

وكانت الإبل التي أصابوها يوم بدر مائة وخمسين بعيرا ،

وكان مع قريش آدم كثير حملوه للتجارة وأصاب المسلمون من

بن عبد المطلب ، وكان الاسلام قد فشا فينا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل زوجته . وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم اسلامه .

ورفرت على شفاهها الذابلة آخر ما يرفرف على شفاه المؤمنين ، راحت تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فأحست أم كلثوم أن قلبها قد بلغ حنجرتها وأن دموعها التي جرت على خديها إنما هي نزيف كبدها ، وإن روحها ستفر منها قبل أن تشهد نهاية رقية . واضطربت فاطمة الزهراء من الرأس إلى المقدم وزاغت نظراتها وقد اعتصر الحزن قلبها ، وإذا بفاجعتها في أمها الطاهرة وسيدة نساء قریش تتجدد ، فهي تحس أن خديجة قد عادت لموت مرة أخرى مع رقية الحبيبة ، فاحتلت صفحة رأسها صورة خديجة وهي مسجاة في فراشها جثة هامدة ، وملأت عينها من أختها المملودة في فراشها وقد علتها صفرة الموت وحشرجت روحها في صدرها . وجعلت فاطمة تتلفت دون أن تدرى إلى من تفرع من تلك الآلام الهائلة التي تلهب وجدانها بسياطها ، إنها فوق طاقتها وتعجز عن احتمالها ، فغدت تنادى في همس :

— أبتاه ! أبتاه !

ومن غير رسول الله عليه السلام يمسح آلام بناته ؟ ولكن رسول الله ﷺ — قد خرج في سبيل الله ليعلى كلمة الله ، وقد ترك ابنته مريضة فما أقعده مرضها عن الخروج ، فما بعث إلا ليعلم الناس أن للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين .

ولم يرقأ لأُم أيمن دمع وراحت ذكريات أيام مكة تنثال على رأسها ، فرأت يوم ولدت رقية كأنما كان ذلك بالأمس القريب . أحقا قد مرت الأيام سريعا وحان وقت الفراق ؟ إنها لا تريد أن تصدق أنه

الموت وإن كانت الأنفاس قد اضطربت وشخص البصر والتفت الساق بالساق .

أتكون رقية أول من تلحق بأُم المؤمنين من بناتها ؟ واستشعرت أُم أيمن كأن روح خديجة ترفرف في المكان فسرت في جسمها قشعريرة ولفها خوف وشرقت بدموعها ثم أجهشت بالبكاء . فإذا بالعيون التي فاضت بالعبرات تلتفت إليها كأنما تسألها أن تكف عن العويل حتى لا تؤذي الحبيبة التي كانت تلفظ آخر الأنفاس .

وجاء أسامة بن زيد إلى أُمه عابس الوجه فقد فطن إلى ما يقاسيه الذين التفوا حول فراش رقية من أحزان ، وإذا بدموعه تنهمر فيخفي وجهه في صدر أُمه ليكتم في جوفه ما يتردد فيه من عويل وصراخ . وذاعت رقية الموت فارتمى عثمان عليها يبكي ويتحب ، وصرخت أُم كلثوم صرخة مفزوعة مزقت السكون الذي ران طويلا على المكان ، وأطلقت فاطمة صيحات انخلع لها قلوب الجيران فهرعوا يسألون فقيل لهم :

— ماتت رقية بنت رسول الله .

وجاء رجال الأنصار وقد لاح في وجوههم الأسى ، وزاد في حزنهم أن رقية تموت دون أن يراها رسول الله عليه السلام : وغفت النسوة إلى حيث كانت الجثة الطاهرة ليشاركن أُم كلثوم وفاطمة الزهراء في المصاب .

وجهزت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف النعش عثمان بن عفان وهو واله حزين ومن حوله الرجال محزونين وأسامة بن زيد يجesh بالبكاء . حتى إذا بلغت الجنائزة البقيع ، قبرت رقية بنت

رسول الله عليه السلام وقد انهمرت الدموع من عيون الرجال .
وسووا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —
التراب ، وفيما هم عائدون إذا يزيد بن حارثة قد أقبل على ناقه رسول
الله — ﷺ — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا إليه يلقون إليه
أسماعهم .

كان رسول الله — ﷺ — قُتِمَ من الأثيل زيد بن حارثة وعبد الله
ابن رواحة يشران الناس بالمدينة فجاء يوم الأحد في الضحى ، وفارق
عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله يتأذى عوالي المدينة .
— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين
وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن الأسود
وأمية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب فى أسرى كثير .
فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :
— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى
مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية ييشرهم دارا دارا والصبيان يشتدون معه
ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بنى أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقه النبى — صلى الله عليه وآله وسلم —
القصواء ييشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل
عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختري وزمعة بن

الأسود وأمّية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرى كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :
— ما جاء زيد إلا فلا .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسامة
ابن زيد :

— قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبي لبانة بن عبد المنذر :

— قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عليّة
أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا
يبرى ما يقول من الرعب وقد جاء فلا .

فقال أبو لبانة :

— كذب الله قولك .

وقالت يهود :

— ما جاء زيد إلا فلا .

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

— يا أبت ! أحق ما تقول ؟

— إى والله حقاً يا بني .

فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المنافق فقال :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لتقدمناك إلى رسول

الله — ﷺ — إذا قدم فليضربن عنقك .

— إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه .



وسار رسول الله ﷺ — والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم
الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيا وملل وسهيل بن عمرو مع
مالك بن الدخشم الذى أسره ، قال سهيل لمالك :
— خلّ سبيلى للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

— إني أحتشم فاستأخر عني ،

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران
ومضى ، فلما أبطلأ سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح فى الناس
فخرجوا فى طلبه ، وخرج النبی ﷺ — فى طلبه بنفسه وقال :
— من وجده فليقتله .

وراحوا ينقبون عنه على ظهور الجياد والإبل ، وانطلق ﷺ فى أثره
فوجده أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فإذا بهسهيل لا يتحرك من
مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه ﷺ ثم عاد به فأمر به
فربطت يده إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأسرا مع رهط من الأنصار فكانوا إذا
تعشوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع فى يده
الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل
أبو العاص يفكر فى ذلك الدين الذى جاء به ختنه رسول الله ﷺ ، فهو

يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق
المتين ، فما لقنهم محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها في
بضعة شهور ، واستمر أبو العاص ينقاد إلى عقله السليم المبرأ عن
الأهواء فإذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذي يدعو إلى مكارم
الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله — ﷺ — بمكة يزعم
أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :
— فارق صاحبك بنت محمد ونحن نزوجك أى امرأة شئت من
قريش .

— لاهأ الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من
قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنه محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى
وهو أسير بن يدى ختنه أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويحب أباه ،
وإن رسول الله — ﷺ — إذا ذكره يشئ عليه خيراً ، وإن حقيقة ما
يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تنجلي لبصيرته . ولولا خشيته من أن
يقال إنه ما أسلم إلا خوفاً من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن
لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبى لهب فى ذلك الوقت ، فقد مشوا
إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة شئت من قريش .
— إن أنتم زوجتمونى ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة سعيد بن
العاص فارقها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق رقية أجمل النساء

وجهازت جثة رقية ثم حملت على الأعناق ، وقد سار خلف
النعش عثمان بن عفان وهو والده حزين ومن حوله الرجال محزونين
وأسماء بن زيد يجبهش بالبكاء . حتى إذا بلغت الخنازة البقيع ،
قبرت رقية بنت رسول الله عليه السلام وقد أنهمرت الدموع
من عيون الرجال .

وسووا على رقية بنت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم —
التراب ، وفيما هم عائدون إذا بزيد بن حارثة قد أقبل على ناقه
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وانطلق إلى المسجد ، فهرعوا
إليه يلقون إليه أسماعهم .

كان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قدّم من الأثيل زيد بن
حارثة وعبد الله بن رواحة يبشران الناس بالمدينة فجاء يوم الأحد
في الضحى ، وفارق عبد الله زيدا بالعقيق فجعل عبد الله ينادى
عوالى المدينة .

— يا معشر الأنصار أبشروا بسلامة رسول الله وقتل المشركين
وأسرهم ، قتل ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وزمعة بن
الأسود وأمّية بن خلف ، وأسر سهيل بن عمرو ذو الأنياب
في أسرى كثير .

فقام إليه عاصم بن عدى فقال له :

— أحقا ما تقول يا بن رواحة ؟

— إى والله وغدا يقدم رسول الله إن شاء الله ومعه الأسرى مقرنين .

ثم تتبع دور الأنصار بالعالية يبشرهم دارا دارا والصبيان
يشدون معه ويقولون :

— قتل أبو جهل الفاسق .

حتى انتهوا إلى دور بني أمية بن زيد .

وقدم زيد بن حارثة على ناقة النبي — صلى الله عليه وآله وسلم — القصواء يبشر أهل المدينة ، فلما جاء المصلى صاح على راحلته : قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة وابنا الحجاج وأبو جهل وأبو البختری وزمعة بن الأسود وأمّية بن خلف ، وأسر سهيل ابن عمرو ذو الأنساب في أسرى كثير .

فجعل الناس لا يصدقون زيد بن حارثة ويقولون :

— ما جاء زيد إلا فلا .

حتى غاظ المسلمين ذلك وخافوا ، فقال رجل من المنافقين لأسامة بن زيد :

— قتل صاحبكم ومن معه .

وقال رجل من المنافقين لأبي لبانة بن عبد المنذر :

— قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون معه أبدا ، وقد قتل عليه أصحابكم وقتل محمد وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد بن حارثة لا يدري ما يقول من الرعب وقد جاء فلا .

فقال أبو لبانة :

— كذب الله قولك :

وقالت يهود :

— ما جاء زيد إلا فلا :

فجاء أسامة بن زيد حتى خلا بأبيه فقال :

— يا أبت ! أحق ما تقول ؟

— إني والله حقا يا بني .

فقويت نفس أسامة فرجع إلى ذلك المتافق فقال :

— أنت المرجف برسول الله وبالمسلمين ؟ لتقدمتك إلى

رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إذا قدم فليضربن عنقك .

— إنما هو شيء سمعت الناس يقولونه .

وسار رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والذين معه ليدخلوا المدينة ومعهم الأسرى ، حتى إذا ما بلغوا تنوكة بين السقيما وملل وسهيل بن عمرو مع مالك بن الدخشم الذي أسره ، قال سهيل لمالك :

— خل سييلي للغائط .

فقام معه ، فقال سهيل :

— إني أحتشم فاستأخر عني .

فاستأخر عنه فمضى سهيل على وجهه ، انتزع يده من القران ومضى ، فلما أبطا سهيل على مالك بن الدخشم أقبل فصاح في الناس فخرجوا في طلبه ، وخرج النبي - صلى الله عليه وسلم - في طلبه بنفسه وقال :

— من وجدته فليقتله .

وراحوا ينقبون عنه على ظهور الحياض والإبل ، وانطلق عليه السلام في أثره فوجده أخفى نفسه بين شجرات فتقدم إليه ، فاذا بسهيل لا يتحرك من مكانه بل ظل ثابتا وهو مأخوذ ، فقبض عليه عليه السلام ثم عاد به فأمر به فربطت يداه إلى عنقه ثم قرنه إلى راحلته .

وكان أبو العاص بن الربيع مستأصرا مع رهط من الأنصار

فكانوا إذا تشبوا أو تغدوا آثروه بالخبز وأكلوا التمر ، حتى إن الرجل لتقع في يده الكسرة فيدفعها إليه . وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، فجعل أبو العاص يفكر في ذلك الدين الذى جاء به ختنته رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو يعرف الأوس والخزرج قبل الإسلام فما كانوا على مثل ذلك الخلق المتين ، فما لقتهم محمد عليه السلام كان معجزة أتت ثمارها في بضعة شهور ، واستمر أبو العاص ينقاد إلى عقله السليم المبرأ عن الأهواء فإذا بفؤاده يهوى إلى الدين القيم الذى يدعو إلى مكارم الأخلاق .

وشرد به الخيال إلى أيام أن كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة يزعم أنه رسول الله ، فرأى سادات قريش يمشون إليه ويقولون :

— فارق صاحبك بنت محمد ونحن نزوجك أى امرأة شئت من قريش .

— لاها الله ! إذن لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى امرأة من قريش .

إنه أبى أن يطلق ابنة محمد وإن كان على غير دينه ، وهو سعيد حتى وهو أسير بن يدى ختنته أنه لم يطلقها . فهو يحب زينب ويحل أباه ، وإن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا ذكره يثنى عليه خيرا ، وإن حقيقة ما يدعو إليه محمد رسول الله بدأت تتجلى لبصيرته . ولولا خشيته من أن يقال إنه ما أسلم إلا خوفا من الأسر أو القتل لأعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله .

وتذكر ما كان من أمر عتبة بن أبي لهب في ذلك الوقت ،
فقد مشوا إليه فقالوا :

— طلق بنت محمد ونحن ننكحك أى امرأة شئت من قريش .
— إن أنتم زوجتموني ابنة أبان بن سعيد بن العاص أو ابنة
سعيد بن العاص فارقتها ، فزوجوه ابنة سعيد بن العاص ففارق
رقية أجمل النساء خلقا ومُخلقا ، ولم يقف في عداوته عند هذا
بل تطوع ليبصق في وجه ختنه ، وكانت ثمرة ذلك البغى أن أكل
السبع ذلك السفیه ابن حمالة الحطب .

وقفز به خياله إلى مكة إلى حيث غادر زينب ليحارب أباهما
مع سفهاء قومه ، إنه وهو في غمرة حماسه لم يفكر في مشاعر
زوجيه ، أما الآن وهو أسير منطلق مع الأسرى إلى مدينة الرسول
فهو يحس حقيقة عواطفها ، إنها ممزقة بينه وبين أبيها قد استولى
عليها خوف قاتل أن تفجع في أحدهما ، فهو على ثقة من أنها
تجبه ، ولا شك في عظم حبها لأبيها ، وعما قليل سيفد الناعمي
إلى مكة لينعى ساداتها وستلتقف زوجته الأنباء في قلق ولحفة ،
لاتدرى أنفرح أم تحزن !

لك الله يا زينب : لیت أحدا يحمل إليك أن أبا العاص بن
الربيع زوجك الحبيب بين يدي أب رقيق ورسول كريم ليسكن
قلق نفسك وينقشع خوف قلبك وينزل بك أمن وسكينة إلى حين .
ولقي الناس رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالروحاء
يهنثونه بفتح الله عليه ، فلقيه وجوه الخزرج ، فقال سلمة بن
سلامة بن وقش :

— ما الذى تهشون به ؟ فوالله ما قتلنا إلا عجائز صلعا !
فتبسم النبي — صلى الله عليه وآله — فقال :
— يا بن أخى أولئك الملائكة ، لو رأيتهن لهبتهم ولو أمروك
لأطعتهن ، ولو رأيتهن فعالك مع فعالهن لاحتقرتهن ! وبئس القوم
كانوا على ذلك لئبيهم !
فقال سلمة :

— أعود بالله من غضبه وغضبه رسول الله ، إنك يا رسول الله
لم تزل عني معرضا فقد كنا بالروحاء في بلدأتنا .
فقال — صلى الله عليه وسلم :

— أما ما قلت للأعرابي : وقعت على ناقتك فهي حبل منك
ففحشت وقلت ما لا علم لك به . وأما ما قلت في القوم فانك عمدت
إلى نعمة من نعم الله تزهدها .

فاعتذر سلمة فقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
معذرتيه ، ليصبح سلمة من عليّة أصحابه .

ولقي رسول الله عليه السلام أسيد بن حضير فقال :
— يا رسول الله الحمد لله الذى ظفرك وأقر عينك . والله
يا رسول الله ما كان تخلفى عن بدر وأنا أظن بك أنك تلقى عدوا
ولكننى ظننت أنها العير ، ولو ظننت أنه عدو لما تخافت .
— صدقت .

وراح رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يتقدم على ناقته
القصواء وقد ربطت يدا سهيل بن عمرو إلى عنقه وقرن إلى
الناقة ، وكان سهيل أعلم مشقوق الشفة العليا فكانت أنيابه يادية

فلذلك قالوا : ذو الأناب . ورأى أسامة بن زيد رسول الله عليه السلام فهرع إليه وهو فرحان قد نسي ما أحس من ألم لموت رقية ، ولقيه رسول الله وهو متهلل الأسارير فأجلسه بين يديه .

ونظر الناس إلى سهيل بن عمرو وقالوا :

— يا رسول الله أبو يزيد !

— نعم ، هذا الذي كان يطعم الخبز بمكة .

وجعل أسامة ينظر إلى سهيل ثم قال :

— يا رسول الله هذا الذي كان يطعم الثريد بمكة .

— هذا أبو يزيد الذي يطعم الطعام ، ولكنه سعى في إطفاء نور الله فأمكن الله منه .

وراح مالك بن الدخشم الذي أسره يقول :

أسرت سهيلا فلا أبغى

به غيره من جميع الأمم

وخندف تعلم أن الفتى

سهيلا فتأها إذا تظلم

ضربت بذي الشفر (١) حتى انثنى

وأكرهت نفسي على ذى العلم

وبين الوجوه المستبشرة بنصر الله تقدم وجهه باسرا لا يستطيع أن يخفى آلام نفسه وإن جاهد ليطوى أحزانه بين ضلوعه حتى ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنصر الله . إنه عثمان بن عفان صاحب الفجيعتين : فجيعته في رقية الزوجة الوفية وفجيعته

(١) ذو الشفر : كناية عن السيف

في نسبه من رسول الله عليه السلام ، إنه يحاول أن يبعد عينيه المحمرتين من أثر البكاء عن عيني رسول الله عليه السلام ، ولكن محمدا عليه السلام قرأ في وجهه الحميل قصة المأساة . فطن في لحظة أن رقية الحبيبة قد مضت ولن تذوق الموت بعدها أبدا ، فخفق قلبه حزنا وفاضت رفته فاذا بالدموع تنظر من عينيه ، وإذا به يفتح ذراعيه ليضم عثمان إلى صدره ، وإذا بقلبي الرجلين يزان حزنا وأسى على الغالية .

ونظر أبو بكر وعمر وعلى والرجال العائدون من المعركة مزهوين بالنصر إلى نبيهم الكريم وقد تحركت إنسانيته لوفاة ابنته قبلت العبرات أرواحهم قبل أن تترقب في مآقيهم ، وزاد في أساهم إشفاقهم على رسول الله عليه السلام فقد كانوا يعلمون مقدار إرهاف حسه ورقة مشاعره .

وسار عليه السلام مطأطئ الرأس إلى الدار يحس ألم الثكل ، فلما دخل على أم كلثوم وفاطمة الزهراء ألقى نسوة من الأنصار عندهما ، فما إن وقعت عينا فاطمة على أبيها حتى انخرطت في البكاء فمشى إليها والحزن يعتصره وغدا يمسح دموعها بظرف ثوبه ، وأجهشت أم كلثوم بالعويل ، ولم يستطع عثمان أن يكبح جماح عواطفه فراح يسح الدموع في صمت ويحاول أن ينأى بوجهه عن رسول الله عليه السلام .

وأحس النسوة بالدموع تجري إلى العيون فانسجن من الغرفة وأجهشن بالبكاء ، فلما صك العويل أذن عمر بن الخطاب أشفق على حبيبه رسول الله عليه السلام فراح يزجرهن في عنف ،

فخرج الأب التاكل إليه وقال :

— مهما يكن من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان .

وخرج رسول الله عليه السلام إلى البقيع ومن حوله أصحابه الذين شاركوه فرحة النصر ليشاركوه أحزان الفراق : ووقف حليف الأحزان على قبر ابنته مطرق الرأس يدعو لها بالغفران .

إنه يحس بالألم من أعماق وجرده وهو يستشعر في نفس الوقت بقدرة الله . إنه مهما انتصر فهذه هي نهاية الحياة الدنيا فلا ينبغي أن يدير أى نصر دنيوى رأس رسول الله عليه السلام .. إنه بعث رحمة للعالمين فكتب عليه أن يذوق ألم الأحزان ليتدفق قلبه بالحنان على البشر ، فما من نصر أحرزه إلا قد قرن بالألم ، فطريق الرسالة ليس بالطريق الذى تحفه الورود والرياحين ، وإنما هو طريق شائك وعر تكتنفه المشاق والآلام والأحزان . وما أكثر الآلام والأحزان في حياة رسول الله — صلى الله عليه وسلم :

كانت سودة بنت زمعة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم -
عند آل عفراء في مناحتهم على عوف ومعوذ اللذين كانا أول
من أصابا أبا جهل ، وكانت أم سلمة هند بنت أبي أمية بن
المغيرة زاد الركب هناك ، وكانت زوجة عبد الله بن عبد
الأسد المخزومي ابن عم الرسول عليه السلام : برة بنت
عبد المطلب . وبينما النساء في المناحة جاء من قال :

- هؤلاء الأسرى قد أتى بهم -

فخرجت سودة بنت زمعة إلى بيتها ورسول الله عليه السلام
فيه ، وإذا سهيل بن عمرو مجموعة يدها إلى عنقه في ناحية
البيت ، فما ملكت نفسها حين رآته مجموعة يدها إلى عنقه أن
قالت :

- أبا يزيد ، أعطيتم بأيديكم ! ألا تم كراما ؟

فما راعها إلا قول رسول الله - صلى الله عليه وآله

وسلم - من البيت :

- ياسودة ، أعلى الله وعلى رسوله ؟

- يا نبي الله والذي بعثك بالحق إني ما ملكت نفسي حين

رأيت أبا يزيد مجموعة يدها إلى عنقه أن قلت ما قلت ؟

ودخل خالد بن هشام بن المغيرة وأميه بن أبي حذيفة منزل

أم سلمة وأم سلمة في المناحة ، فلما قيل : « أتى بالأسرى »

خرجت فدخلت عليهم فلم تكلمهم فهم أسرى رسول الله عليه السلام ، وجعلوا يتحدثون إليها وهي صامته ، ثم رأت أن تخرج تستشير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيهم ، فانطلقت حتى وجدته في بيت عائشة فقالت :

- يا رسول الله إن بنى عمى طلبوا أن يدخل بهم على فاضيفهم وأدهن رءوسهم وألم من شعهم ، ولم أحب أن أفعل شيئاً من ذلك حتى أستاذمرك .

- لست أكره شيئاً من ذلك ، فافعلي من هذا ما بدا لك .
وجاء زوجها أبو سلمة المخزومي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغفر الله من كلامه في أبي جهل . فقله . كان عند النبي - صلى الله عليه وسلم - ساعة أن جاءه عبد الله بن مسعود يقول إنه قتل أبا جهل ، فقد وجد أبو سلمة في نفسه فهو مخزومي وأبو جهل سيد بنى مخزوم وأقبل على ابن مسعود يقول :

- أنت قتلته ؟

- نعم ، الله قتله !

- أنت ووليت قتله ؟

- نعم .

- لو شاء لجعلك في كفه !

- فقد والله قتلته وجردته .

- فما علامته ؟

- شامة سوداء يبطن فخذها اليمنى .

فعرف أبو سلمة النعت فيقال :

— أجردته ولم يجرّد قرشي غيره !

— إنه والله لم يكن في قريش ولا في حلفائها أحد أعدى لله ولا لرسوله منه ، وما أعتذر من شيء صنعت به .

إن أبا سلمة يحسن وهو بين يدي رسول الله أنه وجد في نفسه لكافر ناصب رسول الله عليه السلام الغداء ، فندم على ما كان منه فقال :

— اللهم إني قد أنجزت ما وعدتني فتمم على نعمتك .

وشرد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يفكر في المعركة فإذا به يرى عمه حمزة وهو معلم بريشة نعام في صدره يصول ويجول في صفوف قريش . ويفعل بهم الأفاعيل ، وابن عمه . وربيّه وحبيبه علي بن أبي طالب يتقض على أعداء الله انقضا . الليوث : لقد كان حمزة قبل بدر أسد الله وأسد رسوله وكانت قريش ترتجف منه فرقا . أما بعد بدر فقد اشتهر أمر علي بعد أن أطاح برعوس سادات بيوت الشرف في قريش . لقد بدر علي بشجاعته بنور الحق في نفوس القرشيين وبات بينه وبين أشراف مكة ثارات لن يقوى الدين على إخماد نارها أو نزع أنيابها . ورأى حارثة بن سراقة عند الحوض وقد أصابه سهم غريب . (لا بدري راميه) . ورأى نفسه عليه السلام وهو قادم إلى المدينة بعد أن أيده الله بنصره . فجاءت أم حارثة إليه فقالت :

— يا رسول الله قد عرفت موضع حارثة في قلبي فأردت

أن أبكي عليه ، ثم قلت : لا أفعل حتى أسأل رسول الله — صلى

الله عليه وسلم - عنه ، فان كان فى الجنة لم أبكه ، وإن كان فى النار بكيته فأعولته !

- هبلت : أجنة واحدة ! إنها جنات كثيرة . والذى نفسى بيده إنه لى الفردوس الأعلى .
- فلا أبكى عليه أبدا .

وحسن الأسرى وجعل عليهم شقران مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، قطمعوها فى الحياة فقالوا :

- لو بعثنا إلى أبى بكر فإنه أوصل قريش لأرحامنا .

فبعثوا إلى أبى بكر فأتاهم فقالوا :

- يا أبا بكر إن فىنا الآباء والأبناء والإخوان والعنومة وبنى العم وأبعدنا قريب : كلم صاحبك فليمن علينا ويقادنا .
- نعم إن شاء الله ، لا آلوكم خيرا .

ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
قالوا :

- وابعثوا إلى عمر بن الخطاب فإنه من قد علمتم ولا يؤمن أن يفسد عليكم لعله يكف عنكم !

فأرسلوا إليه فجاءهم ، فقالوا له مثل ما قالوا لأبى بكر فقال :

- لا آلوكم شرا .

ثم انصرف إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فوجد أبا بكر عنده والناس حوله وأبو بكر يلىته ويغشاه ويقول :

- يا رسول الله باقى أنت وأمى ، وقومك فيهم الآباء والأبناء

والعمومة والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ، فامتن عليهم
من الله عليك أوفادهم قوة للمسلمين قلعل الله يقبل بقلوبهم إليك .
ثم قام فتنحى ناحية ، وسكت رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فلم يجبه ، فجاء عمر فجلس مجلس أبي بكر فقال :
- يا رسول الله هم أعداء الله كذبوك وقاتلوك وأخرجوك .
اضرب رقابهم فهم رعوس الكفر وأئمة الضلال يوطئ الله بهم
الإسلام ويذل بهم الشرك .

يا رسول الله أطفئ فيما أشير به عليك فإني لا آلوك نصحا ،
قدم عمك العباس فاضرب عنقه بيدك ، وقدم عقيلًا إلى أخيه
يضرب عنقه ، وقدم كل أسير منهم إلى أقرب الناس إليه يقتله .
فسكت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يجبه . وعاد
أبو بكر إلى مقعده الأول فقال :

- يا بني أنت وأبي ! قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة
والإخوان وبنو العم وأبعدهم منك قريب ! فامتن عليهم أوفادهم ،
هم عشيرتك وقومك لا تكن أول من يستأصلهم وأن يهديهم الله
خير من أن يهلكهم .

فسكت رسول الله عنه فلم يرد عليه شيئًا وقام ناحية ، فقام
عمر فجلس مجلسه فقال :

- يا رسول الله ما تنتظر بهم ! اضرب أعناقهم يوطئ الله
بهم الإسلام ويذل أهل الشرك . هم أعداء الله كذبوك وأخرجوك .
يا رسول الله أشف صدور المؤمنين ، لو قدروا منا على مثل هذا
ما أقالونا أبدا .

وقام سعد بن معاذ يقول :

— أقتل ولا تأخذ القداء .

ثم قام رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فدخل داره فمكث فيها ساعة ، ثم خرج والناس يخوضون في شائهم يقول بعضهم :

— القول ما قال أبو بكر .

وآخرون يقولون :

— القول ما قال عمر :

فلما خرج عليه السلام قال للناس :

— ما تقولون في صاحبيكم هذين ؟ دعوهما فإن لهما مثلا ،

مثل أبي بكر في الملائكة كمثل ميكائيل ينزل برضا الله وعفوه

على عباده ، ومثله في الأنبياء كمثل إبراهيم كان ألين على قومه

من العسل ، وأوقد له قومه النار فطرحوه فيها فما زاد على أن قال :

« أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (١) » وقال :

« فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فانك غفور رحيم (٢) » ،

وكعبسى إذ يقول : « إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فانك

أنت العزيز الحكيم (٣) » .

ومثل عمر في الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله

والنقمة على أعداء الله ، ومثله في الأنبياء كمثل نوح كان أشد

على قومه من الحجارة ، إذ يقول : « رب لا تقلر على الأرض

من الكافرين ديارا (٤) » . فدعا عليهم دعوة أغرق الله بها الأرض

جميعا ، ومثل موسى إذ يقول : « ربنا اطمس على أموالهم واشدد

(١) الانبياء ٦٧ (٢) ابراهيم ٣٦ (٣) المائدة ١١٨ (٤) نوح ٢٦

على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (١) . وإن بكم عيلة ، فلا يقوتكم رجل من هؤلاء إلا بفداء أو ضربة عنق . وانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حيث حبس الأسرى فالتقى نظرة عليهم ثم قال :

- لو كان مطعم بن عدى حيا لو هببت له هؤلاء الذنبتى (٢) . إنه عليه السلام لا يتنسى أن قومه أخرجه وقد خروه بين القتل والخروج ، فخرج إلى الطائف ولقى من ثقيف أذى كبيرا فعاد هو وزيد بن حارثة إلى غار حراء ، وبعث إلى أشراف مكة ليدخلوه في جوارهم فأبوا جميعا إلا مطعم بن عدى فقد أجاره وبسط حمايته عليه ومنع عنه أذى قريش وإن لم يدخل في دينه . إنه عليه السلام لا ينسى هذه اليد وإنه في هذه اللحظة التي يملك فيها رقاب من أبوا أن يجروه يتذكر فضل المطعم ويقول لو كان حيا لحازاه بأن يهب له أسارى بدر ، خلق عظيم لا ينسى في لحظات النصر أصحاب الفضل .

وسار رسول الله عليه السلام إلى عمه العباس وقال له :

- افد نفسك يا عباس وابني أخوك عقيل بن أبي طالب ونوفل ابن الحارث بن عبد المطلب وحليفك عقبة بن عمرو فانه ذومان . فقال العباس :

- يا رسول الله إني كنت مسلما ولكن القوم استكروني . إن العباس ليقر بإسلامه ولكن ذلك سيفسد أهمية دوره في

(٢) يونس ٨٨

(٤) يعنى أسارى بدر وواحد من تن ، وسامع نثنى لكفرهم .

بقائه بمكة ، أن يظل رئيس قلم مخبرات المسلمين ، فقال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

- الله أعلم بإسلامك إن يكن ما قلت حقا فان الله يجزيك به ، وأما ظاهر أمرك فقد كان علينا فافتد نفسك .

وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخذ منه عشرين أوقية من ذهب أصابها معه حين أسر ، فقال العباس :

- يا رسول الله احبسها لي في فدائي .

- ذاك شيء أعطانا الله منك .

ووقف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أبي عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الحمصي وكان شاعرا ، فقال له أبو عزة :

- إن لي خمس بنات ليس لمن شيء ، فتصدق بي عليهن .

يا محمد أعطيك موثقا ألا أقاتلك ولا أكره عليك أبدا .

فأرسله رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فانطلق أبو عزة إلى مكة مسرورا وهو لا يصدق أنه قد نجا من الأسر دون فداء !

ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أبا وداعة السهمي .

أسيرا فقال لأصحابه :

- إن له بمكة ابنا كيما تاجرا ذا مال ، وكانكم به قد جاء .

في طلب فداء أبيه .

وأنزل الله على رسوله : « ما كان لني أن يكون له أسرى حتى .

يشخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم .

لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم (١) » .

كانت قريش قد أرسلت الفرات بن حيان العجلي حين فصلت من مكة إلى أبي سفيان بن حرب بحجره بمسيرها وفصولها وما قد حشدت ، فخالف أبا سفيان في الطريق ، وذلك أن أبا سفيان لصق بالبحر ولزم الفرات بن حيان المحجة فوائى المشركين بالبحفة ، فسمع كلام أبي جهل وهو يقول :

— لا ترجع .

فقال :

— ما بأنفسهم عن نفسه رغبة ! وإن الذى يرجع بعد رأى ثأره من كتب لضعيف :

فمضى مع قريش فترك أبا سفيان ، وجرح يوم بدر جراحات كثيرة وهرب على قدميه وهو يقول :

— ما رأيت كالיום أمرا أنكد ! إن ابن الحنظلية لغير مبارك الأمر .

وخرج بنو عدى من النضير حتى كانوا بثنية لقت ، فلما كان في السحر عدلوا في الساحل منصرفين إلى قلة ، فصادفهم أبو سفيان فقال :

— كيف رجعت يا بنى عدى ! ولا فى العير ولا النضير !

— أنت أرسلت إلى قريش أن ترجع فرجع من رجوع ومضى من مضى .

وقال الأخنس بن شريق وكان حليفاً لبني زهرة لما أرسل أبو سفيان أن ترجع :

- يا بني زهرة قد نبى الله غيركم وخلص أموالكم ونبى صاحبكم غزوة بن نوفل ، وإنما خرجتم لثمنعوه ماله ، وإنما محمد رجل منكم ابن أختكم ، فإن يك نبيا فأنتم أسعد به ، وإن يك كاذبا بلى قتله غيركم خير من أن تلوا قتل ابن أختكم ، فارجعوا واجعلوا خبيثها لى ، فلا حاجة لكم أن تخرجوا فى غير ما يهكم ودعوا ما يقوله هذا الرجل - يعنى أبا جهل - فانه مهلك قومه ، سريع فى فسادهم .

فأطاعته بنو زهرة وكان فيهم مطاعا ، وكانوا يقيمون به فقالوا :

- فكيف نصنع بالرجوع حتى نرجع ؟

- نسير مع القوم فاذا أمسيت سقطت عن بعيرى فيقولون نحل الأخنس . فاذا أصبحوا فقالوا سبروا فقولوا لا تفارق صاحبنا حتى نعلم أحمى هو أم ميت فتدفنه ، فاذا مضوا رجعنا إلى مكة .

ورجع بنو زهرة وسار الآخرون إلى مصارعهم أو ليقعوا أسرى فى أيدي المسلمين أو ليولوا الأدبار فرعين ، وقد هام قباث بن أشيم الكنانى على وجهه فلم يسلك المحاج خوفا من الطلب حتى لقيه رجل من قومه فقال :

- ما ورامك ؟

فقال قباث :

- لا شئ ، قتلنا وأسرنا وانهزمتنا ، فهل عندك من حملان ؟

فتخمله على بعر وزوده زادا حتى لقي الطريق بالبحفة ، ثم مضى وهو ينظر إلى الحيسمان بن حابس الخزاعي فعرف أنه يقدم ينعى قريشا بحكمة ، فلو أراد أن يسبقه لسبقه ، فتكذب عنه حتى يسبقه ببعض النهار فقد كان يكره أن يحمل إلى قريش أنباء قتلاها .

وراح حكيم بن حزام يعدو على ظهر الحمل وعبيد الله وعبد الرحمن ابنا العوام يعدوان خلفه وهو يخشى طلب القوم ، حتى إذا كان بجر الظهر ان تذكر بما كان من قريش في خروجها وما قال أبو جهل من اقراء فقال :

- والله لقد رأيت ها هنا أمرا ما كان يخرج على مثله أحد له رأى ، ولكنه شوم ابن الحنظلية .

ما كانت قريش لتنتصر يوم بدر فقد دب فيها التخاذل وكراهية الحرب وحب الرجوع وخوف اللقاء وخفوق المسم وفتور العزائم ورجوع بني زهرة وبني عدى من الطريق واختلاف آرائهم في القتال ، فقد مشى إليهم الهزيمة قبل أن يلقوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصحبه الأبرار ، وحق عليهم الانكسار لو كانوا قد لقوا قوما جبناء ، فكيف وإنما لقوا رسول الله عليه السلام المؤيد من السماء والأوس والخزرج وهم أشجع العرب ، وحمزة أسد الله وعلى بن أبي طالب ربيب رسول الله ، وجماعة من المهاجرين أمجاد ، صفوة قال الله فيهم : يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بائتهم قوم لا يفقهون . الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا

مائتين : وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين (١) .

وقدم الحسيان الخزاعي فانطلق كالعاصفة إلى الحرم فاذا
يصفوان بن أمية وسادات قريش في الحجر ، فقام الحسيان فقال :
- قتل عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وقتل ابنا الحجاج وأبو البختري
وزمعة بن الأسود .

فقال صفوان بن أمية بن خلف :
- لا يعقل هذا شيئا مما يتكلم به ! سلوه عنى .
فقالوا له :

- صفوان بن أمية لك به علم ؟
- نعم هو ذاك في الحجر : ولقد رأيت أباه وأخاه مقتولين ،
ورأيت سهيل بن عمرو والنضر بن الحارث أسيرين ، رأيتهما
مقرونين في الحبال .

وقدم قباث بن أشيم وقد انتهى إلى مكة خبر قتلاهم وهم
يلعنون الخزاعي ويقولون :
- ما جاءنا بخير .

ونزلت أنباء بدر على الكافرين نزول الصاعقة : وتهللت
بالفرح وجوه المسلمين . وكان ممن سرهم ما جاءهم من الخبر
أم الفضل وأبا رافع غلام العباس وكان رجلا ضعيفا وكان يعمل
القداح ينحتها في حجرة زمزم وعنده أم الفضل جالسة : فاقبل
أبو لهب يجر رجله بشر حتى جلس إلى طرف الحجرة ، فكان

ظهره إلى ظهر أبي رافع . فبينما هو جالس إذ قال للناس :

- هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم .

كان أبو سفيان بن الحارث أكثر بني هاشم شبهاً بابن عمه رسول الله عليه السلام ، وكان لا يفرق بينهما الإسلام ، وكان أبو سفيان شاعر بني هاشم وقد هجا ابن عمه ولم يكتف بذلك بل خرج مع قريش إلى بدر ليقاتل رفيق الصبا والشباب وقرين الروح وشرف عدنان ، فلما انهزمت قريش ولى الأدبار وانقلب إلى أهله يحمل العار .

وقال أبو لهب لأبي سفيان بن الحارث :

- هلم يابن أخي فعندك والله الخير .

فجلس إليه والناس قيام حوله فقال :

- يابن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس ؟

- لا شيء . والله إن هو إلا أن لقيناهم فمئنتناهم أكتافنا

فقتلونا كيف شاءوا وأسرونا كيف شاءوا . وإيم الله مع ذلك ما ملت الناس . لقينا رجالاً بيضا على خيل بلىق بين السماء والأرض لا والله ما تبقى شيئاً ولا يقوم لها شيء .

فقال أبو رافع في فرح :

- تلك والله الملائكة .

فرفع أبو لهب يده فضرب به الأرض ثم برك عليه يضربه ،

فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة فأخذته فضربت به على رأسه فشجته شجرة منكورة وقالت :

- استضعفته إذ غاب سيده .

فقام موليا ذليلا .

ورجعت قريش إلى مكة فهم* للرجال والنساء يبكاء قتلاهم
فقام فيهم أبو سفيان بن حرب فقال :

— يا معشر قريش لا تبكوا على قتلاكم ولا تنح عليهم نائحة
ولا يتدبهم شاعر وأظهروا الحلد والعزاء ، فانكم إذا تحتم عليهم
ويكتموهم بالشعر أذهب ذلك غيظكم فاكلكم ذلك من عداوة
محمد وأصحابه ، مع أن محمدا إن بلغه وأصحابه ذلك شمتوا
بكم فتكون أعظم المصيبتين ، ولعلكم تدركون تأركم فالدهن
والنساء على حرام حتى أغزو محمدا

ومشت نساء من قريش إلى هند بنت عتبة فقلن :

— ألا تبكين على أهلك وأخيك وعمك وأهل بيتك ؟
فقال والنار تشوى كبدها :

— خلاني (معنى) أن أبكيهم فيبلغ محمدا وأصحابه
فيشمتوا بنا وينساء بني الخزرج ، لا والله حتى أثار محمدا وأصحابه ،
والدهن على حرام إن دخل رأسي حتى تغزو محمدا ! والله لو أعلم
أن الحزن يذهب عن قلبي لبكيت ، ولكن لا يذهبه إلا أن أرى
تأري يعني من قتلة الأجرة .

وانقضت سبع ليال على ضرب أم الفضل أبا لهب بعمود على
رأسه فرماه الله بالعدسة وهي قرحة قاتلة كالطاعون فقتله . ولقد
تركه ابنه ليلتين أو ثلاثا وما يدفنانه حتى أتت في بيته ، فقد كانت
قريش تنق العدسة وعدواها كما يتق الناس الطاعون حتى قال لها
رجل من قريش :

- وبحكما ! ألا تستحيان أن أبكما قد أنتم في بيته
لا تغيانه !

- إنا نخشى هذه القرخة .

- فانطلقا وأنا معكما .

فما غسلوه بل قذفوا عليه الماء من بعيد خشية أن يمسوه ،
وأخرجوه فلقوه بأعلى مكة إلى كتان هناك وقذفوا عليه بالحجارة
حتى واروه .

وأنت أم الفضل حيلة طاغية ليصلي نارا ذات هب ، ولكل أنما
كان قتل أبي هب نهاية مظفرة لغزوة بدر في قلب الحرم .

راح المطلب بن أبي وداعة السهمي يتجهز للخروج إلى
المدينة ليفدى أباه ، فجاءته قريش فقالت :

— لا تعجل فانا نخاف أن تفسد علينا في أسارانا ويرى محمد
تهالكنا فيغلي علينا القدية ، فإن كنت تجد فإن كل قومك لا يجدون
من السعة ما تجد .

— لا أخرج حتى تخرجوا .

وكان أناس غيره يرون الخروج لفداء الأعزة لولا الحياء ،
فزئب بنت محمد عليه السلام تحب أن تبعث إلى أبيها من يفتدى
منه الزوج العزيز أبا العاص بن الربيع ، فهي وإن كانت قد تهلت
بالفرح لما جاءت الأخبار بنصر الله لرسوله وللمسلمين فقد كدر
سرورها وقوع أبي العاص أسيرا ذليلا في أيدي الأنصار . وما كان
يخفف من لوعتها إلا معرفتها بتقدير أبيها لزوج ابنته الأمين .

لقد انحدرت الدموع من مآقيها مرتين . مرة لما جاءها الخبر
بوقوع زوجها أسيرا ومرة أخرى لما جاءها الناعي ينعي إليها
موت أختها رقية . كانت عبراتها الأولى مشوبة بأمل اللقاء ،
أما عبراتها الثانية فقد امتزجت بحرقة الفراق ونكاث جروح أحزانها
وذكرتها بأيام الاضطهاد وفرار أختها بدينها إلى الحبشة ثم هجرتها
مع زوجها عثمان إلى المدينة . وأعادت إلى سطح ذهنها أيام أن
ماتت أمها خديجة أم المؤمنين وهي تشتهي أن ترى رقية قبل أن

تموت ، ولكن روحها الطاهرة قد لحقت بربها دون أن ترى
رقية الحبيبة : فغمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأُمى ونزل
بقلبه أفدح ما يتحمله بشر من الأحران .

وودت زينب لو تستطيع أن تخرج لتفدى زوجها وتعزى
أباها الثاقل الذى فجع فى ابنته وهو فى قمة انتصاره ، ولكنها
كانت عاجزة عن الخروج وحدها فهى بين كفار قد ملئت قلوبهم
حقدا على أبيها ، فلو همت بالخروج لكأنت هدفا لسهام متعطشة
إلى دماء محمد عليه السلام وإلى أهل بيته وكل من معه من المهاجرين
والأنصار .

ولم يستطع المطلب بن أبى وداعة أن يصبر على فداء أبيه
فخدع قريش حتى إذا غفلوا خرج من الليل على راحلته ، فسار
أربعة ليال إلى المدينة ليفتدى أباه . وصدق رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - حينما قال لأصحابه : « إن له بمكة ابنا كيسا تاجرا
ذا مال ، وكأنكم به قد جاء فى طلب فداء أبيه » .
وافتدى المطلب أباه بأربعة آلاف درهم وكان أول أسير افتدى ،
ثم عاد به إلى مكة وهو يكاد يطير من الفرح فلامته قريش فى ذلك
فقال :

— ما كنت لأترك أبى أسيرا فى أيدي القنوم وأنتم
مضجعون .

فقال أبو سفيان بن حرب :

— إن هذا غلام حدث يعجب بنفسه وبرأيه وهو مفسد عليكم ،
إني والله غير مقتد عمرو بن أبى سفيان ولو مكث سنة أو يرسله

محمد ، والله ما أنا بأعوزكم ولكني أكره أن أدخل عليكم ما يشق عليكم ولكن يكون عمرو كأُسوتكم .

وسكت الناس وإن كانت قلوبهم تهفو إلى الأسرى ، ثم انتشر في مكة همس يقول ما يمنع أبا سفيان من فداء ابنه غير نخله فقد اشتهر عنه ذلك البخل بين قومه . وعجز الناس عن احتمال بقاء الآباء والأبناء والأعمام والأخوال والأحبة أذلاء في الأسر ، فشد الرجال إلى المدينة في فداء الأسرى أربعة عشر رجلا : من بني عبد شمس الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وعمرو بن الربيع أخو أبي العاص بن الربيع ، ومن بني نوفل بن عبد مناف جُبير ابن مطعم ، ومن بني عبد الدار بن قصي طلحة بن أبي طلحة ، ومن بني أسد بن عبد العزى بن قصي عثمان بن أبي حُيش ، ومن بني مخزوم عبد الله بن أبي ربيعة وخالد بن الوليد وهشام ابن الوليد بن المغيرة وفروة بن السائب وعكرمة بن أبي جهل ، ومن بني جمح أُنَيْ بن خلف وعمر بن وهب ، ومن بني سهم عمرو بن قيس ، ومن بني مالك بن حِشَل مكرز ابن حفص بن الأخنف .

وقدم الرجال إلى المدينة في فداء أهلهم وعشائرهم . فانطلقوا إلى مسجد رسول الله عليه السلام فإذا برسول الله قائم يصلي يرتل : « والطور . وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ماله من دافع . يوم تمور السماء مورا . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين . الذين هم في خوض يلعبون . يوم يدعون إلى نار

جهنم دعا . هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون . اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون » (١) .

وجعل جبير بن مطعم يصفى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإذا بالآيات تنزل إلى قلبه لكتابها نور أضاء بصيرته ، إنه لم يحف من آيات الوعيد ويشرق بالأمل لما تمس فؤاده آيات التبشير وبهم في عالم الملكوت . وقد ألقى سمعه وهو شهيد . إن قوة طاغية في أغوار نفسه تهب به أن ينهض ليشهد على الملائكة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . ولكنه يقاوم هذه الرغبة وإن دخل الإسلام في قلبه .

وغدا الوليد بن عتبة يساوم سعد بن أبي وقاص في أسيره الحارث بن أبي وحره بن أبي عمرو بن أمية حتى افتداه بأربعة آلاف . وراح جبير بن مطعم يفتدى على بن الحيار وعثمان بن عبد شمس وأبا ثور . ويجلس إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما قام للصلاة أو جلس لتلاوة القرآن ، فقد أصبح جبير ابن مطعم أسير سحر ما يرتل محمد عليه السلام .

وصار أبو عزيز بن عمير بالقرعة لمحرز بن نضلة ، فجاء أخوه مصعب بن عمير وقال لمحرز :

— اشد يدك به ، فإن له أما بمكة كثيرة المال .

فقال له أبو عزيز :

— هذه وصاتك بني يا أبني ؟ !

فقال مصعب :

— إنه أخى دونك ..

وكانت أمه قد سألت : ما أغلى ما تفادى به قريش ؟ فقيل لها :
أربعة آلاف . فبعثت فيه أمه أربعة آلاف .

وقدم طلحة بن أنى طلحة في فداء الأسود بن عامر بن
الحارث بن السباق ، أسره حمزة بن عبد المطلب ، وقدم عثمان
ابن أبي حبيش في فداء السائب بن أبي حبيش وسالم بن شماخ وعثمان
ابن الحويرث وقد فدى كل رجل منهم بأربعة آلاف .

وقدم خالد بن الوليد وهشام بن الوليد في فداء أخيهما الوليد
ابن الوليد بن المغيرة . فتمنع عبد الله بن جحش حتى يدفعه فيه
أربعة آلاف ، فجعل هشام بن الوليد يقول :

— ثلاثة آلاف .

فقال خالد لهشام :

— إنه ليس بابن أمك ، والله لو أنى فيه إلا كذا وكذا لنتعت .
وافنديله بأربعة آلاف . ثم خرجا به حتى بلغا به ذا الخليفة
فأقلت فأتى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقيل :

— ألا أسلمت قبل أن تفتدى ؟ !

— كرهت أن أسلم حتى أكون أسوة بقوى .

وقدم عكرمة بن أبي جهل في فداء خالد بن الأعمى العقيل
حليف بني مخزوم . وهو الذى يقول :

ولسنا على الأعقاب تبنى كُلمونا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

وكان أول المنهزمين ، أسره الخباب بن المنذر بن الجموح -
وقدم عمير بن وهب في قداء ابنه وهب ، وكان عمير هو
القائل يوم بدر لما قالت له قريش « احرز لنا أصحاب محمد » -
ما وجدت شيئا ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل
النايا ، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع ، قوم ليس معهم منعة
ولا ملجأ إلا سيوفهم . والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل
رجلا منكم فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ؟
إنه كان جالسا في مكة مع صفوان بن أمية ، فذكر أصحابه
القلب ومصائبهم فقال صفوان :

— والله إن في العيش بعلمهم خير .

قال له عمير :

— صدقت والله ، أما والله لولا دين علي ليس له عندي
قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي ، لركبت إلى محمد
حتى أقتله فإن لي قبلهم علة : ابني أسير في أيديهم -
فاغتنمها صفوان وقال :

— على دينك وأنا أقضيه عنك وعيالك مع عيالي أواسيهم
ما بقوا لا يسعني شيء ويعجز عنهم -
— فاكم شائق وشائك -
— أفعل -

ثم أمر عمير ببيعه فسجد له وسم ، ثم انطلق حتى قدم
المدينة ، فبينما عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن
يوم بدر ويذكرون ما أكرمهم الله به وما أراهم من علوهم ،

إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد
متوشحا السيف فقال ؟

- هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب ، والله ما جاء إلا
لشر . وهو الذى حرش بيننا وحزّنا للقوم يوم بدر .
ثم دخل عمر على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :
- يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا
سيفه .

- فأدخله على ٥
فأقبل عمر نحى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّيه بها ، وقال
لرجال من كانوا معه من الأنصار :
- ادخلوا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاجلسوا
عنده واحلروا عليه من هذا الخبيث فإنه غير مأمون .
ثم دخل به على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمر
أخذ بحمالة سيفه في عنقه قال :

- أرسله يا عمر ، ادن يا عمير .
فدنا ثم قال :

- أنعموا صباحا .

فقال صلى الله عليه وسلم :

- أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير ، بالسلام تحية
أهل الجنة .

- أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد .

- فما جاء بك يا عمير ؟

— جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم فاتحسنوا إليه

— فما بال السيف فى عنقك ؟

— قبحها الله من سيوف ! وهل أغنت عنا شيئا ؟ !

— اصدقنى ما الذى جئت له ؟

— ما جئت إلا لذلك .

— بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر فذكرتمنا ؟

أصحاب القلب من قرىش . ثم قلت : لولا دين على وعيال
عندى لخرجت حتى أقتل محمدا . فتحمل لك صفوان بدينك
وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائل بينك وبين ذلك .

— أشهد أنك رسول الله . قد كنا يا رسول الله نكذبك بما
كنتم تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي ، وهذا
أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان . فوالله إني لا أعلم ما أتاك به إلا الله ،
فالحمد لله الذى هداني للإسلام وساقني هذا المساق .

ثم شهد على الملأ أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده
ورسوله .

وقال عمر بن الخطاب :

— خنزير كان أحب إلى منه حين طلع ، وهو الساعة أحب

إلى من بعض ولدى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— فقهوا أخاكم فى دينه وأقرتوه القرآن وأطلقوا له

أسيره .

ثم قال عمير :

— يا رسول الله إني كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل . وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة فأدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله — صلى الله عليه وسلم — وإلى الإسلام لعل الله يهديهم ، وإلا آذيتهم كما كنت أؤذى أصحابك في دينهم .

فأذن له رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فلجئ بمكة .
وقدم عمرو بن الربيع في فداء أخيه العاص بن الربيع ،
فقدم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ما بعث به ابنته زينب
في فداء زوجها فإذا به مال وقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها
على أبي العاص حين بنى بها . فترقرق الدمع في عيني رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — ورق لما رقة شديدة . إنها ذكرته بالطاهرة
سيدة نساء قریش أم المؤمنين التي صدقته لما كذبه الناس ،
وواسته لما عزت المواساة ، وكانت له وزير صدق على الدوام ،
لأنه ليدكرها أبدا في أفراحه وأتراحه ، في انتصاراته وأحزانه ،
كلما فكّر في رقية التي ذهبت أو زينب التي فرق بينه وبينها
يقاؤها في كنف زوج مشرك ما كان بقادر على أن يفرق بينهما
أو في أم كلثوم وعاظمة الزهراء اللتين ذاقتا مرارة اليم وهما في
عمر الزهور .

وقال عليه السلام لمن عنده في صوت مهتدج ،
— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتركوا عليها ما لها فافعلوا .
— نعم يا رسول الله .

كان صفوان بن أمية يجلس في الحرم ويقول :
 - أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وقعة بدر :
 وراح صفوان يسأل عن عمير بن وهب كل راكب يقدم من
 المدينة ويقول :

- هل حدث بالمدينة من حدث ؟

كان على ثقة من أن عمير بن وهب سيقتل رسول الله عليه
 السلام ، بل إن حقه كان يؤكد له أن الاغتيال قد وقع وأن
 كل قادم إلى مكة إنما ما جاء إلا ليحمل إليه البشري التي
 ستشقى غليله ، فقدم رجل من المدينة فسأله صفوان عن عمير
 فقال :

- أسلم .

فأحس صفوان كأن سهام الأرض قد صوبت إلى فؤاده
 فمزقته ، كان النبا أقسى على قلبه من نذير الشوم الذي جاء بخبر
 قتلى بدر ، إن ذلك الرجل أنحس من الحيسمان (١) ، وغدا صفوان
 يلعن عمير بن وهب ولعنه الناس وقالوا :

- صبا عمير :

وحلف صفوان ألا يكلمه أبدا ولا يتفعه وطرح عياله :
 وندم عمير فترى في أهله ولم يأت صفوان وأظهر الإسلام ،

(١) رجل كانوا يتشابهون منه . والعصوم : الشوم

قبليغ صفوان فقال :

- قد عرفت حين لم يبدأ في قبل منزله ، وقد كان رجل
أخبرني أنه ارتكس ، لا أكلمه من رأسي أبدا ولا أنفعه ولا
عياله بنافعة أبدا .

فوقع عليه عمير وهو في الحجر فقال :

- يا أبا وهب :

فأعرض صفوان عنه فقال عمير :

- أنت سيد من ساداتنا : رأيت الذي كنا عليه من عبادة
حجر والذبح له ! أهذا دين ؟ ! أشهد أن لا إله إلا الله وأن
محمدًا رسوله .

فلم يحبه صفوان بكلمة ، وغدا عمير يدعو الناس إلى الإسلام .
وعاد أبو العاص بن الربيع إلى مكة ففرح الناس بعوده
من كان من الرجال المعدودين مالا وأمانة وتجارة ، وطاف
باليث سبعا . وانتظر سادات قريش الذين كانوا في نواديهم
أن يأتي إليهم ليقص عليهم كيف أطلقه محمد بغير فداء ، ولكن
أبا العاص كان في شوق إلى زينب بنت محمد ، إلى الزوجة التي
بعثت في فدائه بأعز ما تملك قلادة غالية كانت خديجة أدخلتها
بها عليه ليلة زفافها عليه . إنه طوال الرحلة قد شغل بوجه محمد
وقد رق لها رقة شديدة . إنه كان يعرف أن خخته كان يحب خالته
خديجة بكل عواطفه ، ولكنه ما كان يتصور أن يبلغ حبه إياها
حد أن ينوب رقة لمجرد رؤية قلادتها وأن تغيم عيناه بالدموع
لذكرى !

وراح أبو العاص بن الربيع يغذ السير ليلحق بزوجه وهو
ملهوف في صدره شوق وفي فؤاده هوى وعلى لسانه كلمات ،
وهم بأن يترنم بشعر جزل يعبر عن جيشان العواطف في وجدانه
إلا أنه أفاق إلى نفسه وتذكر ما وعد به رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - فقطب جبينه وقد هاجت في عين ذاته الأحزان ، فهو
لا يستطيع أن ينكث وعده وإلا لطح أمانته التي اشتهر بها بين
قومه بالأووال .

إنه وعد أليم موجب لقلبه سيقوض البيت الهائي الذي عجزت
عواصف الأحداث من قبل عن أن ترزع أركانه ، وكان قد
بلغ الدار فما إن وقعت عينا زينب عليه حتى جرت إليه ودموع
الفرح تغسل الوجه الذي انبسطت أساريره ، وصار في لحظة مرآة
القنود الذي فاض في لحظة بشى المشاعر والانفعالات .

وغاب الزوجان عن الوجود ولم يحسا إلا بنفسيهما وبعواطفهما
الثائرة المشبوبة . وبينما هما في غمرة السعادة إذا بترجيع صوت
رسول الله عليه السلام يرن في أعماق أبي العاص بن الربيع ،
فيعد أبو العاص زوجه عن صدره ويقول لها :
- تأهي يا زينب لتلحقى بأبيك .

ونظرت إليه زينب في دهش وهي لا تكاد تفقه شيئاً ، فقال
لها وقد أشرق بنظره إلى الأرض :
- فرق بيني وبينك الإسلام .

إن أبا العاص وعد رسول الله - صلى الله عليه وآله - ابتداء
بأن يحمل زينب إليه إلى المدينة ، وكان يعلم قوة ذلك الوعد

على قلبه ، ولكنه وهو يفضى إلى زينب الحبيبة بما شرط عليه أبوها يحس أن قلبه يتمزق وأنه يتناثر أشلاء ، وبأطالما ترنم الركبان بشعره الذى يتشعب فيه بزيب بنت محمد .

وغدت زينب تجاهد عواطفها وهى تتجهز للخروج ، إنها قالت صادقة بلسانها ووجدانها : سمعا وطاعة لله ولرسول الله ، ولكن عواطفها خذلتها ولم تكن لما عليها سلطان ، فدمعها لا يرقأ وقلبها دائم الخفقان للحبيب الذى كان نعم الزوج على الدوام . وبينما هى تتجهز للحقوق بأبيها لقيتها هند بنت عتبة من قتل أبوها وعمها وأخوها يوم بدر ، فقالت :

— ألم يبلغنى يا بنت محمد أنك تريدن الحقوق يا أهلك ؟

فقالت زينب فى حذر :

— ما أردت ذلك .

— أى بنت عم لا تفعل . إن كانت لك حاجة فى متاع أو فيما يرفق بك فى سفرك أو مال تبلغين به إلى أهلك فإن عندى حاجتك . فلا تفضطنى (تستحى) منى فإنه لا يدخل بين النساء ما يدخل بين الرجال .

وأحست زينب أنها صادقة وما قالت حينئذ إلا لتفعل ، ولكن خافتها فأنكرت أن تكون تريد ذلك . وتجهزت حتى فرغت من جهازها فحملها أخو بعلها وهو كنانة بن الربيع . قدم لها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته وخرج بها نهارا يقود بعيرها وهى فى هودج لها ، وتحدث بذلك الرجال من قريش والنساء وتلاومت فى ذلك وأشفت أن تخرج

ابنة محمد من بينهم على تلك الحال ، فخرجوا في طلبها سراعا حتى أدركوها بذي طوى ، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي ونافع ابن عبد القيس الفهري ، فروعها هبار بالرمح وهي في المودج وكانت حاملا ، فعدت تنزف دما .

وبرك حسموها كنانة بن الربيع ونثل كنانته بين يديه ، ثم أخذ منها سهما فوضعه في كبد قوسه ~~وقال~~ : -
- أحلف بالله لا يدنو اليوم منها رجل إلا وضعت فيه سهما .

فرجع الناس عنه . وجاء أبو سفيان بن حرب في جلة من قریش فقال :

- أيها الرجل اكفف عنا نيلك حتى نكلمك .

فكف . فاقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

- إنك لم تحسن ولم تصب ، خرجت بالمرأة على رموس الناس علانية جهارا وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد أبيها فيظن الناس إذا أنت خرجت بابنته إليه جهارا أن ذلك عن ذل أصابتنا وأن ذلك منا ومن . ولعمري ما لنا في حبسها من أبيها من حاجة وما فيها من نأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هذأت الأصوات وتحدث الناس بردها سلها سلا خفيا فالحقها بأبيها .

وراحت زينب تنظر إلى اليوم الذي ينزف منها في خوف ، فرأى كنانة بن الربيع أن يعوذها استجابة لتوسل أبي سفيان

وحفظا لحياة زوجة أخيه :

ولقيت هند بنت عتبة الذين خرجوا إلى زينب حين انصرفهم
فقال لهم :

أفي السلم أعْيَارُ (١) جفاءً وغلظة

وفي الحرب أشباه النساء العوارك (٢).

وفيما كانت زينب في طريق عودتها طرحت ما في بطنها
وأصابتها ضعف ، فلما بلغت دار أبي العاص هرع من فيه إليها
يحملونها وهي غارقة في دماها .

وصبت اللعنات على رأس هبار بن الأسود ، وراح
أبو العاص بن الربيع يمسح بخانه آلام زوجه التي فرق
الإسلام بينه وبينها . ومرت ليالي وأيام ولا حديث لمكة إلا
حديث بذر والأسرى الذين عادوا بفداء أو بلا فداء . وغدا
العباس يجلس في نوادي قومه يحدث عما لقوا من الأنصار في
المدينة ، ولم يسأله أحد : لم فرق رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
بين ابنته زينب وبين زوجها الحبيب أبي العاص ولم يفرق بينه
وبين أم الفضل مع أن الحالة واحدة ؟ ! فأبو العاص مشرك
وزينب مؤمنة . وكذلك الحال مع العباس وأم الفضل . ولو دار
ذلك السؤال في خلدكم لكشفوا أمر العباس ولأيقنوا أنه على دين
ابن أخيه وأنه ما بقي بينهم يتظاهر بالشرك إلا ليكون عينا عليهم

(١) أعْيَارُ : حشر الوحش . والعيار من الرجال : الذي يغلى نفسه وهو أحمق .

(٢) النساء العوارك : الحوائض

لرسول الله عليه السلام يحمل إليه أتباعهم .
وجاء أناس إلى أبي سفيان وهو جالس مع العباس في
الحجر وقالوا :

— ألا تقتدى ابنك عمرا ؟

فقال أبو سفيان وقد فقد حلمه :

— أنجمع على جدي وبالي ؟ قتلوا حنظلة وأقتدى عمرا .

وظف قلب أبي سفيان يقطر حقدًا على علي بن أبي طالب .
فهو قاتل حنظلة وآسر عمرو ، وكانت أمه ابنة عقبة بن أبي معيط .
لا تنفك تسأله أن يقتدى ابنه ويكفيها حزنها على قتل أبيها .
ولكنه كان يطلب منها أن تصبر كما صبرت هند بنت عتبة
ترصدا ليوم الثأر الأكبر .

واستردت زينب بعض قواها وهدأ الصوت عنها فحملها
كنانة بن الربيع على بـسـيرها وهي تذرف الدمع على فراق
أبي العاص ، وخرج بها ليلا وهو يسلمها سلا خفيا وقد أرهفت
حواسه خشية الطلب .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لما خلى سبيل
أبي العاص بعث بعده زيد بن حارثة ورجلا من الأنصار فقالا
لهما :

— كونا بيطن يا جعج حتى تمر بكما زينب فتصحباهما حتى

تأتياني هما .

وخرج الرجلان . ينتظران حتى أقبل كنانة بن الربيع بقود
هودج زينب حتى أسلمها إلى الرجلين وهو يقول :

عجبت لمبار وأوباش قومه

يريدون إخفاري (١) بينت محمد

ولست أبالي ما حيت عديدهم

وما استجمعت قبضايدي بالمهند

واتطلق الرجالن حتى قدما يزيب على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فلما تقدم خافق القلب لاستقبال ابنه العزيزة العائدة من دار الشرك إلى دار الإسلام إذا به يجدها تزيف دما فأصابه كدر ، وسمع ما كان من هبار بن الأسود بن عبد المطلب من قسوة على زيب فأهلهه .

وقال عبد الله بن رواحة فيما كان من أمر زيب :

أتاني الذي لا يقدر الناس قلره

لزيب فيهم من عقوق وماتم

وإخراجها لم يخز فيها محمد

على ثاقط (٢) بيننا عطر منبشم (٣)

وأمسى أبو سفيان من حلف ضمضم (٤)

ومن حربنا في رغم أنف ومنم

(١) إخفاري : تقضى مهدي .

(٢) ثاقط : معترك الحرب .

(٣) كناية من شدة الحرب ومنم بالمتطبيب تطر بطيحه فتبان ثم ذهبوا للحرب فلم يرجعوا .

(٤) ضمضم بن عمرو الغفاري أرسله أبو سفيان ليخبر أهل مكة بمحولة عرض الرسول وأصحابه لتجارة قريش .

(غزوة بدر)

قرنا ابنه عمبرا ومولى يمينه
 بنى خلق جلد الصلاصل تحكم
 فاقسمت لا تنفك منا كتاب
 سراة خميس (١) في لham (٢) مسوم
 نزوع قريش الكفر حتى نُعلَّها (٣)
 بخاطمة فوق الأنوف بميسم
 فزلم أكناف نجيد ونحيلة
 وإن يُتهموا بالحيل والرجل مُتهم
 يد الدهر حتى لا يعوج سربنا
 ونلحقهم آثار عاد وجرهم (٤)
 وينسلم قوم لم يطيعوا محمدا
 على أمرهم ولات حين تندهم
 فأبلغ أبا سفيان إما لقيته
 لأن أنت لم تخلص سجودا وتسلم
 فأبشر بخزى في الحياة معجل
 وسربال قار خالدا في جهنم

(١) الخميس : الجيش الكبير .

(٢) اللham : الجيش العظيم .

(٣) العلل : الشرب مرة بعد مرة .

(٤) عاد وجرهم : من القبائل التي بادت .

وكان الأسود بن المطلب أصيب له ثلاثة من ولده : أبو
 حكيمة زمعة وعقيل والحارث بن زمعة ، فكان يحب أن ييكي على
 قتلاه فتأني عليه قريش ذلك ، وكان يقول لغلامه وقد ذهب
 بصره !

— ويلك ! احمل معي خمرًا واسلك بي الفج الذي سلكه أبو
 حكيمة .

فأتى به غلامه على الطريق عند ذلك الفج فيجلس فيسقيه
 الخمر حتى ينتشى ثم ييكي على أبي حكيمة وإخوته ، ثم يحثي التراب
 على رأسه ويقول لغلامه :

— ويحك ! اكتم على . فاني أكره أن تعلم بي قريش ، إني
 أراها لم تجمع البكاء على قتلاها .

وبينا هو ييكي على قتلاه سرا إذ سمع نائحة من الليل فقال
 لغلامه :

— انظر د . بكيت قريش على قتلاها ؟ لعل أبيكي على أبي
 حكيمة فإن جوفى قد احترق .

فذهب الغلام ورجع إليه فقلل :

— إنما هي امرأة تبكي على بغيرها تدا أضلته .

فقال الأسود :

أتبكي أن يضل لما يعير ويعتمها من النوم السهود

فلا تبكى على بكر (١) ولكن على بكر تصاغت الخدود
فبكى إن بكيت على عقيل وبكى حارثا أسد الأسود
وبكيتهم ولا تسمى (٢) جميعا فما لأبي حكيمة من نديد
على بدر سراة بنى مھصيص ومخزوم ورهط أبى الوليد
ألا قد ساد بعدهم رجال ولولا يوم بدر لم يسودوا
وبلغ نوفل بن معاوية الذبلى وهو فى أهله ، وكان قد شهد
بدر ، أن قريشا بكى على قتلاها فقدم مكة فقال :

- يا معشر قريش لقد خفت أحلامكم وسفه رأيكم وأطعتم
نساءكم ، أمثل قتلاكم بكمي عليهم ! هم أجل من البكاء مع أن
ذلك يذهب غيظكم عن عداوة محمد وأصحابه ، فلا ينبغي أن
يذهب الغيظ عنكم إلا أن تدركوا ثأركم من عدوكم .
فسمع أبو سفيان بن حرب كلامه فقال :

- يا أبا معاوية غلبت ، والله ما ناحت امرأة من بنى عبد
شمس على قتيل إلى اليوم ولا بكاهم شاعر إلا نهيته حتى ندرك
ثأرنا من محمد وأصحابه وإنى لأنا الموتور الثائر ، قتل أبى حنظلة
وسادة أهل هذا الوادى ، أصبح هذا الوادى مقشعرا لفقدهم .
وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قدم إلى المدينة
وقدم بعده الأسرى قال قوم من المنافقين :

- ليتنا خرجنا معه حتى نصيب غنيمة .

وقالت يهود فيما بينها :

(١) لا تسمى : لا تسمى .

(٢) البكر : الفتى من الإبل .

— هو الذى نجد نعمته فى كتبنا ، والله لا ترفع له راية بعد اليوم إلا ظهرت .

وانفقوا فيما بينهم أن ينتظروا وقعة ثانية ليروا إن كانت له أو عليه قبل أن يصلوا إلى قرار .
وقال كعب بن الأشرف :

— بطن الأرض خير من ظهرها ، هؤلاء أشراف الناس ومهادتهم وملوك العرب وأهل الحزم والأمن قد أصيبوا .

وخرج إلى مكة فنزل على أبي وداعة بن ضيرة وجعله يرسل هجاء المسلمين ، ورثى قتلى بدر من المشركين فقال :

طعنت رحا بدر للمهلك أهله	ولمثل بدر يستهل ويدهع
قتلت سراة الناس حول حياضه	لا تبعسوا إن الملوك تصرع
ويقول أقنصوام أذل بعسزهم	إن ابن أشرف ظل كعبا يجزع
ضدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا	ظلت تسيخ بأهلها وتصدع
ضار الذى أثر الحديث بطعنة	أو عاش أعمى مرعشا لا يسمع
نبئت أن بنى المغيرة كلهم	خشعوا لقتل أبي الحكيم وجدعوا
وابنا ربيعة عنده ومنبه	ما نال مثل المالكين وتبع
نبئت أن الحارث بن هشامهم	فى الناس بنى الصالحات ويجمع
ليزور يثرب بالجموع وإنمسا	يسعى على الحسب القديم الأروع

فلما أرسل كعب هذه الأبيات أخذها الناس بمكة عنه وأظهروا

المرأى وجعل الصبيان والحوارى ينشدونها بمكة . فتاحت بها قريش على قتلاها شهرا ، ولم تبق دار بمكة إلا فيها النوح ، وجز النساء شعورهن ، وكان يوتى براحلة الرجل منهم أو بفرسه فتوقف بين

أظهرهم فينوحون حولها ، وخرجن إلى السكك وضربن الستور في
الأزقة فخرجن إليها ينحن .

وكانت هند بنت عتبة قد عزمت على ألا تبكى أباه عتبة
وأخاها الوليد وعمها شيبة قبل أن تنأثر من قاتليهم ، ولكن التجميعه
كانت فوق طاقتها فما أن بكت قريش قتلاها حتى راحت هند
تذرف الدمع السخين وتنشد :

لله عينا من رأى هلكا كهلك رجاليه
يا زُبَّ بك لي غدا في النائيات وباكيه
كم غادروا يوم القليب غداة تلك الداعيه (١)
من كل غيث في السنين إذا الكواكب خاويه
قد كنت أحذر ما أرى فالיום حق حذاريه
يا زُبَّ قائله غدا يا ويح أم معاويه

وتأهبت قريش للخروج في الموسم وقد بلغ هند تسويم (٢)
الخنساء هودجها وبعاظمتها العرب بمصيتها بإيها عمرو بن الشريد
وأخبرها صخر ومعاوية فقالت :

— أنا أعظم من الخنساء .

وأمرت هودجها فسوم براية وشهدت الموسم بعكاظ فقالت :

— اقرنوا جملي بجمل الخنساء .

ف فعلوا ، فلما دنت منها قالت لها الخنساء :

— من أنت يا أخيه ؟

— أنا هند بنت عتبة أعظم العرب مصيبة ، وقد بلغني أنك

تعاظمين الغرب بمصيفتك فيم تعاظمينهم ؟

— بعمر بن الشريد وصخر ومعاوية ابني عمرو : وم
تعاظمينهم أنت ؟

— بأبي عتبة بن ربيعة وعمى شبة بن ربيعة وأخي الوليد .

— أو سواء هم عندك ؟

ثم أنشدت الحنساء تقول :

أبكي أبي عمرا بعين غزيرة قليل إذا نام الجلى مجودها
إلى أن قالت :

فذلك يا هند الرزية فاعلمي ونيران حرب حين شبوقودها
فقال هند تجيبها :

أبكي عميد الأبطحين (١) كليهما وحاميها من كل باغ يريد

أبي عتبة الحرات وبحك فاعلمي وشية الحامي النمار وليدها

أولئك آل المجد من آل غالب وفي العز منها حين ينمي عديدها

وكان الرواة ينقلون المراثي إلى المدينة ، فبينما كان رسول الله

— صلى الله عليه وسلم — جالسا مع أصحابه إذ جاء رجل ينشد

ما قالت قتيلة بنت الحارث في رثاء أخيها النضر بن الحارث الذي

ضرب على بن أبي طالب عنقه بالأثيل :

يا راكبا إن الأثيل مظنة من صبح خامسة وأنت موفق

بائع به ميتا فإن تحيية ما إن تراله بها الركائب تخفق

مني إليه وعبرة مسفوحة جادت لمانحها وأخرى تخنق

(١) الأبطحان : مشى أبطح وهو السيل الواسع به دفاتر العمى ويقال :

فريش البطاح لانهم ينزلون بين اغشي مكة .

فليسمن النضر إن ناديتـه إن كان يسمع ميت أو ينطق
 ظلت سيوف بني أبيه تنوشه لله أرحام هناك تمزق
 صبرا يقاد إلى المدينة راغما رسف المقيّد وهو غان موثق
 أحمد ولأنت نجمل نجيسة في قومها والفحل فحل معرق
 ما كان ضرك لو مننت ورنما منّ الفتي وهو المغيظ المحتق
 والنضر أقرب من قتلت وسيلة وأحقهم إن كان عتق يعتق
 وراح النبي - صلى الله عليه وسلم - يصنئ إلى شعر بنت
 خالته في رثاء ابن خالته وقد غشيت رقة وقال :
 - لو كنت سمعت شعرها قبل أن أقتله ما قتلتـه .

صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فلما رفع رأسه
من الركعة الأخيرة من وتره دعا لقوم من قريش فقال :
- اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والمستضعفين
من المؤمنين .

ومس الدعاء أذن عمر بن الخطاب فأهاج ذكرياته : فانه
اتعد لما أرادوا الهجرة من المدينة هو وعياش بن أبي ربيعة وهشام
ابن العاص بن وائل السهمي وقالوا :
- أينما لم يصبح عند سرف فقد حبس فليمض صاحبه .

وكانت سرف على ستة أميال من مكة ، فأصبح هو وعياش
ابن أبي ربيعة عندها وحبس عنهما هشام ، فانطلقا فلما قدما
المدينة نزلا في بني عمرو بن عوف بقاء ، وخرج أبو جهل بن
هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة وكان ابن عمهما
وأنجاهما لأمههما حتى قدما عليه المدينة ورسول الله - صلى الله عليه
وسلم - بمكة : فكلماه وقالوا :

- إن أملك قد نفرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك ،
ولا تستظل من شمس حتى تراك .

فرق عياش لأمه أسماء بنت مخزبة - ورأى عمر ميله لتصدقهم
فقال له :

- يا عياش إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتوك عن دينك

فاحذرهم ، فوالله لو قد آذى أملك القمل لامتشطت ، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت .

- أبرد قسم أى ولى هناك مال فأخذه .

- والله إنك لتعلم أنى لمن أكثر قریش مالا ، فلك نصف مالى ولا تذهب معهما .

فأبى إلا أن يخرج معهما ، فلما دخلا به مكة دخلا به نهارا موثقا ثم قال :

- يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفهيئنا هذا .

ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يقامى عياش بن ربيعة المخزومى من تعذيب دون أن يملك إلا الإشفاق عليه ، فما كان له خول ولا قوة في مكة .

وراح عمر يتذكر ما كانوا يقولون فيمن افتنوا : ما الله بقابل لمن افتن صرفا ولا عدلا ولا توبة ، قوم عرفوا الله ثم رجعوا إلى الكفر لبلاء أصابهم .

فلما قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة أنزل الله تعالى فيهم : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم . وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتكم العذاب ثم لا تتصرون . واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بغتة وأنتم لا تشعرون » (١) .

ورأى عمر بن الخطاب نفسه وهو يكتبها بيده في صحيفة

ويبعث بها إلى هشام بن العاص : ورن في أغواره صوت هشام وهو يحدثه : « فلما أتننى جعلت أقرأها بذي طوى أصعد بها فيه وأصوب ولا أفهمها حتى قلت : اللهم فهمنيها . فالتى الله تعالى في قلبي أنها أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا . فرجعت إلى بعيرى فجلست عليه فلحقت برسول الله — صل الله عليه وسلم — وهو بالمدينة » .

وأفاق عمر من ذكرياته على صوت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يقول :

— من لي بعياش بن أبي ربيعة وسلمة بن هشام ؟

فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة :

— أنا لك يا رسول الله بهما .

فخرج إلى مكة فلما بلغها وجد أن أباه الوليد بن المغيرة قد أصابه سهم رجل من بني كعب بن عمرو من خزاعة . فدخل عليه وقد حضرته الوفاة : ووجد أبا سفيان عنده قبل أن يخرج لذي مجاز والحوار دائر بينهما . يقول الوليد لصاحبه :

— أخشى ألا تعبد العزى بعد موتى .

فيقول له أبو سفيان :

— أعبدت لحياتك حتى لا تعبد لموتك ؟

— الآن أموت وأنا قزير العين .

وخرج أبو سفيان والتفت الوليد إلى بنيه : هشام بن الوليد وخالد بن الوليد والوليد بن الوليد فقال لهم :

— أي بني أوصيكم بثلاث فلا تضيعوا فيهن : دى في خزاعة

فلا تطلّئّه . (تهلونه) ، والله إني لأعلم أنهم منه بُرآء ولكني أخشى
أن تسبوا به بعد اليوم ! وربّاي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه ،
وعقرى (ديتي) عند أبي أزيهر الدوسي فلا يفوتنكم به .
وكان أبو أزيهر قد زوجه بنتاً ثم أمسكها عنه .
وهلك الوليد بن المغيرة فوثبت بنو مخزوم على خزاعة يطلبون
منهم دية الوليد وقالوا :

— إنما قتله سهم صاحبكم .

فأبّت عليهم خزاعة ذلك حتى تقاولوا أشعاراً وغلظ بينهم
الأمر . فقال عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة المخزومي :
إني زعيم أن تسبوا فتسبوا وأن تركوا الظهران تعوى ثعالبه
وأن تركوا باء بجزعة أطرقا وأن تسألوا : أي الأراك (١) أطايه
فانا أناس لا تطلل دماؤنا ولا يتعالى صاعدا من نحارب
فأجابه الجون بن أبي الجون أحد بني كعب بن عمرو الخزاعي
فقال :

والله لا توثي الوليد ظلامه ولما تروا يوماً تزول كواكبه
ويصرع منكم مسمن بعد مسمن وتفتح بعد الموت قسرامشاربه
إذا ما أكلتم خبزكم وخزيركم (٢) فكلكم باكي الوليد وناديه
ثم إن الناس تراضوا وعرفوا أنما يخشى القوم السبة ، فعطتهم
خزاعة بعض الدية وانصرفوا عن بعض ، فلما اصطلاح القوم قال
الجون بن أبي الجون :

(١) كانت الظهران والأراك مثاقيل بني كعب من خزاعة .

(٢) الخزير : الحساء من الدسم .

وقائلة لما اصطلحنا تعجبا لما قد حملنا للوليد وقائل
ألم تقسموا توثوا الوليد ظلالة ولما تروا يوما كثير البلابل
فتحن خلطنا الحرب بالسلم فاستوت فأم هواه آمنا كل راحل
ثم لم ينته الجون بن أبي الجون حتى افتخر بقتل الوليد وكان
ذلك باطلا ، فلحق بالوليد وبولده وقومه من ذلك البه ، فقال
الجون بن أبي الجون :

ألا زعم المغيرة أن كعبا بمكة منهم قتل كثير
فلا تمخر مغيرة أن نراها بها يمشي الملعج والمهير (١)
بها آباؤنا وبها ولدنا كما أرمى بميته ثبير (٢)
وما قال المغيرة ذاك إلا ليعلم شأننا أو يستشير
فإن دم الوليد يُطل إننا نطل دماء آت بها خير
كساه الفاتك الميمون سهما زعافا وهو ممتلئ بهير (٣)
فخسر ببطن قلة مسلحيا (٤) كأنه عند وجيته بعير
سيكفني مطال أبي هشام صغار جعدة الأوبار خور (٥)

وكان أبو سفيان بسوق ذي المجاز فعدا هشام بن الوليد على
أبي أزيهر فقتله بعقر الوليد الذي كان عنده لوصية أبيه إياه في السوق ،
وبلغ الخبر مكة فخرج يزيد بن أبي سفيان فجمع بني عبد مناف
ليثأر لأبي أزيهر فعاتكة بنت أبي أزيهر كانت عند أبي سفيان ،

(١) الملعج : الطموح في نجه ، والمهير : الصحيح النسب .

(٢) ثبير : جبل بمكة .

(٣) البهير : المتقطع النفس من الأعياء .

(٤) المسلح : المتمد ، والوجية : السبقلة .

(٥) الخور : الغراء اللين .

فحسب الناس أن أبا سفيان سيثيرها حرباً بين بني أمية وبني مخزوم فقالوا :
- أخضر (١) أبو سفيان في صهره فهو ناثر به .

فلما سمع أبو سفيان بالذي صنع ابنه يزيد انحط سريعاً إلى مكة وخشى أن يكون بين قریش حدث في أبي أزيهر ، فأتى ابنه وقد لبس عدة القتال وكان في قومه من بني عبد مناف ، فأخذ الرمح من يده ثم ضربه به على رأسه ضربة هده منها ثم قال له :

- قبحك الله ! أتريد أن تضرب قریشاً بعضهم ببعض في رجل من دوس . سنؤتيهم العتق (الدية) إن قبلوه .

وكان دفع الدية إطفاء لنار الحرب التي كادت أن تنشب بين قبائل قریش . وكان المسلمون يرجون أن يشب لهيئها توديعنا لعدوهم الألد ، فانبعث حسان بن ثابت يخرض في دم أبي أزيهر ويعير أبا سفيان مخفرته ويحجبه فقال :

غدا أهل زوجي (٢) ذى المجاز كليهما

وجار ابن حرب بالمغمس ما يغدو

ولم يمنع العير الضروط ذماره

وما منعت مخزاة والدها هند

كساها هشام بن الوليد ثيابه فأبل وأخلف مثلها جددا بعد

قضى وترا منه فأصبح ماجدا

وأصيحت رخوا ما تحب وما تعنو

فلو أن أشياخا بيدر تشاهدوا لبل نعال القوم معتبط ورد (٣)

(١) الأخضر : القدر . (٢) زوجي : جانب الوادي .

(٣) معتبط : ورد : الدم المبيط (الطرى) .

فلما بلغ أبا سفيان قول حسان قال :

— يريد حسان أن يضرب بعضنا ببعض في رجل من دوس !

بنس والله ما ظن .

وطال غياب الوليد بن الوليد بمكة فظن المسلمون بالمدينة أنه
حبس ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم — إذا ما رفع رأسه
من الركعة الأخيرة من وتره دعا :

— اللهم أنج سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة والوليد بن
الوليد .

وراح الوليد بن الوليد يتقب عن محبس عياش بن أبي ربيعة
حتى لقي امرأة تحمل طعاما فقال لها :
— أين تريدان يا أمة الله ؟
— أريد هذا المحبوس .

ففطن إلى أنها في طريقها إلى عياش بن أبي ربيعة فتبعها حتى
عرف موضعه وكان محبوسا في بيت لا سقف له ، فلما أمسى تسور
عليه ثم أخذ مروة (حجرا) فوضعها تحت قيده ثم ضرب القيد
بسيفه فقطعه ، فكان يقال لسيفه : « ذو المروة » ثم حمله على بعيره
وساق به فعثر فدميت أصبعه فقال :

هل أنت إلا أصبع دमित وفي سبيل الله ما لقيت
ثم قدم به على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة
فتهللت بالبشر لوصولها سالمين أسارى المسلمين .

وبينا عياش يسير بظهر قباء إذ لقي الحارث بن يزيد فتذكر
في لحظة ما كان من الحارث يوم أن جاء إليه أبو جهل والحارث

ابن هشام لما هاجر أول مرة ، لقد خدعاه وقالوا له إن أمه قد حلفت
لا تأكل طعاما ولا تشرب شرابا حتى يرجع إليها ، فرق لها وعاد
معهما . أوثقه قومه وجلده كل واحد منهم مائة جلدة ، ثم أتاه
الحارث بن زيد وقال :

— يا عياش ، لئن كان الذى كنت عليه هدى لقد تركت الهدى ،
وإن كان ضلالة لقد كنت عليها .

فغضب عياش من مقالته وقال :

— والله لا ألتاك خاليا إلا قتلتك .

وإنه ليلقاه خاليا الساعة فحمل عليه فقتله ، فقال الناس في

فرع :

— أى شئ صنعت ؟ إنه قد أسلم .

فرجع عياش إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

— يا رسول الله كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت ،

وإني لم أشعر بإسلامه حين قتلته .

واطرق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وشق ذلك على عياش ،
حتى نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى : « وما كان
لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقة
مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو
لكم وهو مؤمن فتحرير رقة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم
ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقة مؤمنة فمن لم يجد فصيام
شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليا حكيما » (١) .

كانت صدور أهل مكة تغلي بالحق للخرى الذي نالهم في بدر ،
 وكان يزيد في حقتهم آيات الله التي تصل إليهم من المدينة تسجل
 عليهم العار والاندحار وتخزهم وخزا أليها . وكان حكيم بن خزام
 يرتجف فرقا كلما رن في أغواره قوله تعالى : « إن الذين كفروا
 ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم
 حسرة ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون . ليميز الله
 الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا
 فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون (١) » . فهو يتذكر
 المطعنين في بدر وما حاق بهم فينزل به رعب شديد .

إن الحارث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قد قتل وإن كان
 محمد بن عبد الله قد قال لأصحابه : « من ظفر به منكم فليتركه
 لأيتام بني نوفل » . وعتبة وشيبة ابنا ربيعة بن عبد شمس كانا أول
 من ذاق الموت في المعركة . وترك علي بن أبي طالب زمعة بن
 الأسود بن المطلب بن أسد ونوفل بن خويلد بن العدي بن كاسم الدابري
 وأردى أبا جهل قتيلا ابنا عفرأ : وقاتل أمية ابن خلف وابنا الحجاج
 نبيه ونيه . فما أطعم أحد ييدر إلا قتل إلا هو لا يدرى الحكمة قد
 نجاه الله أم أن القتل يربص به !

(غزوة بدر)

إن جلده يقشع من الخوف حتى بات يخشى الوحدة حتى لا يفترسه أفكاره فكان يفزع إلى نوادي قومه . وبينما كان جالسا مع أبي سفيان بن حرب وصفوان بن أمية ومن بقي من شيوخ قريش حتى قال قائل :

- إن تأرنا بأرض الحبشة فلنرسل إلى ملكها ليدفع إلينا من عنده من أتباع محمد فنقتلهم عن قتل منا .

انهزموا في المعركة واستأصل المسلمون وجوههم فلم ييحثوا إلا عن نصر رخيص يشقى غليل نفوسهم ، فأرسلوا عمرو بن العاص صديق النجاشي الحميم ، وعبد الله بن أبي ربيعة إلى النجاشي ليدفع إليهما من عنده من المسلمين .

وركب عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة سفينة وقد حملا معها هدايا عظيمة . وما إن أقبلت حتى راح الذين تنز أفئدتهم بالحقد على علي بن أبي طالب لقتل آبائهم أو إخوانهم أو أزواجهم أو أبناءهم وما أكثرهم ! يمتنون النفس بأن يدفع النجاشي إليهم جعفر بن أبي طالب ليقتلوه انتقاما لأهلهم الذين سفحت دماؤهم في بدر .

إن عليا هناك في المدينة قد ذاع صيته بعد أن جدد صناديد قريش ، وإن أسد الله حمزة في حصن من المهاجرين والأنصار وقتلها ليس أمرا ميسورا ، وإن كانت هند بنت عتبة قد قتلتهما مرارا في خيالها تأرا لأبيها وأخيها وعمها . فما دام الانتقام من هذين اللذين فعلا في قريش الأفاعيل بعيد المنال فقتل جعفر ومن معه من المسلمين فيه كثير من الغراء .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد بعث رسولا إلى النجاشي يحمل إليه أنباء انتصار بدر ، فركب الرسول السفينة من ينبع وانطلق بها إلى الحبشة وهو يتلو الآيات التي نزلت في الأنفال وفي بدر ، فيسبقه خياله فيرى نفسه بين جعفر بن أبي طالب والذين معه من المسلمين وهم يصغون إليه مستبشرين وهو يقرأ : « ولقد نصركم الله بدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون . إذ تقول للمؤمنين ألن يكفئكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين . بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم (١) » .

وبلغت السفينة أرض الحبشة فانطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى قصر النجاشي واستأذن في الدخول عليه : فلما مثل بين يديه لم يخجله ساجدا بل سار مرفوع الرأس يعلوه الوقار يترقرق الورع في محياه . حتى إذا دنا من الخالس على العرش ألقى عليه تحية الإسلام فرد عليه النجاشي تحيته ثم أجلسه إلى جواره .

وراح الرجل يقص على النجاشي أنباء بدر ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ففرح فرحا شديدا ، ثم دفع إليه الرجل بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ففضه النجاشي وراح يقرأه فإذا بالنبي عليه السلام يوضيه فيه على المسلمين .

وأرسل النجاشي إلى جعفر بن أبي طالب وإلى أصحابه الذين معه بالحبشة فدخلوا عليه فوجدوه جالسا على التراب لابسا أثوابا

خلفه : فقالوا له :

— ما هذا أسألك ؟

فقال النجاشي وقد تهلت أساريه :

— إني أبشركم بما يسركم . إن الله عز وجل قد نصر نبيه وأهلك
عدوه أبا جهل بن هشام وأمية بن خلف والنضر بن الحارث وعقبة
ابن أبي معيط : التقوا بمحلي يقال له بدر كثير الأراك كنت أرعى
فيه غنما لسيدي من بني ضمرة .

إن النجاشي لا ينسى تلك الأيام التي باعوه فيها عبدا وقد
حملة سيده إلى بلاد العرب ولولا لطف الله لبقى رقيقا ولما عاد إلى
عرش آبائه . وإنه ليفتأ يذكر تلك الأيام كلما اجتمع بالمسلمين
بالخيشة أو وفد إليه رسل من أرض العرب . فقال له جعفر :

— ما لك جالس على التراب عليك هذه الأخلاق ؟

— كان عيسى عليه السلام إذا حدث له من الله نعمة ازداد
تواضعا ، فلما أحدث الله تعالى نصرة نبيه — صلى الله عليه
وسلم — أحدثت هذا التواضع .

وكان جعفر ومن معه من المسلمين في لفحة لسماع أنباء انتصارات
بدر فاجتمعوا برسول رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وألقوا إليه
أسماعهم والرجل يحدثهم بأخبار النصر المبين ويتلو عليهم آيات
الله : « كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين
لكارهون . يجادلونك في الحق بعدما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم
يظنون . وإذ يهدمكم الله إحدئ الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير
ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن ينحق الحق بكلماته ويقطع دابر

الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (١) .

واستمر يتلو عليهم ما أنزل الله على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من سورة الأنفال وهم يصغون إليه وقد تفرقت العبرات في العيون ، فصر الله لعباده كان أعظم من أمانهم وأكبر من أحلامهم وما كانوا يأملون .

ودخل عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة رسولا قريش على النجاشي وهما يحملان الهدايا في نفس الوقت الذي كان يخرج فيه رسول رسول رب العالمين ، فاختلس عمرو إليه نظرة ثم تقدم ليخر ساجدا بين يدي النجاشي .

وأمره النجاشي أن يرفع رأسه وأن يجلس إلى جواره ففعل عمرو ، فقال له النجاشي :

— مرحبا بصديق . أهديت لي من بلادك شيئا ؟

— نعم أيها الملك : أهديت لك أدما كثيرا .

ثم قربه إليه فاعجبه وفرق منه أشياء بين بطارقه : وأمر بصائره فأدخل في موضع وأمر أن يكتب ويحفظ به ، فلما رأى عمرو طيب نفسه قال :

— أيها الملك إنى رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول عدو لنا قد وترنا وقتل أشرافنا وخيارنا : قاعطينه فأقتله .

فغضب النجاشي ثم رفع يده فضرب بها أنف عمرو ضربة ظن أنه قد كسره ، فجعل عمرو يتقى الدم بشيابه فأصابه من الذل ما لو انشقت له الأرض لدخل فيها فرقامته ثم قال :
- أيها الملك لو ظننت أنك تكره ما قلت ما سألتكه .

ورد النجاشي عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة خائبين ، ثم بعث إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من خيار أصحابه ثلاثين ليهتوه بنصر الله ، فلما سار الرجال بملاصهم الدينية في المدينة اشأبت إليهم الأعناق ، وأحس اليهود غيرة أن علا شأن رسول الله عليه السلام ، وأبدى المنافقون بأفواههم غير ما يملأ أفئدتهم من حقد على نبي الإسلام ، وفاضت قلوب المؤمنين بالبشر والاستبشار .

وانطلق الرجال إلى مسجد الرسول يحملون إليه تحيات النجاشي وتهنئته وأطيب التمنيات . واستقبلهم عليه السلام بالترحاب ثم دار بين الجانبين حوار ودي . فقرأ عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : **بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أن نذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا**

وأثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبین . واضرب لهم مثلاً أصحاب القبرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون . قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون . قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين . قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم لرحمتكم ولیمسكنكم منا عذاب ألیم . قالوا طائركم معكم أن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون . وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون . وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون . أتأخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا يتقنون . إني إذا لقي ضلال مبين . آمأمنت بربكم فاسمعون . قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون . بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين (١) .

واستمر رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلو سورة يس . ورهبان الحبشة يصفون إليه وقد جاشت صدورهم بمشاعر رقيقة ، وما لبثوا أن انهمرت الدموع من العيون من أثر الانفعال الشديد ، فأنزل الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا . ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع

مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنة فاكبتنا مع الشاهدين . وما لنا
لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم
الصالحين . فاثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار
خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين (١) .

تدفقت الأموال من مكة إلى المدينة في فداء أسرى بدر ،
وقد أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم نصيبه في الغنائم وفي
الأموال ولكنه لم يحتفظ منها بشئ بل رد كل ما أخذ على فقراء
المسلمين ، فقد كان عليه السلام إمام الزاهدين وكان يقول :
— أفلح الزاهد في الدنيا ، حظى بعز العاجلة وبثواب الآخرة .
فهو عليه السلام يرى أن من أصبحت الدنيا همه وتسرقه
نزاع الله الغنى من قلبه وصير الفقر بين عينيه ولم يؤته من الدنيا
إلا ما كتب له ، ومن أصبحت الآخرة همه نزاع الله الفقر
من قلبه وصير الغنى بين عينيه وأتته الدنيا وهي راغمة .
وكان علي بن أبي طالب ربيب رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وله فيه أسوة حسنة ، وقد كان نصيب علي في غنائم بدر
عظيما فاللدروع في قريش يوم بدر كانت كثيرة فلما انهزموا
جعلوا يلقيونها وجعل المسلمون يتبعونهم ويلقون ما طرحوا ،
ولقد التقط منها على الكثير وأخذ نصيبه من الأنفال والأموال ،
ولو شاء أن يتاجر في أمواله لكان من أغنياء المسلمين ولكنه
كان زاهدا كابن عمه عزت عليه نفسه فهانت عليه الدنيا ، فحب
الدنيا رأس كل خطيئة ، واقتناء المال فيها داء عظيم لا يسلم
صاحبه من البغى والكبر ، فان سلم منهما يشغله إصلاحه عن
ذكر الله .

إنه يطمع في أن يكون من المتقين فيدع ما ليس به بأس
حنرا عما به بأس ، فكان يخرج عن كل ماله ويؤثر أن يكون
فقيرا من أن يكون غنيا في أمواله بأس ، ويرضى بالجوع ففيه
مذلة للنفس وحياة للقلب وقد منع نفسه من الشهوات لكرامة
نفسه عليه .

عرف بعد بدر بفارس الإسلام ولم يكن له من قبل ذكر
إذا ما ذكرت الحروب ، وقد سمع كثيرا من الإطراء فما زاده
المديح إلا تواضعا . وكان يدخل دار رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ويرى فاطمة الزهراء وأم كلثوم فلا يخطر له الزواج على
قلب وإن كانت فاطمة قد صارت زهرة متفتحة في السادسة
عشرة من عمرها . فقد كان مشغولا عن دنياه بالنور الذي ملأ
فؤاده .

وجاء أبوبكر الصديق إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
يخطب فاطمة فأطرق عليه السلام قليلا ثم قال :
- انتظر بها القضاء .

وسمعت فاطمة ولا ريب بخطبة الصديق إياها وفكرت في
الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقت ذلك القضاء
الذي ينتظره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء عمر إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب فاطمة
فقال له عليه السلام :
- انتظر بها القضاء .

ودار حديث في الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم

أيمن حول خطبة عمر لفاطمة الزهراء ورفض الرسول - صلى الله عليه وسلم - ذلك الزواج في كياسة وأدب وذلك القضاء الذي ينتظره رسول الله عليه السلام ، ولم يود الحوار إلى حقيقة تطمئن إليها قلوب أهل البيت التي كانت حائرة قلقة .

وفطن أبو بكر وعمر إلى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد ادخر الزهراء لعل بن أبي طالب ، فجاء إلى علي يأمره أن يخطبها فنبهها لأمر كان عنه غافلا ، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال :

- تزوجي فاطمة .

فأمهله عليه السلام حتى يستشيرها ، فدخل عليها فقال :

- أي بنية إن ابن عمك عليا قد خطبك فماذا تقولين ؟

فبكت ثم قالت :

- كأنك يا أبت إنما ادخرتني لفقر قريش .

- مالك تبكين يا فاطمة ! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأولهم سلما . ما آليت أن أزوجه خير أعل . والذي بعثني بالحق ما تكلمت في هذا حتى أذن لي الله فيه من السماء .

- رضيت بما رضى الله ورسوله .

وتהל وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالبشر وخروج إلى ربيبه وابن عمه وقال له :

- هل عندك من شئ ؟

- كلا :

— وأين درعك الحطمية (التي تحطم السيوف) .

— عندى .

ودفع على بالدرع إلى غلامه ليبيعها فانطلق بها إلى السوق ،
وبينا هو يبيعها بأربعمائة درهم إذ رآه عثمان بن عفان فقال :

— هذه درع على فارس الإسلام لا تباع أبدا .

فدفع لغلام على أربعمائة درهم وأقسم أن لا يخبره بذلك
ورد الدرع معه .

وقال النبي — صلى الله عليه وسلم — لأنس بن مالك .

— انطلقت وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير

وبعدتهم من الأنصار .

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجالسهم التفت عليه السلام .

إلى على وقال :

— يا على اخطب لنفسك .

فقام على فقال :

— الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه . وأشهد أن لا إله إلا الله

شهادة تبليغه وترضيه . وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

زوجنى ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا

ما يقول واشهدوا .

قالوا :

— ما تقول يا رسول الله ؟

— الحمد لله المحمود بنعمته : المعبود بقدرته . المطاع

لسلطانه . المهروب إليه من عذابه : النافذ أمره فى أرضه وسبائه ،

الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً ، وأمراماً مفترضاً ، وحكماً عادلاً ، وخيراً جامعاً ، أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً (١) » ، وأمر الله بحجى إلى قضائه وقضاؤه بحجى إلى قدره ولكل أجل كتاب ، يحجو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب . ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أننى زوجت فاطمة من على على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

وخر على ساجدا شكراً لله ، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

— بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما

الكثير الطيب .

ثم أمر لأصحابه ببطق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :

— انتهوا .

وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من آدم حشوها ليف ونورة من آدم (إناؤه يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدرح ورحاءان وجرتان .

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
فيها بـكـبش من عند سعد بن معاذ وآصع من ذرة من عند جماعة
من الأنصار ، وقال لعلى :

— لا تحدث شيئا حتى تلقاني .

فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلى في
جانب آخر .

وجاء رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال لفاطمة :

— انتنى بماء .

فقامت تعثر في ثوبها من الخياء فأنته بقعب فيه ماء ، فأخذه
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم قال لها :

— تقديني .

فتعلمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — بلالا بأن يشتري طيبا بثلاث الصداق ، فنضح بين
ثديها وعلى رأسها وقال :

— اللهم إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

ثم قال :

— اثوني بماء .

فعلم على الذي يريد فقام وملا القعب فأثاه به ، فأخذه
وضنح به كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

— اللهم يارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في شملهما .

وتلا المعوذتين ثم قال :

— ادخل بأهلك باسم الله والبركة .

ومكث صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لا يدخل على فاطمة ،
وفي اليوم الرابع دخل عليهما في غداة باردة وهما في قطيفة لهما
إذا جعلها بالطول انكشفت ظهورهما وإذا جعلها بالعرض
انكشفت رؤوسهما ، فلما رأياهما بالتهوض فقال لهما :
— كما أنتم .

وجلس عند رأسهما ثم أدخل قدميه وساقيه بينهما ، فأخذ
على كرم الله وجهه إحداهما فوضعها على صدره وبطنه ليدفئها ،
وأخذت فاطمة رضي الله عنها الأخرى فوضعتها كذلك . وراح
على بن أبي طالب الذي لم يكن قد تجاوز الثانية والعشرين من
عمره يصغي إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتلقى منه
الحكمة ليقول ذات يوم :

— لا تخافن أحد إلا ذنبه ، ولا يرجون إلا ربه . ولا يستحي
من لا يعلم أن يتعلم ، ولا من يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن
يقول الله أعلم . ما أبردها على الكبد إذا سئلت عما لا أعلم ،
أن أقول الله أعلم .

سيطر رسول الله صلى الله عليه وسلم - على طرق تجارة قريش المتجهة إلى الشام والعراق وأصبح يهدد الطريق إلى نجد بعد انتصاره الساحق في بدر ، وقد أحس المكيون خطورة تحكّم رسول الله صلى الله عليه وسلم في طرق قوافلهم المتجهة إلى الشمال منذ أن لحقت بهم الهزيمة فرأوا أن لا مناص من جولة ثانية مع المسلمين لوضع حد لذلك الموقف الخطير إن أرادوا ألا تختنق مكة اقتصاديا ، فما إن رجع من حضر بدرا من المشركين إلى مكة ووجدوا العير التي قدم بها أبو سفيان بن حرب من الشام موقوفة في دار النخوة لم يحركها أبو سفيان ولم يفرقها لغية أهل العير ، حتى مشى أشراف قريش إلى أبي سفيان : الأسود بن عبد المطلب بن أسد وجبير بن مطعم وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل والحارث بن هشام وعبد الله بن أبي ربيعة وحويطب بن عبد العزى فقالوا :

- يا أبا سفيان انظر هذه العير التي قلعت بها فاجتسها فقد عرفت أنها أموال أهل مكة ولطيمة قريش ، وهم طييو الأنفس يجهزون بهذه العير جيشا كثيفا إلى محمد ، فقد ترى من قتل من آبائنا وأبنائنا وعشائرننا .

فقال أبو سفيان :

- وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

- نعم .

- فأنا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي ، فأنا والله الموتور والثائر وقد قتل ابني حنظلة بيدرو وأشرف قومي . ولم يعجب ذلك القرار بعض أصحاب الأموال في القافلة فدار حوار بين الناس انتهى بأن قالوا :

- بيع العير ثم اعزل أرباحها .

كانت ألف بعير وكان المال خمسين ألف دينار وكانوا يربحون في تجارتهم للدينار دينارا ، فعزل أبو سفيان الأرباح وأعاد إلى الناس رموس أموالهم ، وحبس عير بني زهرة لأنهم رجعوا من طريق بلدر ، وسلم ما كان لمخرمة بن نوفل ولبنى أبيه وبني عبد مناف بن زهرة ، فأبى مخرمة أن يقبل عيره حتى يسلم إلى بني زهرة جميعا ، وتكلم الأخنس فقال :

- وما لعير بني زهرة من بين عيرات قريش ؟ !

قال أبو سفيان :

- لأنهم رجعوا عن قريش .

- أنت أرسلت إلى قريش أن ارجعوا فقد أحرزنا العير لا تخرجوا في غير شيء فرجعنا . فآخذت بنو زهرة عيرها وأخذ أقوام من أهل مكة أهل ضعف لا عشائر لهم ولا منعة كل ما كان لهم في العير ، وعزل أبو سفيان أرباح القافلة وراح ينفقها في التأهب لغزو المدينة ليقضى على محمد وأنصاره تأمينا لطريق القوافل إلى الشام والعراق .

وكانت قريش تعتمد على تأييد القبائل القريبة من المدينة ،

(غزوة بلدر)

بنى سليم في الجنوب وغطفان في الشرق . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعلم ما بين قريش وسليم من ود فخشي أن تتحرك سليم عقب هزيمة قريش في بدر وتدهم المدينة تأثروا لحلفائهم سادات قريش الذين تجرعوا غصص الموت ، فما إن قدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة من بدر ولما ينقض إلا سبع ليال خرج ليخزوه بنفسه بنى سليم ، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري . ودفع إلى علي بن أبي طالب لواءه وكان أبيض ، ثم تقدم بالمسلمين حتى بلغ ماء من مياههم يقال له الكندر ، فأقام على ذلك ثلاث ليال وقد علمت بنو سليم بذلك فلم يحرکوا ساكنا وآثروا السلامة ، فرجع إلى المدينة بعد أن ألقى الرعب في قلوب أعدائه ، وحذر بنى سليم وغطفان تحذيرا عمليا أن أى حركة عدائية ستقابل بالردع الشديد .

وورمت أنوف اليهود بعد انتصار المسلمين في بدر وأكل الحسد أكبادهم ، فرأوا أن يعملوا على توهين المسلمين على الرغم من المعاهدة التي عقدها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بين المهاجرين والأنصار واليهود . والتي تعاهدوا فيها أن يكونوا يدا واحدة على أعدائهم ، فلاذ كعب بن الأشرف بمكة يرثى قتلى قريش ويحرضهم على الثأر . وأخذ اليهود في الأسواق يعملون جاهدين على تقليل شأن انتصار المسلمين في بدر ويحاولون تحريك الأحقاد التي كانت بين الأوس والخزرج والتي تجمع الإسلام في اجتنائها من أساسها . وقامت مشكلات بين المسلمين من المهاجرين والأنصار وبين

المسلمين واليهود حول توزيع المياه كان رسول الله يقصل فيها بحكمته ، فلما اختصم إليه في مهزوز وادى بنى قريظة قضى أن الماء إلى الكعبيين لا يحبس الأعلى على الأسفل . وحدث أن خاصم رجل من الأنصار الزبير بن العوام في شرج من شروج الحرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— اشرب يا زبير ثم خل سبيل الماء .

قضى عليه السلام بأن يروى الزبير أرضه ثم يدع الماء للأنصارى فإذا بالأنصارى يقول :

— العدل يا رسول الله وإن كان ابن عمك .

فتغير وجه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — حتى عرف أن قد ساء ما قال ، فقال :

— يا زبير احبس الماء حتى يبلغ الكعبيين ثم خل سبيل الماء .

كانت قريش تناهب لثب على المسلمين من الخارج ، وكان اليهود يتربصون بهم ليطعنوهم من الداخل ، وكان المناقون وقد عميت قلوبهم التي في صلورهم يودون أن تكون الدائرة على المسلمين . وكانت بعض خلافات تنشب بين الأنصار والمهاجرين كان عليه السلام يعمل على إطفائها سريعا ليخفف للخطر الخارجى حتى لا يدهم المدينة فجأة ، وللخطر الداخلى الذى يتحفر للتحرك في أية لحظة .

كان الجو مشحونا بالخطر وكانت العداوة قد بلغت ذروتها بين مكة والمدينة ، ولكن الأنصار كانوا يرون أن هذه العداوة

لن تحول دون خروج المدنيين معتمرين إلى البيت العتيق ، فالعهد بقريش ألا يعرضوا لحاج ولا معتمر إلا بخبر . فبينما كان سعد بن النعمان بن أكثم آل أخو بني عمرو بن عوف في غنم له في النقيع ، إذ خرج من هناك معتمرا ومعه امرأة له .

كان سعد شيخا قد هوى فؤاده إلى الحرم فانطلق هو وامراته وفي صدرهما نشوة روحية غامرة ، فلما أتيا الكعبة طلقا يطوفان بها وقد نزل بهما أمن وسلام . وفيما هما غارقان في مناجاة ربهما إذا بأبي سفيان يعلو على سعد ويحبسه بابنه عمرو الذي كان في يد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي أن يقديه .

وارتفعت أصوات استنكار ما لبثت أن أخذت ، فأم عمرو ابن أبي سفيان كانت بنت عقبة بن أبي معيط من قتله محمد عليه السلام صبورا ، فغدت تؤيد أبا سفيان فيما فعل ، وكذلك كانت زوجته هند بنت عتبة وكل الموتورين .

وقال أبو سفيان .

أرهط ابن أكيال أجيوا دعاءه

تعاقدتم لا تسلموا السيد الكهلا

فان بنى عمرو لثام أذلة

لئن لم يفكوا عن أسيرهم الكهلا

فأجابه حسان بن ثابت فقال :

لو كان سعد يوم مكة مطلقا

لأكثر فيكم قبل أن يؤسر القتلا

بعضب نحاس أو بصغراء نبعة

تحن إذا ما أنبضت تحفز النبلا (١)

وتريث بنو عمرو بن عوف لعل الخمس من أهل الحرم
يستذكرون فعلة أبي سفيان ، ولكن الوقت يمر والشيخ محبوب
في مكة وأبو سفيان مصر على أن لا يطلق سراحه قبل أن يخلي
المسلمون سبيل ابنه عمرو . فمشوا إلى رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبي سفيان فيفكوا به صاحبهم ،
ولما كان رسول الله عليه السلام لا يسأله سائل عن شيء إلا
أعطاه إياه ، فقد دفع إليهم بعمره فدفعوا به إلى أبي سفيان ،
فخلى سبيل سعد بعد أن أهدر حرمة الحرم الذي كان آمنا .

(١) - العضب : السيف القاطع . للصغراء : القوس . والتبع : شجر تمنع

منه القسي . وتحن : أي يصوت وترها . والاتباض : أن يحرك وتر القوس .
وتحفز النبلا : أي تقلد به وترميته .

أسلم عبد الله بن أبي بن سلول لما وجد أن قومه قد أسلموا جميعا ولكن مرض قلبه لم يبرأ ، فقد كان يحقد في دفينه نفسه على نبي الإسلام والمسلمين ، فلم ينس أبدا أن هجرة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة قد حرمته التاج الذي كاد الأوس والخزرج أن يضعوه فوق رأسه .

وكان حليفا لبني قينقاع وكانوا أشهر قوم من اليهود وأشجع يهود . ، وكانوا صاغة فعدا يمضى بعض الوقت في حوائثهم يشاركتهم في الاستهزاء برسول الله عليه السلام وبالمسلمين . وقد كانت المرارة ترفرف على شفثيه بعد انتصار المسلمين على قريش في بدر ، ولولا نفاقه لخرج إلى قريش كما خرج كعب ابن الأشرف ورثى قتلى بدر بأحر الدموع .

وكان بنو قينقاع أول من نبذ العهد فقد عاهدهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعاهد بنو قريظة وبنو النضير على أن ينصروه على من دهمه من عدوه ، فلما كانت وقعة بدر أظهرها البغي وأعلنوا على الملأ بأفعالهم وسخريتهم من المسلمين نبذهم العهود .

جاءت امرأة من العرب بابل وأغنام فباعتها بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ منهم ، فجعل جماعة من اليهود

يراودونها عن كشف وجهها فأبى ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعلقه إلى ظهرها وهي لا تشعر ، فلما قامت انكشفت سوءها فضحكوا منها ، فصاحت فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه . فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود فغضب المسلمون وأطلقت الحرب بخطمها . ورأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن يعلنها حرباً على اليهود أن يستنفذ كل وسائل السلام فجمع أصحابه وعبادة بن الصامت وعبد الله بن أبي بن سلول فقد كانا حليفين لبنى قينقاع ، وقال - صلى الله عليه وسلم - :

- ما على هذا أقرناهم .

فقال عبادة بن الصامت :

- يا رسول الله أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار .

تبرأ عبادة بن الصامت من حلفهم وتثبت به عبد الله بن أبي بن سلول ، فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولم منهم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » ، فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين . يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة

على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون
لومة لأثم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . إنما وليكم
الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة
وهم راكعون . ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله
هم الغالبون (١) .

وجمع رسول الله عليه السلام بنى قينقاع وقال لهم :
— يا معشر يهود ، احذروا من الله مثل ما أنزل بقريش من
النقمة وأسلموا ، فإنكم عرفت أنى مرسل تجلدون ذلك في كتابكم
وعهد الله تعالى إليكم .
فقالوا مستهزئين :

— يا محمد إنك ترى أنا قومك ولا يغرنك أنك لقيت قوما
لا علم لهم بالحرب فأصبحت لهم فرصة ، إنا والله لو حاربناك لتعلمن
أنا نحن الناس .

واختلوا المسلمين هزوا وطفقوا يقولون ضاحكين إن محمدا
يظننا أنا مثل قومه ، والله لو قاتلنا ليعلمن أنه لم يقاتل مثلنا .
وقد غرهم أنهم أشجع اليهود وأكثرهم أموالا وأشدهم بغيا .
فأنزل الله تعالى : « قل للذين كفروا مستغلبون وتحشرون إلى جهنم
وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فتنة التقتا فتنة تقاتل في
سبيل الله وأخرى كافرة يروهم مثليهم رأى العين والله يؤيد
بنصره من يشاء إن في ذلك لعلبة لأولى الأبصار (٢) » . وأنزل تعالى :
« وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب

الحائنين . ولا يحسن الذين كفروا سبقوا إليهم لا يعجزون .
وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به
عائلو الله وعدوكم وأخريين من دونهم لا تفلحونهم الله يعلمهم
وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون (١) .
وتحصن بنو قينقاع في حصونهم بعد أن أبو أن مجنحوا للسلم ،
فسار إليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولواؤه الأبيض بيد
عمه حمزة بن عبد المطلب أسد الله الذي ينزل الرعب في قلوب
أعداء الله الذين يريدون أن يطفئوا نور الله جاہدين ، واستخلف
- صلى الله عليه وسلم - على المدينة أبا لبابة وضرب يحصارا على
حصون اليهود .

كان الشهر شوال وكان القمر بدرا وكان اليهود يطلون من
الحصون فيرون المسلمين وقد اتفوا بالحصون كالأسيود فتتخلع
أفئدتهم من الرعب . ويتذكرون ما نال صناديد قريش في بدر ،
قتل الفرسان وأسر الشجعان وهرب على رجله سادات الناس :
فحكيم بن حزام أطلق ساقه للريح ، وفارس الفريسان عمرو بن
عبد ود نجا هاربا على قدميه وهو شيخ كبير . . . المعركة
جريا فوصل إلى مكة وهو مشرف على الهلاك . وطفقت أشباح
معركة بدر تتخايل لهم فتفت في عضهم وتضعف من روحهم
وتزلزل الأرض تحت أقدامهم وتجعل أفئدتهم هواء .

وانقضت خمس عشرة ليلة وبنو قينقاع في حصونهم قد
قذف الله الرعب في قلوبهم ، كانوا أربعمئة حاسر وثلاثمئة

دارع وكانوا قادرين على القتال ولكنهم آثروا السلامة ورأوا
أن يسلموا قبل التقاء الجيشين : فسألوا رسول الله - صلى الله عليه
وسلم - أن يخلى سبيلهم وأن يجلوا من المدينة وأن لهم نساءهم والذرية
وله - صلى الله عليه وسلم - الأموال والسلاح .
ونزلت بنو قينقاع فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن
يكتفوا فكتفوا ، فكلمه فيهم عبد الله بن أبي بن سلول وألح
عليه فقال :

- يا محمد أحسن في موالى .

فأعرض - عنه صلى الله عليه وسلم - فأدخل يده في جيب درع
رسول - الله صلى الله عليه وسلم - من خلفه ، فقال له عليه السلام :
- ويحك أرسلنى .

وغضب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حتى رأوا لوجهه
سرة لشدة غضبه : ثم قال :

- ويحك أرسلنى .

- والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى فانهم عترى وأنا امرؤ
أخشى الدوائر .

- خذهم لا بارك الله لك فيهم .

وأمر - صلى الله عليه وسلم - أن يجلوا من المدينة ووكل
باجلائهم عبادة بن ائصامت وأمهلهم ثلاثة أيام .

وجاء ابن أبي بن سلول إلى منزله - صلى الله عليه وسلم -
يسأله في إقرارهم فحجب عنه . فأراد الدخول فدفعه بعض
اصحابه فصدم وجهه الحائط فشجه فانصرف مغضبا .

وانقضت الأيام الثلاثة فجاءوا إلى عبادة بن الصامت
فسألوه أن يمهلهم فوق الثلاث ، فقال :
- لا ولا ساعة واحدة .

وبلغهم ما نال ابن أبي بن سلول (أبو الحباب) على أيدي
صحابه رسول الله عليه السلام فقالوا :

- لا نمكث ببلد يفعل فيه بائي الحباب هذا ولا نتصر له .

وخرجوا أذلة من المدينة ليذهبوا إلى أذرعات بالشام .

وكانت أموالهم فينا لله ولرسوله لأنها لم تحصل بقتال . ولكن
رسول الله عليه السلام قسمها بينه وبين المسلمين فكان له الخمس
ولأصحابه الأربعة الأخماس . وراح يوزع الخمس على ذبى
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل يعود إلى منزله وليس معه منها
بيضاء ولا صفراء .

نقريش تنأهب لنثار ليوم بدر ، واليهود في قلب المدينة يتآمرون على المسلمين ، والمنافقون يسوؤهم أن تمس المؤمنين حسنة ويفرحون إن أصابتهم سيئة ، والقرآن ينزل من السماء يجادل الكافرين ويتوعد أهل الكتاب ويكشف المنافقين ويشرع للبشر بين لهم طريق الحلال وطريق الحرام ويهديهم إلى صراط مستقيم .
جاء عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :

- يا رسول الله إن قومنا من قريظة والنضر قد هاجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، ولا نستطيع محاسبة أصحابك لبعـد المنازل .

إن قومهم لما رأوهم آمنوا بالله ورسوله وصدقوه وفضضوهم وآلوا على أنفسهم ألا يجالسوهم ولا يتكلموهم ولا يذكروهم ، فشق ذلك عليهم فأنزل الله فيهم : « إنمـد وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون (١) » .

وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحذر اليهود بعد ما بدت العداوة من بني قينقاع ويرى أنهم أهل مكر وخداع ، وقد سرق رجل من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بني ظفر

ابن الحارث درعا من جبار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق فجعل اللدقيق يتثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى الدار وفيها أثر اللدقيق ، ثم خباها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتصمت الدرع عند طعمة فلم توجد عنده وحلف لهم :

— والله ما أخذتها وما لي بها من علم .

فقال أصحاب الدرع :

— بلى والله قد أدلج علينا فأخذها وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر اللدقيق .

فلما أن حلف تركوه واتبعوا أثر اللدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه ، فقال :

— دفعها إلى طعمة بن أبيرق .

وشهد له أناس من اليهود على ذلك فقالت بنو ظفر وهم قوم طعمة :

— انطلقوا بنا إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

فكلّموه في ذلك فسألوه أن يجادل عن صاحبهم وقالوا :

— إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرى اليهودى .

فهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يفعل وكان هواه معهم وأن يعاقب اليهود . حتى أنزل الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيمًا . ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما . يستخفون

من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا . ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيفا . ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحاما . ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليا حكيما . ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاننا وإثما مبينا . ولولا فضل الله عليك ورحمته لمحت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما . لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجرا عظيما . ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا . إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا (١) .

وكان اليهود يمججون في المجتمع المدني يمشون بالأراجيف ويهمسون في آذان حلفائهم من الأنصار بأقوال مسمومة لعلها تنال من ذلك الولاء العجيب لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — . جاء جماعة من اليهود إلى رجال من الأنصار يخاطبونهم فقالوا لهم : — لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر . وقبل أن يستقر ذلك الوهم في النفوس المؤمنة أنزل الله تعالى :

« الذين ييخلون ويأمرؤن الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا . والذين ينفقون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا . وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليا . إن الله لا يظلم مثقال ذرة . وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ، فكيف إذا جتتا من كل أمة بشهيد وجتتا بك على هؤلاء شهيدا . يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا (١) » .

وآمن عبد الله بن سلام وأصحابه بالنبي - صلى الله عليه وسلم - فأمنوا بشرائعه وشرائع موسى ، فعظموا السبب وكرهوا الحمان الإبل وألبانها بعد ما أسلموا ، فأنكر ذلك عليهم المسلمون فقالوا :

- إنا نقوى على هذا وهذا .

وقالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم :

- إن التوراة كتاب الله فدعنا نعمل بها .

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم علو مبين . فان زلتم من بعد ما جاءكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم . هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور . سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب (٢) » .

وكان رجال من قريش يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

في المدينة يعطونه من طرف اللسان جلاوة وإن كانت قلوبهم تفيض بالحقد ، وقد أقبل إلى النبي عليه السلام الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة من عاد بالناس يوم بدر ، وغدا يتحدث حديثا عذبا حتى قال :

— إنما جئت أريد الإسلام والله يعلم إنني لصادق .

وأعجب النبي — صلى الله عليه وسلم — حديثه فقدا يقبل عليه ويتلو عليه ما أنزل من القرآن ، ثم خرج من عند رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ليعود لمكة فمريزوع لقوم من المسلمين وحمر فأحرق الزرع وعقر الحمر . فأنزل الله تعالى فيه : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام . وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد . وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبس المهادر (١) » .

وكانت القوافل تأتي إلى المدينة من الشام فتتوزل في أسواقها تباع الخمر وتشترى التمر ، وكان المسلمون يشترون خمر الشام فما كانت الخمر قد حرمت بعد ، وقد صنع عبد الرحمن بن عوف طعاما ودعا أناسا من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فطعموا وشربوا . وحضرت صلاة المغرب فتقدم بعض القوم فصلي بهم المغرب فقروا : قل يا أيها الكافرون . فلم يقمها . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (٢) » .

وكان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ابنان فتنصرا
قبل أن يبعث النبي - صلى الله عليه وسلم - وخرجوا مع تجار الشام الذين
جاءوا يحملون الزيت ، وكانا يؤمان المدينة كل عام مع التجار
فراهما أبوها فلزمهما وقال :

- والله لا أدعكما حتى تسلما .

فأبيا أن يسلما فاختصموا إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فقال :

- يا رسول الله أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ؟

فأنزل الله تعالى : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي
فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى
لا انفصام لها والله سميع عليم (١) » .

فخلى الرجل سيبلهما وهو حزين .

وكان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل
وله امرأة جاء ابنه من غيرها أو قرابته من عصبته فأتى ثوبه على
تلك المرأة فصار أحق بها من نفسها ومن غيره ، فإن شاء أن يتزوجها
تزوجها بغير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت ، وإن شاء
زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئا ، وإن شاء عضلها
وضرها لتفتدى منه بما ورثت من الميت أو تموت هي فيرتها ،
فنفى أبو قيس بن الأسلت الأنصارى وترك امرأته كبيشة بنت
الأنصارية ، فقام ابن له من غيرها اسمه قيس بن أبي قيس فطرح
ثوبه عليها ، فورث نكاحها ثم تركها فلم يقربها يقصاها لتفتدى منه
بمالها ، فأتت كبيشة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالت :

(١) البقرة ٢٥٦

— يا رسول الله إن أبا قيس توفي وورث ابنه نكاحي وقد
أضرني وطول علي ، فلا هو ينفق علي ولا يدخل بي ولا هو يخلي
سبيلي .

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— اقعدي في بيتك حتى يأتي فيك أمر الله .

فانصرفت وسمعت بذلك النساء في المدينة فأتين رسول الله
عليه السلام وقلن :

— ما نحن إلا كهينة كبيشة غير أنه لم ينكحنا الأبناء ونكحنا
بنو العم .

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا
النساء كرهها ولا تعضوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن
يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى
أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا . وإن أردتم استبدال
زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا
أأأخذونه بهتانا وإنما ميئنا . وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم
إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا . ولا تنكحوا ما نكح آبائكم
من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا (١) » .

وتوفي أوس بن ثابت الأنصاري وترك امرأة يقال لها
أم كحة وثلاث بنات له منها : فقام رجلان هما ابنا عم الميت
ووصياه يقال لهما سويد وعرفجة فأخذوا ماله ولم يعطيا امرأته شيئا
ولا بناته : وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغير وإن :

كان ذكرا . إنما يورثون الرجال الكبار وكانوا يقولون :
- لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة .
فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقالت :
- يا رسول الله إن أوس بن ثابت مات وترك على بنات وأنا
امرأة وليس عندي ما أنفق عليهن : وقد ترك أبوهن مالا حسنا
وهو عند سويد وعرفجة لم يعطيني ولا بناته من المال شيئا وهن
في حجرى ، ولا يطعماني ولا يستقيان ولا يرفعان لهن رأسا .
فدعاهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالا :
- يا رسول الله ولدها لا يركب فرسا ولا يحمل كلا ولا ينكى
علوا .

فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم :
- انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لى فيهن .
فانصرفوا فأنزل الله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان
والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه
أو كثر نصيبا مفروضا . وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى
والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا . وليخش الذين
لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا
قولا سديدا (١) » .

ولما أنزل الله تعالى على رسوله : « لله ما فى السموات وما فى
الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن
يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شئ قدير (٢) » . اشتد ذلك

على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ودخل قلوبهم منها شيء لم يدخلها من قبل ، فجاء أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - فاجثوا على الركب وقالوا :

- يا رسول الله والله ما نزلت آية أشد علينا من هذه الآية .
إن أخذنا ليحدث نفسه بما لا يحب أن يثبت في قلبه وأن له الدنيا وما فيها ، وإنا لمؤاخذون بما نحدث به أنفسنا هلكتنا والله .
فقال النبي - صلى الله عليه وسلم :
- هكذا أنزلت .

فقالوا :

- هلكتنا وكلفنا من العمل ما لا نطيع .
- فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى : سمعنا وعصينا ،
قولوا : سمعنا وأطعنا .
- سمعنا وأطعنا .

واشتد ذلك عليهم وأنزل الله تعالى على نبيه : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير (١) » .

ومكثوا جولا وهم في شدة يتلربون على تهذيب نفوسهم حتى لا توسوس في صدورهم بما يكرهون أن يبيحوا به ويعلموه على الملا ، حتى أنزل الله الفرج والراحة بقوله : « لا يكلف الله

نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا
إن نسبنا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين
من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا
وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين (١) .

جلس أبو سفيان في الحرم باسر الوجه مقطب الجبين فهو قد
نذر يوم أصاب قريشا في بدر ما أصابها أن لا يمسه رأسه ماء من جنابة
حتى يغزو محمدا ، وها هي ذى الأيام تمر وقد اعتزل نساءه ولم يبر
قسمه ، فغدا يفكر. فيما يفعله ليبر يمينه التي انتشرت في مكة انتشار
الريح .

وراح أبو سفيان يستعيد تلك الأيام التي كان فيها رسول الله
— صلى الله عليه وسلم — بين ظهرائهم في مكة ، فانه كان لا يسمع
أحد كلامه إلا أحبه ومال إليه : وكان الوليد بن المغيرة يحب أن
يجلس إليه ويلقى إليه سمعه حتى قال أعداء ابن عبد الله :

— نخاف أن يصبو الوليد بن المغيرة إلى دين محمد ، ولئن صبا
الوليد وهو رجانة قريش لتصبون قريش بأجمعها .

ورن في أغوار أبي سفيان ما كان يقول الناس :

— ما كلامه إلا السحر . . إنه ليفعل بالألباب فوق ما تفعل

الخنزير .

ورأى سادات قريش وهم ينهون صبيانهم عن الجلوس إليه
لئلا يستميلهم بكلامه وشائله ، فلولى شفته السفلى في مرارة
ومسخرة : فما نفع الأبناء ذلك التحذير ، بل لكأنما كان لغراء
لم على أن يرتموا في أحضان دعوته ، سحرهم حتى هان عليهم .

فراق الأهل فهاجروا إلى الحبشة ثم المدينة .

وتذكر ابنته أم حبيبة ، إنها خرجت بعد أن أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش إلى الحبشة وتركته وفضلت عليه إله محمد ودين محمد ، ولكن زوجها ما لبث أن ارتد إلى النصرانية وغدا يقول لأصحاب محمد : أبصرنا وأنتم تلتسمون البصر ولم تبصروا بعد . فلماذا لم يززع ارتداد زوجها عن دينه ثقتها في ذلك الدين الذي ابتدعه محمد ؟ ولماذا لم تعد إليه وهو سيد قريش تلتمس منه الصفح ؟ إنها لو عادت مرتدة عن دين الإسلام لرحب بها وغفر لها زلتها وتلك المهانة التي لطخت بها بنى أمية جميعا يوم فرت بدينها إلى الحبشة .

لبت أم حبيبة تعود إليه الساعة معلنة توبتها مستغفرة عن صوبتها فأنها لو فعلت لقلبت هزيمة قريش انتصارا ، وهي أحوج ما تكون إلى تأييد معنوي يعيد إليها ثقتها التي زعزعتها هزيمة بدر . وأطرق برأسه كأنما يعلن هزيمته . فهو في عين ذاته يعلم أن أم حبيبة لن تعود إليه . إنه سيصحو من نومه ذات يوم لسمع أن ابنته قد هاجرت من الحبشة إلى حيث قد استقر المسلمون ، لكأنما قد استمرت مهانته والهزم من بنى عبد شمس .

وراح يسأل نفسه : ما الذي استهوى أم حبيبة في ذلك الدين ؟ وما لبث أن رأى بعين خياله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وهو يصل في الحجر وينجر بتلاوته والمشركون يجعلون أصابعهم في آذانهم خوفا أن يسحروهم ويستميلهم بقرائه أو يولون على أديارهم نفورا .

وخطر على ذهنه أبو بكر ، إنه كان تاجرا ناجحا من أثرياء مكة ، راجح العقل سيدا في قومه ، فكيف آمن بما يدعو إليه محمد وكيف أنفق عن رضى كل أمواله في سبيل تلك الدعوة ؟ وتحرك غلظه فراح يسأل نفسه : أيرضى عن إنفاق أمواله كلها على الغزى ؟ فإذا به يفزع ويؤكد لنفسه أن ذلك ليس من العقل وأن محمدا قد سحر أتباعه ولا ريب !

وعجب في نفسه كيف يصدق أناس عقلاء أن الله يبعث بشرا رسولا . وزاد عجبه لما تذكر أشراف قريش وهم يمشون إلى ابن عبد الله يعرضون عليه أن يملكوه عليهم وأن يترك دعوته التي تفرق بين الأهل فأبى عليهم ذلك . فإذا يريد محمد أكثر من أن يسود قومه ، أن يكون فيهم مثل كسرى وقيصر ؟ كانت آمال أبي سفيان أرضية فلم يكن يجد مجدا أعظم من أن يكون المرء سيد قومه ، شريفا مطاعا صاحب السلطة العليا الذي تتعلق مصائر الناس بكلمة ترفرف على شفثه . وقد جاء الملك إلى محمد يسعى إليه وفتحت له خزائن قومه فإذا يريد من دنياه بعد ذلك الجاه والمال والسلطان ؟ !

لو قبل محمد الملك لقوض كل أحلام أبي سفيان ، ولكن أبا سفيان تمنى صادقا وهو يجري وراء أفكاره لو أن محمدا عليه السلام قد قبل الملك الذي عرض عليه ، فنار الحسد التي كانت سترعى في جوفه أهون من النار التي تأكل أحشائه لقتل حنظلة وصناديد الرجال ، ولكن الأيام جاءت بما لا يشتهي أبو سفيان فقد آمن الأوس والخزرج بدعوة محمد فأصبحت المدينة خطرا

يهدد تجارة مكة وينذر بيوت المال فيها بالكساد . وقد وقع المحظور يوم بدر وأصبح طريق قوافل قريش إلى غزة في قبضة المسلمين وطريقها إلى العراق غير مأمون ، بل طريقها إلى نجد محفوف بالآخطار . وقد أراد محمد أن يؤكد سلطانه على المنطقة فخرج إلى بني سليم وإلى غطفان حلفاء قريش في أصحابه ، فأثرت بنو سليم وغطفان السلامة فانسحب الرجال إلى منازلهم تاركين عند مياههم جيش المسلمين المظفر هنا بالنصر في أمان .

أن أبا سفيان قد أقسم يوم أن جاءت أنباء قتلى بدر ألا يمسن النساء والطيب حتى يغزو محمدا ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه حتى نزل بمحل بينه وبين المدينة نحو بريد ، ثم انطلق إلى خيبر وأتى بني النضير تحت الليل فأتى حيي بن أخطب وضرب عليه بابه فأتى أن يفتح له .

كان حيي بن أخطب قد عزم على عداوة محمد عليه السلام منذ أن وطئت قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم - أرض يثرب ، وكان وأخوه أبو ياسر بن أخطب من أشد يهود العرب حسدا وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا . فأنزل الله تعالى فيهما : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير (١) » : وكانا مع نفر من يهود ياثون رجالا من الأنصار كانوا يخالطونهم ينتصحون لهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم - فيقولون لهم :

- لا تنفقوا أموالكم فانا نخشى عليكم الفقر في ذهابها ، ولا تسارعوا في النفقة فانكم لا تدرون غلام يكون . فأنزل الله فيهم :
« الذين يدخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا (١) » .

كان حبي بن أخطب من أشد اليهود عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - ولكنه أبى أن يفتح بابه لأبي سفيان ، فقد تذكر ما حاق ببني قينقاع لما نقضوا عهد محمد ، إنه جاسرهم في حصونهم وآطامهم حتى اضطروا إلى التسليم - ولولا عبد الله بن أبي بن سلول لضرب محمد أعتاقهم - فاقشعر جلد حبي وكره أن يكون نقمة على قومه فهان عليه أن يغلق بابه في وجه سيد قریش .

وانسل أبو سفيان في جنح الليل إلى سلام بن مشكم سيد بني النضير ، إنه صاحب كزهم فهو الذي تودع عنده حلبيهم ، ولطالما جاء إليه أبو سفيان يستعير منه الحلبي لأهل مكة لقاء بعض المال . فاستأذن عليه فأذن له واجتمع به وراح يقص عليه أنه جاء في مائتي راكب من قومه ليغزو محمدا ، فدعاه سلام إلى الضعام والشراب وراح يقص عليه خبر الناس ، ولم يستطع أن يعده بمد يد العون لرجاله إذا ما دهموا المسلمين فما حاق ببني قينقاع كان ماثلا أمام عيني .

وخرج أبو سفيان في عقب ليلته حتى أتى أصحابه فبعث رجالا من قریش إلى المدينة ، فأتوا ناحية منها يقال لها العريض فحرقوا نخلا فيها ووجدوا بها رجلا من الأنصار وحليفا له في حرث لها

فقتلوهما، ثم انصرفوا راجعين .

وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم - ما فعلت قريش فاستعمل على المدينة بجيش بن عبد المنذر وخرج رسول الله عليه السلام في طلبهم في مائتين من المهاجرين والأنصار . وخاف أبو سفيان وأصحابه أن يلحق بهم الذين خرجوا في طلبهم فجعلوا يتخففون بالقاء أزوادهم وكان أكثر ما طرح القوم جرب السوق ، فأخذهم المستطعمون ثم عادوا إلى المدينة بعد خمسة أيام .

ورأى أبو سفيان يقول :

ولاني تخيرت المدينة واحدا	لحلف فلم أنسدم ولم أتلوم
معتقاني فرواني كميثا مدامسة	على عجل مني سلام بني شكم
عولنا تولى الجيش قلت ولم أكن	لأفرجه : أبشر بعز ومغنم
تأمل فان القوم سر ولأنهم	صريح لؤي لاشماطيط (١) جرم
وما كان إلا بعض ليلة راكب	أني ساعيا من غير خلّة معدم
وذاع أمر غزوة السوق في القبائل فأصبح أبو سفيان سخرية	
القوم ومادة التندر في نواديهم ، فقد افعل غزوة لير يمينه ويخدع	
نفسه حتى يمس النساء والطيب دون أن يخشى في ذلك لومة لائم !	

(١) شماطيط : مختلطون .

خرج أمية بن أبي الصلت من الشام قاصدا مكة : فاذا به يعيش طوال الطريق مع ذكريات الأيام فيرى نفسه تارة وهو يخرج مع أبي سفيان بن حرب إلى بلاد فارس وتارة وهما ينطلقان إلى دمشق : فقد كانا حليفين قلما يفترقان .

ومرت القافلة بصومعة راهب. فاذا بالذكريات تنثال على رأسه ، إنه اعتنق النصرانية منذ الشباب وقرأ في كتبها أن نبيا عربيا يبعث. وقال له الراهبان أن قد أظلم زمانه ، فكان يطمع في أن يكون ذلك النبي وسرعان ما رأى نفسه بين نساء ثقيف يحدثهن عن ذلك النبي وأنه هو ، فأنجس وهو على ظهر راحلته عرق الحجل يتصب على وجهه ويبلل لحيته .

ورن في أغواره ذلك الحديث الذي دار بينه وبين أبي سفيان ذات يوم ، إنه حديث قد حفر في عين ذاته يتردد في نفسه بين أن وأن لكائما قد صار نشيد حياته :

— هيا صخر .

— ما تشاء ؟

— حدثني عن عتبة بن ربيعة ، أيجنب المظالم والمحارم ؟

— إى والله .

— ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

- إى والله .
- وكريم الطرفين وسط فى العشرة ؟
- نعم .
- فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟
- لا والله لا أعلم .
- أمحوج هو ؟
- لا ، بل هو ذو مال كثير .
- وكم أتى عليه من السن ؟
- قد زاد على المائة .
- فالشرف والسن والمال أزرين به .
- ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .
- هو ذاك .
- وطفا على سطح ذهنه الحديث الذى دار بينه وبين العالم
النصرانى الذى كان قد دخل عليه ، ذلك الحديث الذى كان سبب
الحوار الدائر بينه وبين أبى سفيان .
- أخبرنى عن هذا النبى الذى ينتظر .
- هو رجل من العرب .
- قد علمت أنه من العرب ، فمن أى العرب ؟
- من أهل بيت محجة العرب .
- وفينا بيت تحجة العرب .
- هو من إخوانكم من قریش .
- وكان أمة ثقفيا وكان البيت الذى محجة العرب فى الطائف

هو اللات . فلما انبعث من أغوار نفسه صوت العالم النصراني
محددا قريش أصابه شيء ما أصابه مثله قط ، وخرج من يده فوز
الدنيا والآخرة .

- فصفه لى .

- رجل شاب حين دخل إلى الكهولة ، بدو أمره يجتنب
المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو مجوج كريم
الطرفين متوسط في العشيرة أكثر جنده من الملائكة .
ورأى أبا سفيان بن حرب يدخل عليه وهو في الطائف وإذا
ما كان بينهما من حوار في ذلك اليوم يدوى بين جنييه :

- هل تذكر قول النصراني ؟

- أذكره وقد كان .

- ومن ؟

- محمد بن عبد الله .

- ابن عبد المطلب ؟

- ابن عبد المطلب .

- والله يا أبا سفيان لعله : إن صفته لمى ولئن ظهر وأنا حى
لأطعن من الله عز وجل في نصره عنرا .

ثم رأى أبا سفيان وقد قفل راجعا من اليمن فإذا بصدى الحوار
يرجع في نفسه :

- يا أبا عثمان قد كان من أمر الرجل ما قد بلغك وسمعت .

- قد كان لعمري .

- فأين أنت منه أبا عثمان ؟

- والله ما كنت لأومن برسول من غير ثقيف أبدا .
ومرت الثمانى السنين التى قضاهما فى البحرين فى ذهنه مرور
الطيف ورأى نفسه وهو يقدم الطائف فيقول :
- ما يقول محمد بن عبد الله ؟
- يزعم أنه نبي هو الذى كنت تمنى .
واحتل صفحة ذهنه خروجه حتى قدم عليه مكة فلقبه :
- يا بن عبد المطلب ما هذا الذى تقول ؟
- أقول إني رسول الله وأن لا إله إلا هو .
- إني أريد أن أكلمك فعلى غدا .
- فموعدك غدا .
- فتحب أن آتيك وحدي أو فى جماعة من أصحابي
وتأتيني وحدك أو فى جماعة من أصحابك ؟
- أى ذلك شئت .
- فاني آتيك فى جماعة فأت فى جماعة .
وأرعى الليل سدوله واستمرت القافلة تغذ السير فى الظلمات
بيننا أضاءت نفس ابن أبي الصلت بالذكريات ، فهو يرى فى
وضوح نفسه وهو يغفلون فى جماعة من قريش ورسول الله - صلى
الله عليه وسلم - يغدو معه نضر من أصحابه حتى جلسوا فى ظل
الكعبة ، فبدأ يخطب ثم يسجع ثم ينشد الشعر ثم يقول :
- أجبني يا بن عبد المطلب .
- بسم الله الرحمن الرحيم . يس . والقرآن الحكيم . إنك
لمن المرسلين . على صراط مستقيم . تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر

قوما ما أنذر آبائهم فهم غافلون . لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون : إنما تنذر من اتبع الذكروخشى الرحمن بالغيب فيشره بمغفرة وأجر كريم . إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين (١) .

وسرى صوت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في وجدانه حتى أتى على السورة كلها وأمية بن أبي الصلت يرتجف فوق راحلته من الرأس إلى القدم ، إنه يحس نفس الإحساس الذي استولى عليه يوم أن سمع السورة في مكة ، إلا أن صدره قد انشرح لها وهو يسرى في معبد الله والله أقرب إليه من جبل الوريد .

إنه وثب يوم أن فرغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تلاوة يس بحر رجليه فتبعته قريش يقولون :

- ما تقول يا أمية ؟

- أشهد أنه على الحق .

- هل تتبعه ؟

- حتى أنظر في أمره .

إنه خرج إلى الشام وقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدينة ولم يستطع أن يفر من الحقيقة التي انبجست في سريره ،

إنه كان ينتظر نبيا وقد بعث ذلك النبي فحق عليه أن يؤمن به وإن كان يرجو أن يكون هو نفسه رسول الله . فراح يراود نفسه على أن ترضى بقضاء الله حتى إذا ما برأ قلبه من مرض الحسد خرج ليعلم على الملأ شهادة الحق التي كتبتها منذ أول يوم عرف فيه أن النبوة كانت في ابن عبد الله .

وانفعل بالذكريات فراح ينشد :

باتت هموى تسرى طوارقها

أكف عيني والدمع سابقها

أوت برّة يعصّ ناطقها (١)	هما أثنائي من اليقين ولم
ارحيط بهم سرادقها	أم من تلظى عليه واقدة الـ
أبرار مصفوفة نمارقها	أم أسكن الحنة التي وعد الـ
أعمال لا تستوى طرائقها	لا يستوى المنزلان ثم ولا الـ
نة حفت بهم حدائقها	هما فريقان فرقة تدخل الـ
ارفساءهم مرافقها	وفرقة منهم قد أدخلت الـ
همت بخير عاقت عوائقها	تعاهدت هذه القلوب إذا
جنة دنيا الله ماحقها	وصدها للشقاء عن طلب الـ
يعلم أن البصير رامقها	عبد دعا نفسه فعاتبها
تحي قليلا فالموت لاحقها	مارغب النفس في الحياة وإن
يوما على غرة يوافقها	يوشك من فر من نيته
للموت كاس والمرء ذائقها	إن لم تمت غبطة تمت هرما
بن أبي الصلت يتحرق شوقا	ونزلت القافلة مياه بدر وأمية

(١) برة علم جنس للمبرة .

لقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليشهد أن لا إله إلا الله -
وأن محمداً رسول الله ، وغداً يتأهب للانطلاق إلى المدينة فقال:
قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

— أريد محمداً .

— وما تصنع ؟

— أو من به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر :

والنفت الرجل إلى القليب الذي ألقى فيه قتلى بدر ثم قال :

— أتدري من في القليب ؟

— لا .

— فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة :

لإنهما ابنا خالته ، فأمه ربيعة بنت عبد شمس وأمهما بنت

عبد شمس ، فجذع أذن ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب .

يقول :

ماذا يسدر . فالتفت . قل من مرازمة ججاجع (١)

واستمر ينشد قصيدته ثم رجع إلى مكة والطائف وترك .

الإسلام :

وعاش أمة أيامه وهو قلق حائر بين الخير الذي أريد به -

وبين حسده الذي كان يحول بينه وبين أن يركب إلى المدينة .

ليعلن إسلامه حتى راح يجود بأنفاسه . فألقى أخته الفارعة الخير

فانصرفت إليه فوجدته ممدداً قد سجي عليه فدنّت منه فشقق شهقة :

(١) الججاجع : السادة . والمرازمة : رؤساء الفرس .

وشق بصره ونظر نحو السقف ورفع صوته وقال :
— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، لا ذو مال فيفديني ،
ولا ذو أهل فتحميني .

ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة فقالت أخته :
— قد هلك الرجل .

فشق بصره نحو السقف ورفع صوته فقال :
— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، لا ذو براءة فأعتذر ،
ولا ذو عشيرة فأنتصر .

ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة وشق بصره ونظر نحو السقف
فقال :

— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما ، بالنعم محفود ، وبالذنب
محصود .

ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة فقال :
— لبيكما لبيكما ، هاأنذا لديكما .

إن تغفر اللهم تغفر جما وأى عبد لك لا إلّا

ثم أغمى عليه إذ شفق شهقة فقال :

كل عيش وإن تطاولده برا صائرمرة إلى أن يزولا

ليتنى كنت قبل ما قد بدا لي

في قلل (١) الجبال أرعى الوعولا

فاجعل الموت نصب عينيك واحلّ

غولة الدهر إن للدهر غولا

(١) - جمع مفردة قلة : وهي أعلى الجبل .

نائلا ظفرها القساور (١) والصد
عان (٢) والطفل في المنار الشكيلا
ونبات (٣) النياف (٤) واليعفر (٥) النا
فر والعوهج (٦) البرام الضئيلا
ومات أمية بن أبي الصلت شاعر النصرانية من كاد أن
يسلم ، دون أن ينطق لسانه بشهادة الحق وإن كان منها على
يقين .

-
- (١) جمع نسوة وهو الأسد
(٢) والصنغان : ثيران الوحش
(٣) النبات : الرخم
(٤) النياف : الجبال
(٥) واليعفر : الظبي
(٦) والعوهج : ولد النعامة يعنى ان الموت لا ينجو منه الوحوش في البراري
ولا الرخم الساكنة في رموس الجبال ولا يترك صغيرا لصقرة ولا كبيرا لكبرة ١٠

كانت سليم في شرق المدينة ومنازل بني سليم في عالية نجد .
بالقرب من خيبر تمتد إلى جنوبي المدينة إلى منتصف المسافة .
تقريبا بينها وبين مكة من ذات عرق . وكانت ظروف الحياة تحتم
تحالف القبائل الضعيفة لضممان أمنها فقانون الصحراء يسود المنطقة ،
القبائل القوية تلتهم القبائل الضعيفة ، فراحت كل قبيلة تقوى
نفسها بعقد محالفات مع غيرها فالحلف يقوم على أن ينصر
الحليف حليفه وأن يمنع مما يمنع منه نفسه وأن يكون بدا معه
على غيره .

وقد تحالفت سليم مع قريش ، فلما نشب القتال في بدر
بين المسلمين والمشركين وروت دماء سادات قريش أرض .
الصحراء ، أرادت سليم أن تتحرك لتتأثر الحلفائها . وقد أحس
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذلك فخرج يغزو بنفسه بني سليم .
بعد عودته من بدر إلى المدينة بثمانية أيام ، وكانت حركته
عليه السلام سريعة ألقت الرعب في قلوب حلفاء أعدائه فانسحبوا
إلى منازلهم وأغلقوا دورهم عليهم ، ونزل عليه السلام والذين
معه على مياههم ومكث ثلاثة أيام لم يلق فيها كيذا ، فقفل .
راجعا إلى المدينة يرصد حركات القبائل المعادية التي تلتف
حوله .

وراحت الحياة تسير على ما لوفها في سليم ، الرجال يشنون
الغارات على القوافل للسطو والنساء ينقلن الماء في الجرار إلى الدور
ويرعين الغم ويذلن عنايتهن للنعم . ولما كان القتل في بدر قد
استشرى في سادات حلفائهم فقد وجد شعر الحنساء صدى في
نفوسهم انتقل إلى مكة لتندب به الناديات .

كانت الحنساء أشهر شخصية في سليم وكانت تنوح على
أخويها معاوية وصخر ، وسرعان ما تتلقف النائحات في سليم
وقريش شعرها للنواح به في المناحات ، وكان ذلك الشعر
يتسلل إلى المدينة وقد ينشده بعض نساء الأنصار والمهاجرين
اللاتي فجعن في الأعزة من الآباء والأخوات وفلذات الأكباد :

يا عين جودى بالدمو	ع المستهلات السوافح
فيضاً كما فاضت غرو	ب(١) المترعات من التواضع
وابكى لصخر إذ ثوى	بين الضريحة والصفائح
رمسا لدى جدث تديع	بتره هوج التوافح
السيد الجحجاح وابن	السادة الثم الجحجاح
الحامل الثقل المهم	من الملمات الفوادح
الجابر العظم الكسير	من المباصر والممانح
الواهب المائة الهجا	ن من الخناذيد (٢) السوابح
الغافر الذنب العظيم	لدى القزابة والممالح
بتعمد منه وحلم	حين يبغي الحلم راجح

(١) القروب : جمع قرب وهو الدلو

(٢) الخناذيد : الفحل

ذاك الذى كنا به ويرد بادرة العدو
فأصابنا ريب الزما فكأثما أم الزما
فنسأونا يندبن نو نحن بعد كرى العيو
شعث شر الا ينيب يندبن فقد أخى الندى
والخود والأيدى الطوا فالآن نحن ومن سوا
كانت قريش تبكى قتلاها وكانت سليم تمد النائحات بما
ينشدنه ، بينما كان شعراء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفتخرون
بانتصار المسلمين فى بدر ، فها هو ذا حسان بن ثابت يربط بين
المقدمة الغزلية والغزوة الكبرى فيقول :
يا من لعاذلة تلوم سفاهة
ولقد عصيت إلى الهوى لوائى
بكرت على بسحرة بعد الكرى
وتقارب من حادث الأيام
زعمت بأن المرء يكرب يومه
عدم لمعتكر (٤) من الإصرام

(١) الشنف : المقتضى التتكون

(٢) الأبل القوامح : التى اشتد عطشها

(٣) القارحة : التى وقعت لسانها

(٤) اعتكر : كثر واتعرف

إن كنت كاذبة الذى حدثتني
 فتجوت منجى الحارث بن هشام (١)
 تترك الأحبة أن يقاتل دونهم
 ونجا برأس طمرة (٢) ولجام
 جرداء تمزق (٣) في الغبار كائنها
 مراحان (٤) غاب في ظلال غمام
 تذر العناجيج (٥) الحياض بقفرة
 مر الذمول بمحصد ورجام
 ملات به الفرجين فارمدت (٦) به
 وثوى أحبته بشر مقام
 وبنو أبيه ورهطه في معرك
 نصر الإله به ذوى الإسلام
 طحتهم — والله ينفذ أمره —
 حرب يشب سعيها بضرام
 لولا الإله وجريه لتركه
 جزر السباع ودسنه بحوام (٧)
 كانت الأشعار تنقل بين مكة والمدينة والقبائل ، وكانت

(١) وكان قد فر من المعركة في بلد

(٢) الطمر : الفرس الجواد

(٣) تمزق : تشب

(٤) المراحان : اللئب

(٥) العناجيج : جمع عنجوج وهو النجيب ذو الخيل

(٦) أرمدت : أرمعت

(٧) الحوامى : ميامن الحافر وميامره

الأنباء تفد إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع رجال انبثوا في كل مكان في الجزيرة العربية وكانت قلوبهم مع الإسلام . فبلغ رسول الله عليه السلام أن جمعا من بني سليم وغطفان بقرقرة الكدر يريدون الإغارة على المدينة بعد أن غزاهم - صلى الله عليه وسلم - عقب غزوة بدر بثمانية أيام لما علم أنهم يريدون التأثر لحلفائهم من قريش ، فسار إليهم في مائتين من أصحابه وحمل لواءه على بن أبي طالب من أصبح اسمه يلقي الرعب في قلوب أعداء الإسلام بعد أن صال وجال في بدر وقطع رقاب صناديد قريش وفرسانهم ، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم .

وسار عليه السلام والذين معه حتى نزل قرقرة الكدر وهي أرض ملساء فيها طيور في ألوانها كدرة عرف بها ذلك الموضع ، فلم يجد به أحدا ، وأرسل نفرا من أصحابه إلى أعلى الوادي واستقبلهم في بطن الوادي فوجد خمسمائة بعير مع رعاة منهم غلام يقال له يسار ، فاستولوا عليها وانحدروا بها إلى المدينة . فلما كانوا بمحل على ثلاثة أيام من المدينة خمسمائة صلى الله عليه وسلم ، فأخرج خمسه وقسم الأربعة الأخماس على أصحابه فخص كل رجل منهم بعيران ، ووقع يسار في سهمه صلى الله عليه وسلم .

وراح يسار يرقب رسول الله عليه السلام فإذا به يجد الإنسان الكامل ، ففتح له قلبه وألقى سمعه إلى ما يقرأ من القرآن فإذا بأنوار اليقين تملأ صدره فيتحرك لسانه بشهادة الحق ويقوم يصلي مع المسلمين وقد استبشر بأن هداه الله الصراط

المستقيم ، فلما رآه عليه السلام في صفوف المؤمنين أعتقه لوجه الله الكريم .

وعاد — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة بعد أن غاب عنها خمس عشرة ليلة ، وغدا يوزع خمس الغنائم على الفقراء والمساكين وابن السبيل فقد كان له الخمس والخمس مردود على المحتاجين فما كان يدخل داره منها شيء ، فقد اختار أن يجوع يوما فيسأل الله وأن يشبع يوما فيحمد الله .

وأحسن المسلمون عزة فراحوا يتفقهون في دينهم يلقون أسماعهم إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ويحفظون ما أنزل عليه من ربه فرحين بما آتاهم ، بينما كان بنو سليم يفعلون لشعر الخنساء ويترنحون بمراثيها لأخويها لكانما قد باتت الدنيا مناحة لموت رجلين :

أعني جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى

ألا تبكيان الجرى الحميل

ألا تبكيان الفتى السيدا

طويل النجاد رفيع العما دساد عشيرته أمردا .

إذا القوم مروا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا

فقال الذي فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا

يكلفه القوم ما عالمهم وإن كان أصغرهم مولدا

ترى المجد يهوى إلى بيته

يرى أفضل الكسب أن يحمدا

وإن ذكر المجد ألفتته تأزر بالمجد ثم ارتدى

وقد تأثر بعض نساء المسلمين ورجالهم بذلك النواح فكانوا يقولون إذا ما تحدثوا عن قتلى بدر من المسلمين وكانوا بضعة عشر رجلا ، ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين :
— مات فلان وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتها .
فأنزل الله تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون (١) » .

كان المسلمون في المدينة يأتون البساتين يأكلون ويشربون ، وكانت الخمر تلعب برءوس بعضهم فيأتي من الأقوال أو الأفعال ما ينكرون . وكان أناس منهم يلعبون الميسر فكانوا يلعبون الجزور ويقطعونه عشرة أجزاء ثم يلعبون عليها فمن خسر دفع ثمن الذبيحة بينا توزع اللحوم على فقراء المدينة ، وكان الذين يلعبون لا يجدون في الميسر من بأس ما دام النفع يعود على الفقراء والمساكين وابن السبيل .

وجاء رجال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسألونه عن الخمر والميسر فأ نزل الله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » (١) . فلما قرئت على عمر قال :

— اللهم بين لنا من الخمر بيانا شافيا .

وكان مسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - منارة العلم في المدينة ، فكان الصحابة يجلسون إليه عليه السلام ويلقون إليه أسماهم فإذا بالحكمة تنسكب في أعماقهم ، وإذا بالرعاة البسطاء والتجار الذين كانت كل معارفهم ما يتجرون فيه من طيب ويز وأقوات وبعض معلومات عن البلاد التي جابوها

يُتْلَقُونَ مِنَ الْعِلْمِ مَا يُؤْهِلُهُمْ لِأَنْ يَصْبَحُوا رِعَاةَ أُمَّمٍ وَخَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ .

وَذَاتَ يَوْمٍ جَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرَ النَّاسَ وَوَصَفَ الْقِيَامَةَ وَلَمْ يَزِدْهُمْ عَلَى التَّخْوِيفِ فَرَّقَ النَّاسُ وَبَكَوْا ، فَاجْتَمَعَ أَنَسُ بْنُ الصَّحَابَةِ فِي بَيْتِ عَثْمَانَ بْنِ مِظْعُونٍ الْجُمَحِيِّ ، فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَعَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حَذِيفَةَ وَالْمُقَدِّدُ بْنُ الْأَسْوَدِ وَسُلَيْمَانُ الْفَارَسِيُّ . وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَصُومُوا النَّهَارَ وَيَقُومُوا اللَّيْلَ وَلَا يَنَامُوا عَلَى الْفُرَشِ . وَلَا يَأْكُلُوا اللَّحْمَ وَلَا الْوَدَكَ وَيَتَرَهَّبُوا ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَجَمَعَهُمْ فَقَالَ :

- أَلَمْ أَتِبْكُمْ أَنْتُمْ اتَّفَقْتُمْ عَلَى أَنْ تَصُومُوا النَّهَارَ وَتَقُومُوا اللَّيْلَ . وَلَا تَنَامُوا عَلَى الْفُرَشِ وَلَا تَأْكُلُوا اللَّحْمَ ؟
- بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا أَرَدْنَا إِلَّا الْخَيْرَ .

فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

- إِنِّي لَمْ أُؤْمَرْ بِذَلِكَ ، إِنْ لَأَنْفُسَكُمْ عَلَيْكُمْ حَقًّا فَصُومُوا . وَأَفْطَرُوا وَقُومُوا وَنَامُوا ، فَإِنِّي أَقُومُ وَأَنَامُ وَأَصُومُ وَأَفْطِرُ وَأَكُلُ اللَّحْمَ وَالِدَسْمَ ، وَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي .
ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ وَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

- مَا بَالُ أَقْوَامٍ حَرَمُوا التَّنَاسُءَ وَالطَّعَامَ وَالطَّيِّبَ وَالنَّوْمَ وَشَهَوَاتِ الدُّنْيَا ، أَمَا إِنِّي لَسْتُ أَمُرُّكُمْ أَنْ تَكُونُوا قَسِيْسِينَ ، وَلَا رَهْبَانًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي دِينِي تَرْكُ اللَّحْمِ وَالتَّنَاسُءِ وَلَا اتِّخَاذُ الصَّوَامِ . وَإِنْ سِيَاحَةً أَمَّتِي الصَّوْمَ وَرَهْبَانِيَّتَهَا الْجِهَادَ . وَاعْبَلُوا

الله ولا تشركوا به شيئا وحجوا واعتمرُوا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان ، فإنما هلك من كان قبلكم بالتشديد ، شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم في الديارات والصوامع . فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون (١) » .

وكانوا قد حلفوا أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء فقالوا :

— يا رسول الله كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها ؟

فأنزل الله تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون (٢) » .

وراح المسلمون يشربون الخمر ويقولون :

— ما حرم علينا إنما قال : « فيها إثم كبير » .

وغدوا يقولون لرسول الله — صلى الله عليه وسلم :

— يا رسول الله دعنا نتضع بها كما قال الله تعالى .

فسكت عنهم وظلوا يشربون حتى كان يوما من الأيام صلى

رجل من المهاجرين أم أصحابه في المغرب خلط في قراءته ،

فأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون (١) » .
— حرمت الخمر .

فقالوا :

— يا رسول الله إنا لا نشربها قرب الصلاة .
فسكت عنهم وكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة ينادى :

— لا يقربن الصلاة سكران .
كان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفق ،
وكان عمر بن الخطاب يقول :

— اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا .
وأتى سعد بن أبي وقاص على نفر من المهاجرين فقالوا :
— تعال نطعمك ونسقيك خمرا .

فأتاهم في بستان وإذا رأس جزور مشويا عندهم وذن من
خمر ، فأكل وشرب معهم وذكر الأنصار والمهاجرين فقال :
— المهاجرون خير من الأنصار .

أخذ رجل لحي الرأس فجذع أنفه بذلك ، فأتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فأخبره .

وشربت قبيلتان من قبائل الأنصار ، فلما ثمل القوم عبث
بعضهم ببعض فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه
ولحيته فيقول :

— صنع بي هذا أخى فلان ، والله لو كان بي رءوفا رحيمًا
ما صنع هذا بي .

وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن فأذا بالضغائن تقع فى
قلوبهم .

وكان لعلى بن أبى طالب ناقة من نصيبه من المغنم يوم بدر ،
وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أعطاه ناقة من الخمس ،
ولما أراد أن يبتنى بفاطمة بنت رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
وأعد رجلاً صواغاً من بنى قينقاع أن يرتحل معه فيأتيان بأذخر ،
أراد أن يبيعه من الصواغين فيستعين به فى وليمة عرسه .

كانت الناقتان مناختان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار ،
وكان على يجمع لناقتيه من الأقتاب والغرائر والحيال ، وكان
عمه حمزة بن عبد المطلب فى بيت الأنصارى يشرب عنده وقينة
تقول فى غنائها :

ألا يا حمز للشرف والنواء وهن معقلات بالفناء
زج السكين فى اللبّات منها

فضرجهن حمزة بالدماء .

فأطعن من شرائحها كبايا ملهوجة على رهج الصلاء
فأنت أبا عمارة المرجى لكشف الضر عنا والبلاء

فوثب إلى السيف فأجب أصنام ناقتى على بن أبى طالب
وبقر خواصرهما وأخذ من أكبادهما ، فلما جاء على ورأى
ما وقع لناقتيه لم يملك عينيه حين رأى ذلك المنظر ، قال :
— من فعل هذا ؟

— فعله حمزة وهو في البيت في شرب من الأنصار .
فانطلق على حتى أدخل على النبي — صلى الله عليه وسلم — وعنده
زيد بن حارثة ، فعرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الذي
لقي فقال :

— مالك ؟

— يا رسول الله ما رأيت كالיום . عدا حمزة على ناقي
وجب أسنمتها وبقر خواصرهما . ها هو ذا في بيت معه شرب
شرب .

فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بردائه ، ثم انطلق يمشي
فاتبع على أثره زيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه ،
فاستأذن فأذن له فاذا هم شرب ، فطفق رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
يلوم حمزة فيما فعل ، فاذا حمزة ثمل محمرة عيناه . فنظر
حمزة إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، ثم صعد النظر فنظر
إلى وجهه ثم قال :

— وهل أنتم إلا عبيد أبي ؟

فعرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه ثمل ، فنكص
على عقبيه القهقري فخرج وخرج على زيد . وأنزل الله تعالى :
« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس
من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان
أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم
عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم متبهون (١) » ، فقال رسول الله

— صلى الله عليه وسلم :

— حرمت الخمر .

ودُعي عمر فقرئت عليه . فلما بلغ « فهل أنتم متتهون »
قال عمر :

— انتهينا .

وكان أنس بن مالك ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت
أبي طلحة ، كان يسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب وسهيل
ابن البيضاء ونفرا من أصحابه حتى كان الشراب يأخذ بهم ،
فاذا مناد ينادى ، قال أبو طلحة :

— اخرج فانظر .

فخرج أنس فاذا مناد ينادى :

— ألا إن الخمر قد حرمت .

فقالوا :

— يا أنس ، أكف ما بقي في إنائك .

فما قالوا حتى ننظر ونسأل ، بل أطاع المسلمون وغدوا
يهرقون ما عندهم من الخمر .

وتوضأ بعض الرجال واغتسل بعضهم وطيبوا ثم خرجوا
إلى المسجد ، فاذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقرأ :
« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس
من عمل الشيطان فاجتنبوه . . . » ثم قال :

— من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها .

فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم :

— عندى راوية .

ويقول الآخر :

— عندى زق .

أو ما شاء الله أن يكون عنده ، فقال — صلى الله عليه وسلم :
— اجمعوا ببيع كذا وكذا ثم آذنوني .

ففعّلوا ثم آذنوه ، فقام وقام معه عبد الله بن عمر ومشى عن
يمينه وهو متكئ عليه ، فلحقهما أبو بكر فأخبره رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — فجعله عن شماله وجعل أبا بكر في مكانه ،
ثم لحقهم عمر بن الخطاب فأخبر رسول الله عبد الله بن عمر وجعل
عمر عن يساره ، فمشى بينهما حتى بلغوا المربد ، فاذا بزقاق
على المربد فيها خمر فقال للناس :
— أتعرفون هذا ؟

— نعم يا رسول الله ، هذه الخمر .

— صدقتم ، فإن الله لعن الخمر وعاصرها ومعتصرها وشاربها
وساقها وحاملها والمحمولة إليه وبائعها ومشتريها .

فدعا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة فقال :

— اشحبوها .

— ففعّلوا ، ثم أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرق
بها الزقاق فقال الناس :

— في هذه الزقاق منفعة .

— أجل . ولكنى إنما أفعل ذلك غضبا لله عز وجل لما فيها

من سخطه .

فقال عمر :

— أنا أكفيك يا رسول الله .

— لا .

وجرت الخمر في سكك المدينة أنهارا .

وقال أناس :

— يا رسول الله أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها ؟

فأنزل الله تعالى : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات

جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا

وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين (١) » .

كان لغطفان إله على مشارف الشام يدعى الأقيصر فكانوا
يحجون إليه كما كانوا يحجون إلى البيت العتيق ، وكانوا يفخرون
بشاعرهم النابغة الذبياني فقد كانت تضرب له قبة في سوق عكاظ
. وكان الشعراء من كل القبائل يخفون إليها ليحتكموا إليه
في أشعارهم .

وكان حساد النابغة من غطفان يقولون إن الرباح بن ميادة
أشعر غطفان وهو خير لقومه من النابغة ، فهو لا يمدح غير قريش
. وقيس بننا يهذى النابغة باليمن ويطوف على ملوك الحيرة يعيش
بشعره على موائد المناذرة .

وكانت غطفان سعيدة بتحالفها مع قريش ، فقريش سادات
البيت الحرام الذي يأمن فيه الطير ولأشرافها الكلمة المسموعة
في العرب ، وهم ذوو قوة ومنعة وأصحاب تجارة ممدودة وجاه
وسلطان ونجدة .

وكانت غطفان مطمئنة بحلفها لا تخشى غدر جيرانها من
القبائل ، وكانت في نفس الوقت على صلة وثيقة بالأوس
والخزرج فمساكنها كانت قريبة من خيبر ، فكان الغطفانيون
يزورون يثرب وينزلون بأسواقها فتوطدت صلات طيبة بينهم
. وبين الثريين من أوس وخزرج ويهود .

وكان لغطفان أثر في الحروب التي كانت تنشب بين الحنين والحنين بين الأوس والخزرج ، فقد بعث رجل من غطفان من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان إلى يثرب بفارس ومحلة مع رجل من غطفان وقال :

— ادفعهما إلى أعز أهل يثرب .

فجاء الرجل بهما حتى ورد سوق قينقاع فقال ما أمر به ، فوثب إليه رجل من غطفان كان جاراً للمالك بن العجلان الخزرجي ، يقال له مالك بن الثعلبي فقال :

— مالك بن العجلان أعز أهل يثرب .

وقام رجل آخر فقال :

— بل أحيحة بن الحلاج أعز أهل يثرب .

وكثر الكلام فقبل الرسول الغطفاني قول الثعلبي الذي كان جاراً للمالك بن العجلان ، ودفعهما إلى مالك فقال كعب الثعلبي :

— ألم أقل لكم إن حليقي أعزكم وأفضلكم !

فغضب رجل من بني عمرو بن عوف يقال له سُمَيْسِر فرصد الثعلبي حتى قتله ، فشبت بين الأوس والخزرج حروب سُمَيْسِر . وظلت علاقة غطفان بيثرب طيبة حتى هاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهجر الأنصار عبادة الأوثان فتغيرت قلوب الغطفانيين وأصبح هواهم مع قريش ، فقد كان في جوف الكعبة صنم لإلههم الأقيصر وكانت قريش حاملة لواء الدفاع عن الأصنام .

ووقع الصدام بين قريش ومحمد عليه السلام وصحبه عند
مساء بدر وانتصر المسلمون وقتل صناديد قريش . وقال أعداء
الإسلام لما سمعوا بمقتل أشراف حماة الحرم : لبطن الأرض
خبر من وجهها ، وكانت غطفان ممن ساءها هزيمة حلفائها
فأرادت أن تدهم المدينة بالهجوم لتقوم بحق الحلف انتقاما
لأصحاب القليب . ولكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أفسد
تدبير القوم فقد فاجأهم بالهجوم عقب بدر ، فأغلقت عليهم منازلهم
ولم يحركوا ساكنا ، ونزل محمد - صلى الله عليه وسلم - والذين
معه مياهم ثلاثة أيام ثم عاد إلى المدينة دون أن يلقي كيدا .

وكان الغطفانيون يستشعرون مهانة لأنهم لم يقوموا بحق
الحلف الذي كان بينهم وبين قريش ، فكانت فكرة الهجوم على
المدينة هجوما خاطفا تداعب أخيلتهم حتى قام رجل منهم يدعى
دعشور بن الحرث الغطفاني من بني محارب يجمع جمعا من
ثعلبة ومحارب ليصيبوا من أطراف المدينة حتى يحفظوا ماء
وجوههم أمام حلفائهم سادات الحرم الذين قتل أشرافهم عند
بدر .

وبلغ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما يدبر دعشور ، فخرج
إليهم في أربعمائة وخمسين رجلا لاثنتي عشرة ليلة مضت من
شهر ربيع الأول ، واستخلف على المدينة عثمان بن عفان .

وأصاب أصحاب رسول الله عليه السلام رجلا منهم يقال
له حباب من بني ثعلبة ، فأدخل على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فلما نظر إليه هابه وأحس نفسه تذهب شعاعا ، فما

إن سألته عليه السلام عن دعنور ومن معه حتى راح الرجل
يقص كل شيء ، ثم قال له :

- لن يلاقوك ولو سمعوا بمسيرك إليهم هربوا في رعوس
الجبال وأنا سائر معك .

وراح حباب يرصد المسلمين ، إنهم رهبان في الليل فرسان
بالنهار ، لإخوان متحابون . وانبلجت الدهشة في نفسه فقد كان
على علم بالعداوة التي كانت بين الأوس والخزرج ، فمن ذا الذي
طهر قلوب أقوام كانت تنبض بالضغينة والحقد ؟ ومن ذا الذي
صهرهم في بوتقة واحدة فأصبحوا أنصارا لثيهم لا فرق بين
خزرجي وأوسي ؟ ! وغدا حباب يصغى إلى ما يتلون من قرآن
فاذا به يسمع : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض
جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز
حكيم (١) » . فانزاحت الدهشة عنه فما كان بشربقادر على أن
يؤلف بين تلكم القلوب المتنافرة مهما كان على خلق عظيم ،
إنها قدرة إله عزيز حكيم التي ألفت بين أعداء الأوس فأصبحوا
بنعمة الله إخوانا ، وألقى التصديق في عين ذات حباب فأسلم
وضمه - صلى الله عليه وسلم - إلى بلال .

كان بلال لا يفارق رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، فاذا
ما حان أوان الصلاة كان يؤذن للمسلمين فكانوا يهرعون
ليصطفوا خلف النبي عليه السلام ، وكان لا يتناول طعاما إلا
من طعام النبي وكان غالبا بعض تمرات أو قعب لبن ، فأصبح

حجاب رفيق بلال وغدا يتהלل بالفرح أن صار في صحبة نبي
الإسلام عليه السلام ينهل من فيض علمه ويسعد بأنوار اليقين
التي تأتلق في صدره .

وأخذ حجاب بالمسلمين طريقا وهبط بهم على غطفان فسمعوا
بمسير رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فهربوا في رءوس الجبال ،
وانطلق المسلمون حتى نزلوا ماء يقال له ذو أمر فعسكروا به :
وسرعان ما هطلت الأمطار غزيرة بليتياب رسول الله — صلى الله
عليه وسلم — وثياب أصحابه ، فزعر رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — ثوبيه ونشرهما على شجرة ليحفها وعلق بها سيفه واضطجع
تحتها :

واشتغل المسلمون في شئونهم وكان دعثور يرصدهم من
بعيد ، فلما وقع بصره على رسول الله عليه السلام ووجده قد
انفرد قال :

— قتلني الله إن لم أقتل محمدا .

وانسل دعثور ومعه سيفه حتى قام على رأس رسول الله —
صلى الله عليه وسلم — ثم قال :

— من يمنعك مني اليوم ؟

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — في ثبات دون أن
تختلج عيناه :

— الله .

وملأ دعثور رعبا من ذلك الثبات العجيب الذي قابل به
رسول الله عليه السلام تهديده ، لم يرتجف ولم يرتد فزعا ، بل

اضطرب السيف في يد من أقسم أن يقتل محمدا وسقط منها:
على الأرض من شدة الخوف ، فأخذ السيف رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - وقال له :
— من يمنعك مني ؟

فقال وهو يرتجف وقد اقشعر جلده :
— لا أحد .

ثم جمع شتات نفسه وقال :
— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .
فأعطاه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سيفه فانقلب
إلى أهله وغدا يدعو قومه إلى الإسلام هـ

وضدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قال : نصرت
بالرعب . وأنزل الله تعالى على عبده : « يا أيها الذين آمنوا
اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن ييسطوا إليكم أيديهم
فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون (١) » .

دخل عبد الله بن مسعود كاتم سر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على رسول الله وقد نام على حصير وقد أثر في جنبه ، فقال :
— يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه .

فقال عليه السلام في بساطة :

— ما لي وللدنيا ؟ ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

ومر الوقت واستبد برسول الله — صلى الله عليه وسلم — الجوع فخرج من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر فساءلها عن خروجهما ، فقالا :

— أخرجنا الجوع .

— وما أخرجني إلا الجوع .

فذهبوا إلى أبي الهيثم فامرهم بشعير وقام إلى شاة فذبحها واستعذب لهم ماء معلقا عنده في نخلة ، ثم أتوا بالطعام فاكلوا وشربوا من ذلك الماء . فقال عليه الصلاة والسلام :

— لنسألن عن نعيم هذا اليوم ؟

كان — صلى الله عليه وسلم — مرهف الحس زاهدا في الدنيا ، فيها كان يعرف الكثر ، فاذا ما وصلت إلى يده صفراء أو بيضاء

تصدق بها ، وكان له من الغنائم الخمس والخمس مردود على فقراء المسلمين والمساكين ، وما كان يحتفظ لنفسه بناقصة أو شاة لينجها لأهل بيته بل كان عليه السلام وأهله يعيشون على الأسودين : التمر والماء .

وكان قلوة لأصحابه ، فبينما كان جالسا مع رجال من المهاجرين والأنصار ، إذ طلع عليهم مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه - صلى الله عليه وسلم - بكى ، فمصعب كان في نعمة قبل الإسلام لا يرتدى إلا أفخر الثياب ، وكانت أمه تغمره بعطفها وحنانها وما كانت تبخل عليه بمال ، ثم التفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

- كيف بكم إذا غدا أحدكم في حلة وراح في أخرى . ووضعت بين يديه صفحة ورفعت أخرى وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟

- يا رسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نكفي المونة ونفترغ للعبادة .

- بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان القرآن ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إنه أنزل حيث أنزل ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن ، ومنه آى قد وقع تأويلهن عند نزولهن ، ومنه آى يقع تأويلهن بعد نزولهن ، ومنه آى تأويلهن عند الساعة ، وكان الناس يأتون رسول الله عليه السلام يسألونه بعض ما غمض عليهم من تأويل بعض الآيات ، فلما أنزل الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم

أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً
فنبئكم بما كنتم تعملون (١) : أتى أبو ثعلبة الخخشي إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال :

— كيف نصنع في هذه الآية ؟

— أية آية ؟

— قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم
من ضلّ إذا اهتديتم » .

— بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت
شُحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه ،
فعليك بخاصة نفسك ودع العوام فان من ورائكم أياما الصابر فيهن
مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً
يعملون كعملكم .

— يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟

— بل أجر خمسين منكم .

وكان رسول الله — صلى الله عليه وسلم يحب — أن يسمع
القرآن ، قال لعبد الله بن مسعود :

— اقرأ علىّ .

— يا رسول الله اقرأ عليك وعليك أترل ؟

— نعم ، إني أحب أن أسمعه من غيري .

فقرأ ابن مسعود سورة النساء حتى أتى إلى هذه الآية :
« فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء

شهيدا (١) « ، فقال عليه السلام :

— حسبك الآن .

فاذا عيناه تذرفان .

وجاءت إلى داره عجوز فقال لها :

— من أنت ؟

فقال :

— جثامة المزنية .

— أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟

— بخير بأبي أنت وأمي .

فلما خرجت قالت عائشة :

— يا رسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الإقبال ؟

— إنها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الإيمان .

كان المثل الأعلى في الشجاعة ، ففي ذات ليلة هب أهل المدينة

على صوت أنكروه وانطلقوا إلى ناحية الصوت ، فاذا برسول الله —

صلى الله عليه وسلم — يتلقاهم راجعا على فرس عرى ، فقد كان

أول من أسرع قبل الصوت ويقول لهم في حنان الأب :

— لن تراعوا .

وكان القدوة الحسنة في الوفاء والمثل الكامل في الزهد والقناعة

والتواضع والعدل والمعروف وحسن الخلق . وكان يدعو ربه :

اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا . إنه يعيش لله وبالله وفي الله فاذا

أناته أمر يحبه قال :

- الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .
— وإذا أتاه أمر يكرهه قال :
— الحمد لله على كل حال .
— وإن قصد فعل شئ قال :
— اللهم خرى وأختر لى .
— وإن أراد سفرا قال :
— اللهم بك أصول وبك أجول .
— وإذا أراد نوما قال :
— اللهم باسمك وضعت جنبي وباسمك أرفعه .
— وإن استيقظ قال :
— الحمد لله الذى أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور .
— وإن لبس ثوبا جديدا قال :
— الحمد لله الذى رزقنى ما أتجمل به فى حياتى .
— وإن أكل قال :
— الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين .
— وإن شرب قال :
— الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته ولم يجعله ملحا
أجاجا بذنوبنا .
— وإذا انقلب من الليل فى فراشه قال :
— لا إله إلا الله الواحد القهار ، رب السماوات والأرض
وما بينهما العزيز الغفار .
— وإذا هب من نومه فى الليل قال :

- رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأتوم .
زكاه ربه ومدح حسن خلقه في قرآنه فأُنزل فيه : « وإنك
تعلی خلق عظیم (١) » فكاد أصحابه أن يفتنوا به فكانوا يقولون :
— ما شاء الله و شاء محمد .
ودخل الطفيل بن سَخْبَرَة أخو عائشة أم المؤمنين لأمها فنام ،
فرأى فيما يرى النائم كأنه أتى على نفر من اليهود فقال :
— من أنتم ؟
قالوا :
— نحن اليهود .
— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزيز ابن الله ؟
— وأنتم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله و شاء محمد ،
ثم مر بنفر من النصارى فقال :
— من أنتم ؟
— نحن النصارى :
— إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : المسيح ابن الله .
— وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله و شاء محمد :
فلما أصبح أخبر بها من أخبر ، ثم أتى النبي عليه السلام فأخبره
فقال :
— هل أخبرت بها أحدا ؟
— نعم .
فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أما بعد فإن طفيل رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم ،
وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنا كذا وكذا أن أنهاكم عنها ، فلا تقولوا
« ما شاء الله وشاء محمد » ولكن قولوا : « ما شاء الله وحده » .
وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يحدثه ثم قال :
— ما شاء الله وشئت .
فقال عليه السلام في غضب :
— أجعلني لله ندا ؟ ! قل : ما شاء الله وحده .

كانت مكة تغل بالحقد على محمد - صلى الله عليه وسلم - وصحبه ، فأبو سفيان بن حرب زعيم قريش وسيدها كان ينظر إلى الدنيا يوم أن بعث عليه السلام ، فقد كان يعلم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - صدوق لا يكذب وإنما كان يرى أن إيمانه بما جاء به ابن عبد الله فيه قضاء على أحلامه وأمانه ، فقد جاء أمرا لا يبقى معه شرف فخاصمه ولج في الخصام حمية وكراهية أن يذهب شرفه . فلما هاجر النبي عليه السلام إلى المدينة واستقر بها وألف بين قلوب الأوس والخزرج استمر حقد أبي سفيان على نبي الإسلام ، فالمدينة تقع على طريق قوافل قريش المنطلقة إلى الشام وتهدد طريق القوافل الصاعدة إلى العراق ، فلو تحرك محمد عليه السلام ليهاجم قوافل قريش انتقاما لإخراجه وأصحابه من ديارهم وعوضا عن أموالهم التي صودرت في مكة فسيهدد تجارة قريش مع الشام والعراق بالبوار مما يذهب عزها وسلطانها .

وكانت مخاوف أبي سفيان تغذي كراهيته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، والمهاجرين والأنصار ، فلما تحققت مخاوفه يوم أن خرج عليه السلام والمسلمون ليتعرضوا لعير قريش الآتية من الشام تيقن أن كيانه قريش مهدد بالزوال ما دام لمحمد عليه السلام كلمة مطاعة في المدينة ، وأن لن يكون أمان قبل القضاء قضاء مبرما

على الخطر الكامن على طرق الشمال .

وبلغ حقد أبي سفيان غايته لما جاءت أنباء بدر وحمل إليه الناعى خبر مقتل ابنه حنظلة وأسر ابنه عمرو ، فقد أصبح بينه وبين المسلمين ثأر ، إلى عار الهزيمة الذى جلل قريش جميعا وقطع الطريق إلى الشام ، فصار عليه وهو زعيم القوم أن يثأر لقتلى بدر وإن يغسل ما لحقهم من عار وأن يظهر طرق القوافل من الأعداء .

وكانت زوجته هند بنت عتبة قد عادت محمدا — صلى الله عليه وسلم — بمذ جهر بدعوته ، فهى مؤمنة أشد الإيمان بدين الآباء فكانت عداوتها لرسول الله عليه السلام فى سبيل عقيدتها ، ولم تخف أبدا كراهيتها لابن عبد الله وما يدعو إليه ولم تجامل ولم تحاول أن تنفى عواطفها ، فذات يوم أقبل أبو سفيان من الشام ومعه هند ومعاوية على حمار ، فلما دنوا من مكة لقيهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فقال أبو سفيان لمعاوية :

— انزل يركب محمد .

فقال هند فى إنكار :

— أينزل ابنى لهذا الصابى ؟

قال أبو سفيان :

— نعم .

وكان يحرك غضبها دخول أخيها أبي حذيفة فيما يدعو إليه ابن أبي كبشة ، وبلغ غضبها غايته لما قتل يوم بدر أبوها عتبة وأخوها الوليد وعمها شيبة ، وقد أبت أن تبكيهم أو تندبهم قبل أن تتأثر لهم من المسلمين .

وراحت هند تحرض زوجها أبا سفيان بن حرب على قتال محمد والذين معه : وكانت وقود حقه حتى جعلته يقسم أن لا يغتسل من جنابة قبل أن يثأر لقتلى بدر : فلما طال الزمن افتعل أبو سفيان غزوة السويق ليبر قسمه . ولكن ذلك لم يشف غليل هند فلن يهدأ لها بال ما دام حمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبي طالب بمشيان في الأرض .

ولم تستطع قريش أن تطوى صدورها على أحرزائها حتى يحين يوم الانتقام فبكت قتلاها أحر البكاء . وانطلق لسان هند بالشعر لتنفس عن لوعتها إلى حين :

هلكا كهلك رجاله	لله عينا من رأى
في النائبات وبأكيه	يارب بأك لي غدا
غداة تلك الداعية (١)	كم غادروا يوم القليب
إذا الكواكب خاويه	من كل غيث في السنين
فاليوم حق حذاريه	قد كنت أحذر ما أرى
يا ويسح أم معاويه	يارب قائلة غدا

وكان أبي بن خلف يجلس في الحرم لا هم له إلا تحريض القوم على قتال المسلمين ، فهو وإن كان قد فرط طلبا للنجاة إلا أنه قد سمع بما صنع بأخيه أمية بن خلف ، فعبد الرحمن بن عوف صديقه الذي ما كان يفارقه قبل أن يفرق ابن عبد الله بينهما لم يستطع أن ينقذه من سيوف المسلمين ، فبلال بن رباح صاح صيحته فاذا بأخيه وابن أخيه على قد صارا في الغابرين .

وراح أن يتذكر تلك الأيام التي كانوا يعذبون فيها بلالا
برمضاء مكة : إنه أوشك على الموت مرات ، فإليتهم قضوا عليه
قلو كان قد مات لما مات أمية بن خلف وابنه علي ، ولما جلس هو
في الحجر يكتب بئارها !

وكان صفوان بن أمية بن خلف أكثر المشركين حقدا على
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فان كان أبو جهل بن هشام
قد أخزاه الله يوم بدر فان صفوان قد نهض ليحمل لواء الكراهية
والبغضاء لنبي الإسلام - صلى الله عليه وسلم - وللأنصار
والمهاجرين .

كان أبو فكيهة يسار مولى صفوان قد أسلم ، وكان رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - إذا جلس في الحرم فجلس إليه المستضعفون
من أصحابه ، خباب وعمار وأبو فكيهة وصهيب . هزئت بهم
قريش وكان صفوان يقول :

- هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا
بالهدى والحق ! لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء وما
خصهم الله به دوننا . كان صفوان من المستهزئين وقد غالى في
سخريته وتهكمه لما أنزل الله في المستضعفين : « ولا تطرد الذين
يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم
من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من
الظالمين . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا هؤلاء من الله عليهم
من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين . وإذا جاءك الذين يؤمنون
بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل

منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم (١) .
إنه كان يتهكم بمحمد عليه السلام وبالمستضعفين ، ولكنه
كان وهو جالس في ظل الكعبة يصغى إلى كعب بن الأشرف وهو
ينثث سمومه في صدره يتحرق شوقا إلى قتال من قتلوا أباه وأخاه
وأذلوه .

إنه بعث عمير بن وهب بعد مصاب أهل بدر من قريش
ببشير ليقتل محمدا ، وغدا صفوان يقول لقريش :

— أبشروا بوقعة تأتاكم الآن في أيام تنسيكم وبيعة بدر !
ورجع عمير بن وهب إلى مكة بعد أن أسلم ، وأخزى الله
صفوان فان الذاهب لقتل رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
وإطفاء نور الله قد عاد إلى مكة يدعو أهلها إلى الله وإلى رسول الله
وإلى الإسلام .

وراح صفوان يحرض الناس على عداوة رسول الله عليه السلام ،
حتى جاء أبا عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي ، إنه شاعر
وللشعراء مكانتهم في إثارة العداوات وإشعال نار الخصومات ،
وغدا يغريه بعداوة نبي الإسلام .

كان أبو عزة قد وقع أسيرا في بدر فاعتقه رسول الله — صلى
الله عليه وسلم — دون فداء لما قال له : إن لي خمس بنات ليس لهن
شيء ، فتصدق بي عليهن يا محمد ، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه
أحدا فقال أبو عزة :

من مبلّغ عني الرسول محمدا بأثك حق والمليك حميد

وأنت امرؤ تدعو إلى الحق والهدى عليك من الله العظيم شهيد
وأنت امرؤ بوئت فينا مباءة لها درجات سهلة وصعود
فأنك من حاربه لمحارب شتى ومن ماله لسعيد
ولكن إذا ذكّرت بدرا وأهله تأوب ما في حسرة وقوعود
وظل صفوان يحاول أن يوغر صدر أبي عزة على النبي صلى
الله عليه وسلم — وأبو عزة يقول :

— إني قد أعطيت محمدا موثقا ألا أقاتله ولا أكثر عليه أبدا ،
وقد من على ولم يمن على غيري حتى قتله أو أخذ منه الفداء .
فضمن له صفوان أن يجعل بناته مع بناته إن قتل وإن عاش
أعطاه ما لا كثيرا لا يأكله عياله .

فخرج أبو عزة يدعو العرب ويحشرها .

وجاءت أم الفضل لتطوف بالحرم فمد كعب بن الأشرف
عينيه إليها ، إنها زوجة العباس عم النبي وهي أول امرأة آمنت به
بعد زوجه خديجة ، فان تشبب بها وهو شاعر يسير الركبان بشعره
فسيجرح ذلك كبرياء المسلمين ويؤذى محمدا ، فاستراح للفكرة
فلم يعد لكعب بن الأشرف هم إلا أن يقضى على نبي الإسلام
عليه السلام . فلو قتل لامت دعوته التي أصبحت تقض مضاجع
قريش والمشركين والحاسدين واليهود .

خاف القرشيون طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام فرأوا
أن خير ما يفعلون أن يسلكوا طريق العراق ، فاستأجروا فرات
بن حيان رجلا من بني بكر بن وائل يدلهم في ذلك على الطريق .
وتجمعت عير قريش في الحرم تحمل فضة كثيرة وهي عظم
تجارهم . وأقبل أبو سفيان بن حرب تحف به أشياخ قريش
وسادات بني أمية والتجار الخارجون معه فطاقوا بالبيت سبعة ثم
أذن أبو سفيان بالرخيل .

وانطلقت العير بعد أن دعا القوم آلتهم لتحصى الرجال
والأموال من أعدادهم ، وما إن غابت القافلة في الأفق البعيد حتى
خفت القلوب رهبة ونزل بالنفوس قلق ، فقد شغل الأذهان
ما كان بين رجالهم وبين المسلمين يوم بدر ، فابن عبد الله قد خرج
أصحابه في طلب القافلة التي كانت في طريق عودتها من الشام ،
ولولا حرص أبي سفيان لما أفلتت من قبضة المسلمين .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعلم أن قوة قريش في تجارتها
وأنه إذا هدد طريق قوافلها قطع الشريان الذي يمدّها بالحياة والقوة
فيجعلها تترنح وتخر مستسلمة عند أقدام من أكرهوا على الخروج
من ديارهم ومن صادرت قريش أموالهم ، فكان يرصد العيون
ليعرف أنباء العير المنطلقة إلى الشمال لبروعها بغاراته التماسا للغنيمة

وتحطيا لروح أعدائه المعنوية بتأكيد سيطرته على الطريق .
ونزلت قافلة قريش على القردة ، ماء من مياه نجد التماس
للراحة ، ونحر الرجال الخزور وأوقدوا النيران وتأهبوا ليمضوا
أمسية جميلة في ضوء القمر . وإذا بصوت النذير يعكر عليهم
صفوهم ويصبح :

- الفرع .. الفرع .

فهب أبو سفيان ومن معه مرعوبين وأحسوا أن المسلمين قد
أغاروا عليهم فانطلقوا إلى رواحلهم يمتطونها وسرعان ما ولوا
هاربين وقد شغل كل منهم بنفسه . ففسوا التافلة وما فيها من فضة
كثيرة .

كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد بعث زيد بن حارثة
فلقيهم على ذلك الماء ، فلما أحسوا به أطلقوا لروحلهم الأعنة .
فأعجزه الرجال وأصاب تلك العير وما فيها . ثم انقلب إلى المدينة
يحمل الغنيمة .

وقسمت الأموال وكان لله ورسوله الخمس ، فغدا نبي الإسلام
عليه السلام يوزع نصيب الله ونصيبه من الأنفال حتى إذا ما أتى على
كل ما آل إليه دخل داره لينام على الحصير .

كان زيد قد تزوج أم أيمن وكانت تكبره بسنين كثيرة . وكان
ثمره ذلك الزواج أسامة حب رسول الله - صلى الله عليه وسلم .
وغدا أسامة هو الصلة الطيبة بين الزوج الشاب وزوجه العجوز
فقد أحس زيد رغبة في الزواج من شابة . ولما كان ابن محمد
وأول من أسلم بعد علي بن أبي طالب وقد آخى رسول الله صلى الله

عليه وسلم بينه وبين عمه حمزة بعد أن هاجر إلى المدينة وآخى بين أصحابه ، فقد راح زيد يتطلع إلى الزواج من شريفة من أشرف قريش تليق بمقامه الجديد في ظل دين الله الذي يساوى بين الناس .

وكانت زينب بنت جحش قد هاجرت إلى الحبشة مع بنى جحش فرارا بدينها ، ففلقت دار بنى جحش هجرة ، فمر بها عتبة بن ربيعة والعباس بن عبد المطلب وأبو جهل بن هشام بن المغيرة وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، فنظر إليها عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يبابا ليس فيها ساكن ، فتذكر عبد الله بن جحش وأبا أحمد عبد بن جحش وكان رجلا ضرير البصر وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعرا وكانت عنده الفرعة بنت أبي سفيان بن حرب ، وكانت أمه أميمة بنت عبد المطلب عمة النبي . وتذكر الحركة الدائبة التي كانت تنبض بها الدار فتنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها يوماستدركها النكباء والحبوب (١)

أصبحت دار بنى جحش خلاء من أهلها .

فقال أبو جهل :

— وما تبكي عليه من قُلِّ بن قُلِّ (٢) . هذا عمل ابن أخي ، هذا فرق جماعتنا وشتت أمرنا .

وهاجرت زينب بنت جحش إلى المدينة مع من هاجر من بنى جحش عقب هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم . وراح

شاعرهم أبو أحمد يصف هجرتهم فيقول :

لما رأنتي أم أحمد غاديا بئمة من أخشى بغيب وأرهب
تقول : فاما كنت لا بد فاعلا فيم بنا البلدان ولتنا يثرب
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا وما يشاء الرحمن فالعبد يركب
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقيم إلى الله يوما وجهه لا يخيب
فكم قد تركنا من حميم مناصح وناصحة تبكي بدمع وتندب
تري أن وترا (١) نأيناعن بلادنا ونحن نرى أن الرغائب نطلب
دعوت بني غنم لجفن دماهم ولالحق لما لاح للناس تلح (٢)
أجابوا بحمد الله لما دعاهم إلى الحق داع والنجاح فأوعبوا (٣)
كفوجين : أما منهما فموفق على الحق مهدي . وفوج معذب
طغوا وتمنوا كذبه وأزلمهم عن الحق إبليس فخابوا وخسبوا
ورعنا إلى قول النبي محمد فطاب ولاة الحق منا وطيبوا
نمت بأرحام إليهم قريبة ولا قرب بالأرحام إذ لا تفرق
فأى ابن أخت بعدنا يا متكم وأية صهر بعد صهرى ترقب
ستعلم يوما أننا إذ ترايلوا (٤) وزيل أمر الناس للحق أصوب
وكانت زينب بيضاء سمينة من أتم نساء قريش وكانت معزة
بنسبها الرفيع ، فلما رآها زيد بن حارثة بعد قدومها إلى المدينة
جاء إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال :

— يا رسول الله اخطب على .

— من ؟

(٣) أومئوا : اجتمعوا وكثروا

(٤) تفرقوا

(١) الوتر طلب النار

(٢) تلح : طريق بين واضح

- زينب بنت جحش .
إنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب وهو عليه السلام يعلم
اعتزازها بنسبها ، فقال له :
- لا أراها تفعل : إنها أكرم من ذلك نسبا .
- يا رسول الله إذا كلمتها أنت وقلت زيد أكرم الناس على
فعلت .

- إنها امرأة لساء .
فذهب زيد إلى علي بن أبي طالب فحمّله على أن يكلم له النبي -
صلى الله عليه وسلم - فانطلق معه على إلى النبي - صلى الله عليه
وسلم - فكلّمه فقال :

- إني فاعل ذلك ومرسلك يا علي إلى أهلها لتكلمهم .
وذهب علي إلى عبد الله بن جحش يكلمه في أمر زواج زينب
من زيد فأريد وجه عبد الله ، إنه كان يترقب أن يأتي ابن خاله
محمد - صلى الله عليه وسلم - ليطلب منه زواج ابنة عمته زينب
بنت جحش وما خطر له على قلب أن يبعث بطلب زواج زينب
من مولاه ، فسخطت زينب وسخط أخوها عبد الله ، وعاد علي
كرم الله وجهه إلى النبي عليه السلام فأخبره بكرامتها وكراهة
أخيها لذلك .

وجاء عليه السلام إليها ليخطبها لمولاه فقالت :

- لست بنا كحته .

قال عليه الصلاة والسلام :

- بل فانكحيه .

- يا رسول الله أوامر نفسي فاني خير منه حسبا .
فأنزل الله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله
ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله
ورسوله فقد ضلّ ضلّالا مبينا (١) » .
فقال زَيْنَب :

- رضيت .

وساق زيد إلى بني جحش عشرة دنانير وستين درهما ودرعا
وخمارا وملحفة وإزارا وخمسين مدا من الطعام وعشرة أمداد من
التمر أعطاه ذلك كله رسول الله ، وبني زيد بن جارثة مولى
رسول الله عليه السلام بزَيْنَب بنت جحش سليمة أشرف بيت في
قريش من كانت تعزّ بنسبها ، لتقرير حقيقة المساواة بين البشر
وأن ليس لحر على عبد من فضل إلا بالتقوى .

كان كعب بن الأشرف رجلاً من طي ثم أحد بني نيهان ، وكانت أمه من بني النضير ، وقد ناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداء منذ هاجر إلى المدينة . فلما وقعت الحرب بين المسلمين وقريش عند ماء بدر وأيد الله المسلمين بنصره بدت العداوة على لسانه ، وقال حين بلغه مقتل سادات قريش :

— ويلكم أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الرجال وهؤلاء أشرف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير لنا من ظهرها .

فلما يقن الخبر خرج حتى قدم مكة فزل على المطلب بن أبي وداعة بن ضبيرة السهمي وعنده عاتكة بنت أسيد بن أبي العيص ابن أمية بن عبد شمس فأنزلته وأكرمه ، وجعل يحرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم وينشد الأشعار ويبكى على أصحاب القلب الذين أصيبوا بيد من قريش ، فقال :

طحنت رحي بدر لمهلك أهله ولمثل بدر تستهل وتدمع
قتلت سراة الناس حول حياضهم

لا تبعدوا إن الملوك تُصرع

كم قد أصيب به من ايض ماجد

ذى بهجة ياؤى إليه الضمير

طلق اليمين إذا الكواكب أخلفت
ويقول أقوام أسر بسخطهم
صدقوا فليت الأرض ساعة قتلوا
صار الذي أثر الحديث بطعنة
تبث أن بني المغيرة كلهم
وابنا ربيعة عنده ومنبته
تبث أن الحارث بن هشامهم
فرد عليه حسان بن ثابت ، وأجابت كعبا ميمونة بنت عبد الله
فأجابها كعب بن الأشرف :
ألا فازجروا منكم سفيها لتسلموا
أنتبني أن كنت أبكي بعبرة
فاني لبائك ما بقيت وذاكرا
لعمري لقد كانت مريد معزل
فحق مريد أن تجد أنوفهم
وهبت نصبي من مريد لجلد
وعاد كعب بن الأشرف إلى المدينة ، يعلن في حماة ما قاله
في محمد عليه السلام في مكة وما أنشده في رثاء سادات قريش ،
واستمر في غيه فلم يكف بالهجاء بل شئب بأمر الفضل بنت الحارث
زوجة العباس وثاني امرأة أعلنت إسلامها بعد الطاهرة خديجة
أم المؤمنين . فقال :

(١) ربيع : يأخذ الربيع أي أنه كان رئيسا ، لأن الرئيس في الجاهلية كان يأخذ
ربيع النخيلة

أراحل أنت لم تحبل بمقبية وتارك أنت أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصرت من ذى القوارير والحناء والكثم
يرتج ما بين كعبيها ومرفقها إذا تأتت قياما ثم لم تقم
أشبه أم حكيم إذ تواصلنا والحبل منها متين غير منجلم (١)
إحدى بنى عامر من النواذ بها ولو تشاء شفت كعبا من السقم
فرع النساء وفرع القوم وندها أهل المحلة والإيفاء بالذمم
لم أدر شما بليل قبلها طلعت حتى تجلت لنا في ليلة الظلم
وآذى كعب بن الأشرف الله ورسوله فقال عليه السلام :

— من لى بابن الأشرف ؟

فقال له محمد بن مسلمة أخو بني عبد الأشهل :

— أنا لك به يا رسول الله ، أنا أقتله .

— فافعل إن قدرت على ذلك .

فرجع محمد بن مسلمة فمكث ثلاثا لا يأكل ولا يشرب إلا

ما يتعلق به نفسه : فذكر ذلك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم —
فدعاه فقال له :

— لم تركت الطعام والشراب ؟

— يا رسول الله : قلت لك قولاً لا أدرى هل أفين لك به .

أم لا .

— إنما عليك الجهد .

— يا رسول الله إنه لا بد لنا من أن نقول .

— قولوا ما بدا لكم فأنتم في حل من ذلك .

(١) منجلم : منقطع

فاجتمع في قتله محمد بن مسلمة وسلطان بن سلامة بن وقش
أحد بني عبد الأشهل وكان أخا كعب بن الأشرف من الرضاعة
وعباد بن بشر بن وقش والحارث بن أوس بن معاذ وأبو عيسى
ابن جبر ، فرأوا أن يقدموا إليه قيل أن يأتوه أبو نائلة سلطان
ابن سلامة ليستدرجه ، فهو أخوه من الرضاعة وهو يطمئن إليه .
فانطلق سلطان إلى حصن كعب وكانت الليلة مقمرة فهتف وكان
حديث عهد بعُرس ، فوثب في ملحفته فأخذته امرأته بناحيها وقالت :
— إنك امرؤ محارب وإن أصحاب الحرب لا يزلون في هذه الساعة .

— إنه أبو نائلة ، لو وجدني نائما ما أيقظني .

— والله إني لأعرف في صوته الشر .

— لو يُدعى الفتى لطمعة لأجاب .

فزل فتحدث مع سلطان ساعة وتناشدا شعرا وكان أبو نائلة
يقول الشعر ، ثم قال :

— ويحك يا ابن الأشرف ؟ إني قد جئتك لحاجة أريد ذكرها

لك ، فآتكم عني .

— أفعل .

— كان قدوم هذا الرجل علينا بلاء في بلاء ، عادتنا به العرب
ورمتنا عن قوس واحدة وقطعت عنا السبل حتى ضاع العيال
وجهدت الأنفس وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا .

— أنا ابن الأشرف . أما والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة

أن الأمر سيصير إلى ما أقول .

— إني قد أردت أن تبيعنا طعاما ونرهنك ونوثق لك

وتحسن في ذلك .

- أترهنوني أبناءكم ؟

- لقد أردت أن تفضحنا : إن معي أصحابا لي على مثل رأيي
وقد أردت أن آتيك بهم فتبيحهم وتحسن في ذلك ونرهنك من الحلقة
(السلاح) ما فيه وفاء .

وأراد سلكان أن لا ينكر السلاح إذا جاءوا بهاء ؛ قال :

- إن في الحلقة لوفاء .

فرجع سلكان إلى أصحابه فأخبرهم وأمرهم أن يأخذوا السلاح ،
ثم ينطلقوا فيجتمعوا معهم إلى بقيع الفرقد ثم وجههم فقال :
- انطلقوا على اسم الله . اللهم أعنتهم .

ثم رجع - صلى الله عليه وسلم - إلى بيته وأقبلوا حتى انتهوا
إلى حضن كعب ، فهتفوا به فزّل فتحدث معهم ساعة وتحدثوا
معه ثم قال سلكان :

- هل لك يا بن الأشرف أن نتمشى إلى شعب العجوز (١)
فتحدث به بقية ليلتنا هذه ؟

- إن شئتم .

فخرجوا يمشون فمشوا ساعة ، ثم إن أبا نائلة أدخل يده في
فود رأسه ثم شم يده فقال :

- ما رأيت كالليلة طيبا أعطر قط .

ثم مشى ساعة ثم عاد لمثلها حتى اطمان : ثم مشى ساعة ثم
عاد لمثلها فأخذ بفود رأسه ثم قال :

(١) شعب العجوز بظاهر المدينة

- اضربوا عدو الله .

فضربوه فاختلفت عليه أسيافهم فلم تغن عنهم شيئاً ، فتذكر محمد بن مسلمة مغولاً (١) في سيفه حين رأى أسيافهم لا تغني شيئاً فأخذه وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولهم حصن إلا وقد أوقدت عليه نار ، فوضعه ما بين سرته وعانته ثم تحامل عليه حتى بلغ عانته ، فوقع كعب بن الأشرف يخط في دمه . وأصاب بعض أسيافهم الحارث بن أوس بن معاذ فجرح في رأسه . فخرجوا حتى سلکوا على بنى أمية بن زيد ثم على بنى قريظة ثم على بعاث حتى ارتفعوا في حرة (٢) العريض (٣) وقد أبطأ عليهم صاحبهم الحارث بن أوس وقد أضعفه نزف الدم ، فوقفوا له ساعة ثم أتاهاهم يتبع آثارهم ، فاحتملوه فجاءوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم - آخر الليل وهو قائم يصلي .

وخرج إليهم عليه السلام فأخبروه بقتل عدو الله ، فراح يضمد جرح صاحبهم وهو يستشعر راحة فقد قضى المسلمون على رجل أحق يزهو بالخوض في أعراض نساء مؤمنات .

ورجع رسول الله عليه السلام إلى أهله ورجعوا إلى أهلهم ، فأصبحوا فإذا بأسواق اليهود ودورهم قد ارتجت لمقتل كعب بن الأشرف ولم يبق في المدينة يهودى إلا وهو يرتجف فرقا وبخاف على نفسه .

(١) المغول : البكين التي تكون في السوط

(٢) الحرة : أرض فيها حجارة سود

(٣) العريض : وادى المدينة

كان عبد الله بن أبي بن سلول رأسا في المدينة وكان من الخزرج وكان سيد الطائفتين في الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم ، فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقي في نفسه من الإسلام وأهله ، فلما كانت وقعة بدر وأظهر الله كلمته قال :

— هذا أمر قد توجه .

فأظهر الدخول في الإسلام ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونخلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد التفاف في المدينة ومن حولها من الأعراب ، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد لأنه لم يكن أحد يهاجر مكرها ، بل يهاجر ويترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله .

وكان القرآن الكريم ينزل ليبين حال المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر لكلا يغتر بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع لذلك فساد عريض ، فهم أخطر على المجتمع المؤمن الناشئ من الأعداء السافرين : فقال الله تعالى فيهم : « ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون .

وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون .
 ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وإذا قيل لهم آمنوا
 كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم
 السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا
 خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ
 بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة
 بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . مثلهم كمثل الذي
 استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم
 في ظلمات لا يبصرون . صم بكم عمى فهم لا يرجعون .
 أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم
 في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين .
 يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم
 عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على
 كل شيء قدير (١) .

كان المنافقون يظهرون غير ما يبتطنون وكانوا يلوذون
 باليهود ويقولون لهم : إنا معكم إنما نحن مستهزئون . وكان هناك
 رجال وأناس يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقول وبنظم
 الشعر وكان الشعر ينتشر في المدينة وفي قریش وفي القبائل انتشار
 الريع فكان ذلك يثير غضب المسلمين .

كان أبو عطفك من بني عمرو بن عوف وكان يهوديا قد بلغ
 عشرين ومائة وكان يصنفى إلى الحوار الدائر بين أحبار اليهود

حول محمد عليه السلام ، فريق منهم يقول إنه النبي الذي بشر به الأنبياء وأن عليهم أن يتبعوه وفريق ينكر أن يبعث الله رسولا من غير بني إسرائيل ويؤكد أن اتباع النبي العربي الذي يؤمن بعيسى وبجمل مريم الطاهر إنما هو إقرار منهم بأن آباءهم كانوا على ضلال لما أنكروا رسالة المسيح . وكان ذلك الحدل يثير أبا عفك ويحرك مكانن الخوف في نفسه على دين اليهود ، فراح يسب الإسلام ويحرض على رسول الله - صلى الله عليه وسلم ، ويقول الشعر وكان فاحش القول بذئ اللسان ، فقال سالم ابن عمير وهو أحد البكائن ومن شهد بدرنا :
- على نذر أن أقتل أبا عفك أو أموت دونه .

وانطلق سالم إلى الشيخ القائي الذي كانت عداوة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تسمى فيه مسرى الدم فقتله ، قلما ذاع نبا مقتل أبي عفك بين اليهود انخلعت قلوبهم رعبا وذهبت أنفسهم شعاعا وأغلقوا عليهم حصونهم ، بينما قامت العصماء بنت مروان زوج يزيد الخطمي وكانت امرأة من الأنصار تنشد الشعر وتعيب الإسلام وأهله وتؤنب الأنصار في اتباعهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

نافقت العصماء لما قتل أبو عفك فراحت تهجو رسول الله عليه السلام وتهاجم المسلمين والإسلام وهي تحسب أنها في منعة من أهلها فقد كان لها بنون خمسة رجال وكان بنو خطمة كثيرا عددهم وكانوا على الشرك ، وكان يستغنى بإسلامه فيهم من أسلم خشية بطش الكفار .

وكان عمر بن عبد الخطمي ضرير البصر وكان قد أسلم وحسن إسلامه ، وكانت ثورة الحق تحتاحه كلما سمع شعر العصماء الذي تعيب فيه الإسلام وأهله . وكان يزيد في حقها أنها خطمية من رهطه فعدت تراوده فكرة أن يقتلها ليمحو ذلك العار الذي بات يستشعره كلما قرعت أذنيه كلمات هجوها لنيه عليه السلام .

واستمرت العصماء بنت مروان في غيها ولجت في العداوة والخصام ، فثار الضرير الذي كان أول من أسلم من بني خطمة وكان إمام قومه وقارهم : فمشى إليها في جوف الليل وطعنها طعنة أزهدت روحها الخبيثة ولم يول الأدبار : بل قام في قومه يقول :

— يابني خطمة أنا قتلت بنت مروان .

فاستبشر المؤمنون وخاف المنافقون وغضب الكافرون ولكن لم يحركوا ساكنا لما وجدوا أن الذين كانوا يخفون إسلامهم من بني خطمة قد أعلنوه لما رأوا من عز الإسلام .

ومشى الضرير إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم : وأخبره أنه قتل العصماء ، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : لا ينتطح فيها عزان .

وسماه رسول الله عليه السلام البصر .

واستمرت الخصومات مشبوبة الأوار بين المسلمين واليهود فكان أهل الكتاب يقولون للمؤمنين :
— نحن أولى بالله منكم وأقدم منكم كتابا ونبينا قبل نبيكم .

فيقول المؤمنون :

— نحن أحق بالله ، آمنا بمحمد عليه الصلاة والسلام وآمنا بنبيكم وبما أنزل من كتاب ، فأنتم تعرفون نبينا ثم تركتموه وكفرتم به حسدا .

وكان اليهود يعجبون للحجج التي يسوقها الأوس والخزرج ، لأنهم كانوا قبل أن يقدم عليهم محمد عليه السلام لا يدرون ما الكتاب وما الإيمان ولا يعرفون عن رسل الله شيئا ، فإذا بهم بعد أن دخلوا في الإسلام قد تفقهوا في الدين وأوتوا العلم والحكمة والبيان في بضع سنين . وأصبحوا يجادلون الأجبار المتضيقين ويلزمونهم الحجة .

إن ما فعله محمد بن عبد الله في المدينة يثير الدهشة ، فقد ألف بين قلوب متنافرة وأزال الجهل الذي ران على بصائر العرب آلاف السنين . فاذا بالأجلاف الذين كانوا ينظرون إلى أهل الكتاب الأول في إجلال وتوقير يصيرون ورثة العلم الذي فاض على الأفتدة لما وصلت الحقيقة إلى أعماق النفوس .

كانت أول مرة سمعوا فيها بمحمد بن عبد الله يوم أن جاءهم النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط يسألانهم عن محمد ، فقالوا لهما : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل . سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه قد كان لهم حديث عجب . وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وسلوه عن الروح ما هي ؟ فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي وإن لم يفعل

فهو رجل متقول فاجتمعوا في أمره ما بدا لكم .
وأنزل الله تعالى سورة أصحاب الكهف فيها خبر الفتية
الذين ذهبوا في الدهر ، وخبر الرجل الطواف ذي القسرين ،
وأنزل في الروح : « قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم
إلا قليلا (١) » .

لقد قرئت عليهم سورة أصحاب الكهف وما أنزل في الرجل
الطواف والروح فانشرحت قلوب بعض اليهود للاسلام ، وقام
جدال شديد بين الذين قالوا بأنه نبي مرسل وبين الذين زعموا
أنه متقول على الله . وكان محور الجدال أنه لم يأت بنجر عن
الروح .

فلما قدم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — المدينة قالت أحبار
يهود :

— يا محمد أرايت قولك : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .
إيانا تريد أم قومك ؟
— كلا :

— فانك تتلو فيما جاءك : إنا قد أوتينا التوراة فيها بيان
كل شيء .

— إنها في علم الله قليل وعندكم في ذلك ما يكفينكم
لو أقمتوه .

فأنزل الله تعالى فيما سألوه عنه من ذلك : « ولو أن مافي
الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت

كلمات الله إن الله عزيز حكيم (١) .

وآمن نفر من يهود فاشتد الحوار بين المؤمنين من أهل الكتاب الأول والكافرين بمحمد وبما جاء به ، وراحت المدينة تنبض بالمناقشات الدائرة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أجيبار اليهود المكذبين ، فليجسأ أذن بلال لأول مرة من مسجد الرسول عليه السلام مهزغ إليه يهود وقالوا :

— يا محمد قد أبدعت شيئا لم نسمع به فيما مضى من الأمم .
فإن كنت تدعى النبوة فقد خالفت فيما أحدثت من هذا الأذان الأنبياء والرسل من قبلك ، فمن أين لك صياح كصياح البعير ،
فما أقبح من صوت ولا أسمع من كفر .

وأعرض عنهم رسول الله عليه السلام ، واستمر الأذان يجلجل خمس مرات في اليوم في أنحاء المدينة يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فزاد ذلك في حنقهم وقالوا مستهزئين إذا ما نادى منادى رسول الله عليه السلام إلى الصلاة :
— قوموا صلوا اركعوا .

فيقومون ليقبلوا المسلمين في صلاتهم وهم يضحكون ،
فانزل الله تعالى : « وإذا ناديتُم إلى الصلاة اتخذوها هزا ولعبا ذلك بأثمهم قوم لا يعقلون . قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون . قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت

أولئك شر مكانا وأضل عن سواء السبيل (١) .

وكانت وقعة بدر بين المسلمين وقريش ونصر الله دينه وقتل صناديد مكة وساداتها ، وعاد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة بالأحرى مقرنين فعاد الحدال بين يهود ، قال فريق منهم : إنه النبي الذي نجاه في التوراة وأتانا نظيم أنفسنا بعداوتة . وقال فريق آخر : ما كان الله ليعث رسولا من الأميين . كما قد كتب الله على نفسه عهدا ألا يعث رسلا إلا من بنى إسرائيل إلى بنى إسرائيل . لكأنما كانوا هم وحدهم من خلقه ومن عدامهم من خلق الشياطين !

ونشب الحوار بين الذين قالوا إنه النبي المنتظر ، قالت طائفة : إن النصر خليفه على الدوام وهذه علامة من علاماته وإنهم سيعلمون على الملأ إسلامهم . وقالت طائفة : إنهم سينتظرون وقعة ثانية بين محمد بن عبد الله وبين الكافرين فإذا ما انتصر عليهم تارة أخرى كان ذلك تأكيدا على أنه النبي الذي بشرت به الأنبياء ، من تحقق فوق جيوشه ألوية النصر المبين . وكان أشراف اليهود أكثر الناس عداوة لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وللمؤمنين ، فقد ناصبوه عليه السلام العداة منذ وطئت قدماء أرض يثرب ، فقد ضايقهم أنه آمن بالسيد المسيح وبالحمل الطاهر ، فكان ذلك الإيمان تسفيها لأحلام آبائهم الذين أصروا على إنكار رسالة السيد المسيح ، وقد رأوا في اتباعه إقرارا منهم بأن آبائهم كانوا في الجهالة يعمهون ، فراحوا

يحاولون أن يقنعوه عليه السلام بأن يتهود ليخرجوا من مأزق الاعتراف برسالة عيسى بن مريم .

ولم يصغ عليه السلام للاغراء الذي كانوا يقدمونه إليه في كل صورة : فلما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة وصرفت في رجب على رأس سبعة عشر شهرا من مقدمه عليه السلام ، أتى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رفاعه بن قيس وقدم بن عمرو وكعب بن الأشرف ورافع بن أبي رافع والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف والربيع بن الربيع بن أبي الحقيق وكنانة ابن الربيع بن أبي الحقيق فقالوا :

— يا محمد ما ولاك عن قبلك التي كنت عليها وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه ؟ ارجع إلى قبلك التي كنت عليها تتبعك ونصدقك .

كانوا يريدون فتنه عن دينه فأنزله الله تعالى فيهم : « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم (١) » .

وفجر انتصاره عليه السلام في بدر حقد أعدائه الذين أبوا

أن يؤمنوا برسالته ، فانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة يرثي قتلى بدر ثم عاد إلى المدينة يشبب بنساء المسلمين ، فكان قتله جزاء وفاقا على وقاحته . وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحاربوه فحاصروهم خمس عشرة ليلة حتى نزلوا على حكمته .

وظلّت المدينة تتحقق بالأحداث وبالحوار الدائر بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمؤمنين وبين أهل الكتاب الذين لجؤا في الخصام فأنزل الله تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولم مقامع من حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أسوار من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد (١) » .

لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القلب ورجع
فلثمهم إلى مكة ورجع أبو سفيان بن حرب بعيره ، مشى عبد الله
ابن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية والحارث
ابن هشام والأسود بن عبد المطلب وجبير بن مطعم وحويطب بن
عبد العزى في رجال من قريش ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم
وإخوانهم يوم بدر ، فكلموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له
في تلك العير من قريش تجارة فقالوا :

— يا معشر قريش ، إن محمدا قد وتركم وقتل خياركم
فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب
منا .

فقال أبو سفيان :

— وقد طابت أنفس قريش بذلك ؟

— نعم .

— فأتينا أول من أجاب إلى ذلك وبنو عبد مناف معي .

فلما أجمعوا على المسير قالوا :

— نسير في العرب فنستنصرهم فان عبدة مائة غير متخلفين

عنا . هم أوصل العرب لأرحامنا ومن اتبعنا من الأحابيش .

فأجمعوا على أن يعيشوا أربعة من قريش يسرون في العرب

يدعونهم إلى نصرهم ، فبعثوا عمرو بن العاص وهبيرة بن وهب بن الزبير وأبا غزة الحمصي ، فأبى أبو عزة أن يسير وقال :

— من على محمد يوم بدر وحلفت ألا أظاهر عليه عدوا أبدا .

فمضى إليه صفوان بن أمية فقال :

— اخرج .

فأبى وقال :

— عاهدت محمدا يوم بدر ألا أظاهر عليه عدوا أبدا وأنا أفي بما عاهدته عليه .

فظل صفوان به حتى خرج يسير في تهامة ويدعو بني كنانة ويقول :

إيه بنى عبدمناة الرزام (١) أنتم حماسة وأبوكم جمام
لا تسلموني لا يحل إسلام لا يعدوني نصركم بعد عام
وخرج مسافع بن عبد مناف بن وهب بن حذافة بن جمح
إلى بنى مالك بن كنانة يخبرهم ويدعوهم إلى حرب رسول الله
— صلى الله عليه وسلم ، فقال :

يا مال (٢) ، مال الحسب المقدّم

أنشد ذا القرنين وذا التلثم

(١) الرزام : الذين يشبهون في مكانهم وقت القتال .

(٢) يا مال : أراد يا مالك فحذف الكاف للتخفيف ، ولو التلثم : هو الذي له ذمام أي عهد .

من كان ذا رُحْمٍ ومن لم يرحم
الحلف وسط البلد المحرم

عند حطيم الكعبة المصطفية
وخرج النفر فألبوا العرب وجمعوا وبلغوا ثقيفا فخرجوا
للغزو ، فلما أجمعوا المسير وتألب من كان معهم من العرب
وحضروا ، واختلفت قريش في إخراج النساء معهم قال صفوان
ابن أمية :

— اخرجوا بالظعن (١) فأننا أول من فعل ، فانه أقمن أن
يحفظنكم ويذكرنكم قتلى بدر ، فان العهد حديث ونحن قوم
موتورون مستميتون لا نريد أن نرجع إلى ديارنا حتى نترك
ثأرنا أو نموت دونه .

فقال عكرمة بن أبي جهل :

— أنا أول من أجاب إلى ما دعوت إليه .

وقال عمرو بن العاص مثل ذلك ، فمشى في ذلك نوفل بن
معاوية الدبلي فقال :

— يا معشر قريش ، هذا ليس برأى أن تعرضوا حرمكم
لعسوكم ، ولا آمن أن تكون الدبيرة (٢) لهم فتفتضحوا في
نسائكم ،

فقال صفوان :

— لا كان غير هذا أبدا !

فجاء نوفل إلى أبي سفيان بن حرب فقال له تلك المقالة ،

(١) الظعن : جمع ظمينة وهي المرأة في الهودج . (٢) العائبة .

فصاحت هند بنت عتبة :

— إنك والله سلمت يوم بدر فرجعت إلى نسائك : نعم
تخرج فنشهد القتال فقد ردت القيان من الجحفة في سفرهم إلى
بدر ، فقتلت الأجمة يومئذ .

فقال أبو سفيان :

— لست أخالف قريشا ، أنا رجل منها ، ما فعلت فعلت .
ودعا جبير بن مطعم غلاما له حبشيا يقال له وحشى يقذف
بحرية له قذف الحبشة قلما يخطئ بها ، فقال له :
— اخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى
طعيمة بن عدى فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحدتها وجلدها وحديدتها وأحاييشها ومن
تابعها من بنى كنانة وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالنساء في
الهوداج التماس الحفيظة ألا يفروا . فخرج أبو سفيان بن حرب
وهو قائد الناس بامرأتين : هند بنت عتبة بن ربيعة وأميمة بنت
سعد بن وهب بن أشيم بن كنانة ، وخرج صفوان بن أمية بامرأتين :
برزة بنت مسعود الثقفي والبغوم بنت المغدل من كنانة ، وخرج
طلحة بن أبي طلحة بامرأته سلافة بنت سعد بن شهيد وهي
من الأوس وهي أم بنيه مسافع والحارث وكلاب والجللاس بن
طلحة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بامرأته أم حكيم بنت الحارث
ابن هشام ، وخرج الحارث بن هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد
ابن المغيرة ، وخرج عمرو بن العاص بامرأته هند بنت منبه بن
الحجاج ، وخرجت نخاس بنت مالك إحدى نساء بني مالك
(غزوة بدر)

ابن حسل مع ابنها أبي عزيز بن عمير أخى مصعب بن عمير من
بنى عبد الدار ، وخرج الحارث بن سفيان بن عبد الأسد بامرأته
رملة بنت طارق بن علقمة الكنانية ، وخرج كنانة بن علي
ابن ربيعة بن عبد العزم بن عبد شمس بن عبد مناف بامرأته
أم حكيم بنت طارق ، وخرج سفيان بن عوف بامرأته قثيلة
بنت عمرو بن خلل ، وخرج النعمان بن عمرو وأخوه جابر
مسك الذئب بأمهما الدغنية ، وخرج غراب بن سفيان بن عوف
بامرأته عمرة بنت الحارث بن علقمة الكنانية ، وخرج سفيان بن
عوف بعشرة من ولده وحشدت بنو كنانة .

وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مر بها قالت :
— ويها أبا دسمة اشف واششف .

وخرجت قريش كلها ومن اجتمع إليها من القبائل من كنانة
والأحابيش وغيرهم على لواء واحد بحمله طلحة بن أبي طلحة ،
وكانوا ثلاثة آلاف رجل وكان فيهم من ثقيف مائة رجل .
وخرجوا بعدة سلاح كثير وقادوا مائتي فرس وكان فيهم
سبعمئة دارع وثلاثة آلاف بعير .

وقعد العباس بن عبد المطلب في مكة بعد أن راودوه على
الخروج معهم فاعتذر بما لحقه من القوم يوم بدر ولم يساعدهم
بشيء ، فلما أجمعوا على السير كتب إلى رسول الله — صلى الله عليه
وسلم — كتابا وختمه واستأجر رجلا من بنى غفار وشرط عليه
أن يأتى المدينة في ثلاثة أيام بلياليها ، فراح الغفار يذهب
الأرض بفرسه حتى قدم المدينة فلم يجد رسول الله — صلى الله عليه

وسلم — بها وعلم أنه بقاء ، فانطلق إلى هناك فوجد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على باب مسجد قباء يركب حماره ، فدفع إليه الكتاب ففك ختمه ودفعه إلى أبي بن كعب فغدا يقرأ :

— إن قريشا قد اجتمعت للمسير إليك ، فما كنت صانعا إذا حلوا بك فاصتعه . وقد وتجهوا وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير وقد أوعبوا من السلاح .

واستكنتم نبي الإسلام عليه السلام أبيا ما فيه . ودخل منزل سعد بن الربيع فقال :

— أفي البيت أحد ؟

— لا فتكلم بحاجتك .

فاًخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب .

فجعل سعد يقول :

— يا رسول الله والله إنى لأرجو أن يكون في ذلك خير .

وانصرف رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة وقد استكنتم سعد بن الربيع الخبر ، فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — من منزله خرجت امرأة سعد بن الربيع إليه فقالت :

— ما قال لك رسول الله — صلى الله عليه وسلم ؟

— ما لك ولذاك ؟ لا أم لك .

— كنت أستمع عليكم .

وأخبرت سعد الخبر ، فاسترجع وقال :

— لا أراك تستمعين علينا وأنا أقول لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — تكلم بحاجتك .

ثم أخذ يجتمع ثلثتها ، ثم خرج يعدو بها حتى أدرك رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالجسر فقال :

— يا رسول الله إن امرأتى سألتني عما قلت فكتمتها ، فقالت : قد سمعت قول رسول الله — صلى الله عليه وسلم . ثم جاءت بالحديث كله ، فخشيت يا رسول الله أن يظهر من ذلك شيء فظن أني أفشيت سره .

— خل سبيلها .

وأرجفت يهود المدينة والمنافقون وقالوا :

— ما جاء محمداً شيء يحبه .

وشاع الخبر بين الناس بمسير قريش ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من خزاعة ساروا من مكة أربعاً فوافوا قريشا وقد عسكروا بذي طوى ، فأخبروا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ثم انصرفوا ، ولقوا قريشا ببطن رابغ وهو أربع ليال من المدينة فنكبوا عن قريش .

فلما أصبح أبو سفيان بالأبواء حيث قبر آمنة بنت وهب ، أخبر أن عمرو بن سالم وأصحابه راحوا أمس ممسين إلى مكة ، فقال أبو سفيان :

— أحلف بالله أنهم جاءوا محمداً فخبّروه بمسرتنا وعددتنا وحذرونا منا ، فهم الآن يلزمون صياصيتهم ، فما أرانا نصيب منهم شيئاً في وجهنا .

قرر أبو سفيان أن محمدا عليه السلام والذين معه قد دخلوا حصونهم لما بلغهم خبر مسير قريش ، فحرك ذلك خيبة الأمل في نفوس المشركين فقال صفوان بن أمية :

— إن لم يُصَحِّتُوا (١) لنا عمدنا إلى نخل الأوس والخزرج فقطعناه ، فتركناهم ولا أموال لهم فلا يختارونها أبدا ، وإن أصبحروا لنا فعددنا أكثر من عددهم وسلاحنا أكثر من سلاحهم ولنا خيل ولا خيل معهم ، ونحن نقاتل علي وتر عندهم ولا وتر لهم عندنا .

وكان أبو عامر الفاسق قد خرج في خمسين رجلا من الأوس حتى قدم بهم مكة حين قدم النبي — صلى الله عليه وسلم — المدينة يحرض قريش ويُعلمها أنها على الحق وما جاء به محمد باطل ، فسارت قريش إلى بدر ولم يسر معها : فلما خرجت قريش إلى أحد سار معها وكان يقول لقريش :

— إني لو قدمت على قومي لم يختلف عليكم منهم اثنان ، وهؤلاء معي نفر منهم خمسون رجلا .

فصدقه بما قال وطمعوا في نصره .

وخرج النساء معهن الدفوف يحرضن الرجال ويدكرنهم قتلى بدر في كل منزل ، وجعلت قريش تنزل كل منهل ينحرون ما انحروا من الخزر مما كانوا جمعوا من العين ويتقوون به في مسيرهم ويأكلون من أزوادهم مما جمعوا من الأموال .

ونظرت هند بنت عتبة إلى قبر آمنة بنت وهب فقالت :

(١) أصبحروا : خرجوا إلى الصحوة .

لزوجها أنى سفيان :

— إنكم قد خرجتم بالظعن معكم ونحن نخاف على نساتنا فتعالوا ننش قبر أم محمد فان النساء عورة ، فان يصب من نساتكم أحدا قلتم : هذه رمة أمك ، فان كان برا بأمه — كما يزعم — فلعمري لنفادينهم برمة أمه . وإن لم يظفر بأحد من نساتكم فلعمري ليفدين رمة أمه بما لك كثير إن كان بها برا .
فاستشار أبو سفيان بن حرب أهل الرأي من قريش في ذلك فقالوا :

— لا تذكر من هذا شيئا ، فلو فعلنا نبشت بنو بكر وخزاعة موتانا .

وكانت قريش بذى الحليفة يوم الخميس صبيحة عشر من مخرجهم من مكة وذلك لخمس ليال مضين . من شوال على رأس الثنين وثلاثين شهرا من الهجرة ، فلما أصبحوا بذى الحليفة خرج غرسان منهم فأنزلوهم الوطاء (١) هـ

وبعث النبي — صلى الله عليه وسلم — عينين له آتسا وموتسا ابني فضالة ليلة الخميس ، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا الوطاء ، وأتيا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأخبراه . وكان المسلمون قد ازدرعوا الوادى وكان أهله بنو سلمة وحارثة وظفر وعبد الأشهل ، وكان المسلمون قد أدخلوا آلة زرعهم ليلة الخميس المدينة فقدم المشركون على زرعهم فخلوا فيه إبلهم وخبولهم حتى تركوا الوادى ليس به خضر هـ

(١) الوطاء : ما انخفض من الأرض هـ

وبعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — الحباب بن المنذر بن الجموح إلى القوم لما نزلوا الوادى واطمأنوا ، فدخل فيهم وحزر ونظر إلى جميع ما يريد وكان بعثه سرا وقال له :
— إذا رجعت فلا تجبرني بين أحد من المسلمين إلا أن ترى في القوم قلّة .

فرجع إليه فأخبره خاليا وقال له :
— رأيت عددا حزرتهم ثلاثة آلاف يزيدون قليلا أو ينقصون قليلا ، والحيل مائى فرس ورأيت دروعا ظاهرة حزرتها سبعمائة درع .
— هل رأيت ظعنا ؟

— نعم . رأيت النساء معهن الدفوف والأكبار (الطبول) ..
— أردن أن يحرضن القوم ويذكرنهم قتلى بلنر ، هكذا جاءنى خبرهم . لا تذكر من شائهم حرفا . حسبنا الله ونعم الوكيل . اللهم بك أجول وبك أصول !

وكان مقدم قريش يوم الخميس لحمس خلون من شوال ، وباتت وجوه الأوس والخزرج سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وسعد بن عباد في عدة منهم ليلة الجمعة عليهم السلاح في المسجد بباب النبي — صلى الله عليه وسلم — خوفا من تبئت المشركين ، وحرس المدينة تلك الليلة حتى أصبحوا . ورأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — رؤيا ليلة الجمعة شغلت كل تفكيره .

وخرج سلمة بن سلامة بن وقش يوم الجمعة حتى إذا كان بأدنى الوادى إذا طليعة نخيل المشركين عشرة أفراس ركضوا

في أثره ، فوقف لهم على نشز من الحرة فرشقهم بالنبل مرة وبالحجارة مرة أخرى حتى انكشفوا عنه ، فلما ولوا جاء إلى مزرعته بأدنى الوادى فاستخرج سيفاً كان له ودرع حديد كان له دفناً في ناحية المزرعة وخرج بهما يعلو حتى أتى بنى عبد الأشهل فخبّر قومه بما لقي .

واجتمع المسلمون لصلاة الجمعة ووقف رسول الله عليه السلام على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

— أيها الناس إني رأيت في منامى رؤيا ، رأيت كائناً في درع حصينة ، ورأيت كأن سبني ذا الفقار انفصم من عند ظبته ، ورأيت بقراً تذبح ، ورأيت كائناً مردف كبشاً . فقال الناس :

— يا رسول الله فما أولتها ؟

— أما الدرع الحصينة فالمدينة ، وأما انفصام سبني فقتل رجل من أهل بيتي ، وأما البقر المذبح فقتلى في أصحابي ، وأما أنى مردف كبشاً فكبش الكتيبة تقتله إن شاء الله .

وقضيت صلاة الجمعة والتف المهاجرون والأنصار برسول الله — صلى الله عليه وآله — فقال :

— أشيروا عليّ .

ورأى — صلى الله عليه وسلم — ألا يخرج من المدينة لهذه الرؤيا ورسول الله عليه السلام يحب أن يوافق على مثل ما رأى وعلى ما عبر عليه الرؤيا ، فقام عبد الله بن أبي فقال :

— يا رسول الله كنا نقاتل في الجاهلية في هذه المدينة ونجعل

النساء والذراري في هذه الصياصي ونجعل معهم الحجارة : والله
لربما مكث الولد ان شهرا ينقلون الحجارة لاعدادا لعدونا ونشجك ،
المدينة بالبنيان فتكون كالحصن من كل ناحية ، وترى المرأة
والصبي من فوق الصياصي والآطام ونقاتل باسيافنا في السكك ..
يا رسول الله إن مدينتنا عذراء ما فضت علينا قط ، وما
خرجنا إلى عدو قط منها إلا أصاب منا وما دخل علينا قط إلا
أصيبناه ، فدعهم يا رسول الله فانهم إن أقاموا أقاموا بشر عيبس .
وإن رجعوا خاسرين مقلوبين لم ينالوا خيرا ، يا رسول الله أطلعني في
هذا الأمر واعلم أني ورثت هذا الرأي من أكابر قومي وأهل الرأي
منهم ، فهم كانوا أهل الحرب والتجربة .

فكان رأى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مع رأى ابن أبي ،
وكان ذلك رأى الأكابر من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
وسلم — من المهاجرين والأنصار ، فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم —
— امكثوا في المدينة واجعلوا النساء والذراري في الآطام ،
فإن دمحل علينا قاتلناهم في الأزقة فنحن أعلم بها منهم ، وؤموا
من فوق الصياصي والآطام .

فقال فتیان أحداث لم يشهدوا بدرا :

— اخرج بنا إلى عدونا :

إنهم رغبوا في الشهادة وأحبوا لقاء العدو . وقال رجال من
أهل الفطنة وأهل السن منهم حمزة بن عبد المطلب وسعد بن عباد .
والتعان بن مالك بن ثعلبة وغيرهم من الأوس والخزرج :
— إنا نخشى يا رسول الله أن يظن عدونا أننا كرهنا الخروج .

إليهم جينا عن لقاءهم فيكون هذا جرأة منهم علينا . وقد كنت يوم بدر في ثلاثمائة رجل فظفرك الله بهم ونحن اليوم بشر كثير . وكنا نتمنى هذا اليوم وتدعو الله به فقد ساقه الله إلينا في ساحتنا هذه .

ودرسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى من إلحاحهم كارهه ، وقد لبسوا السلاح يخطرون بسيوفهم يتساومون بكأبهم الفحول :
وقال مالك بن سنان أبو أنى سعيد المخدري :

— يا رسول الله نحن والله بين إحدى الحسينين . إما أن يظفرنا الله بهم فهذا الذى نريد فيلطم الله لنا فتكون هذه وقعة مع وقعة بدر فلا يبقى منهم إلا الشريد ، والأخرى يا رسول الله يرزقنا الله الشهادة والله يا رسول الله ما نبألى أيهما كان ، إن كلا لفيه الخير .

وقال حمزة بن عبد المطلب وكان صائما :
— لا أطعم اليوم طعاما حتى أجالدهم بسيفي خارجا من المدينة .
وقال النعمان بن مالك بن ثعلبة أخو بنى سالم :
— يا رسول الله أنا أشهد أن البقر المذبح قتلى من أصحابك .
روأنى منهم ، فلم تحرمنا الجنة ؟ فوالله الذى لا إله إلا هو لأدخلكنها .
قال رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

— بم ؟

— إني أحب الله ورسوله ولا أفر يوم الزحف .

— صدقت .

وقال إياس بن أوس بن عتيك :

— يا رسول الله نحن بنو عبد الأشهل من البقر المذبح ،
نرجو يا رسول الله أن نذبح في القوم ويُذبح فينا فنصير إلى الجنة.
ويصيرون إلى النار ، مع أتي يا رسول الله لا أحب أن ترجع قريش
إلى قومها فتقول حصرنا محمدا في صياصي يثرب وآطامها فتكون
هذه جرأة لقريش وقد وطنوا سعفنا ؛ فاذا لم نذب عن عرضنا
فلم نذرع ؟ وقد كنا يا رسول الله في جاهليتنا والعرب يأتوننا
فلا يطعمون بهذا منا حتى نخرج إليهم بأسيا فنادبهم عنا ، فنحن
اليوم أحق إذ أمدنا الله بك وعرفنا مصيرنا ألا نحصر أنفسنا في
بيوتنا .

وقام خيشمة ، أبو سعد بن خيشمة ، فقال :

— يا رسول الله إن قريشا مكثت حولا تجمع الجموع
وتستجلب العرب في بواديها ومن اتبعها من أحاييها ، ثم جاءونا
قد قادوا الخيل واعتلوا الإبل حتى نزلوا بساحتنا فيحصرونا
في بيوتنا وصياصينا ثم يرجعون وأفرين لم يكلموا فيجرئهم ذلك
علينا حتى يشنوا الغارات علينا ويصيبوا أطلالنا ويضعوا العيون
والأرصاد علينا مع ما قد صنعوا بحروثنا ، ويجترئ علينا العرب
حولنا حتى يطعموا فينا إذا رأونا لم نخرج إليهم فنذبهم عن حريمنا .
وعسى الله أن يُظفرنا بهم فتلك عادة الله عندنا أو تكون الأخرى .
فهي الشهادة .

لقد أخطأتني وقعة بدر وقد كنت عليها حريصا ، لقد بلغ
من حرصي أن ساهمت ابني في الخروج فخرج سهمه فرزق .
الشهادة ، وقد كنت حريصا على الشهادة . وقد رأيت ابني البارحة .

في النوم في أحسن صورة يسرح في ثمار الجنة وأنهارها وهو يقول :
الحق بنا ترافقتا في الجنة ، فقد وجدت ما وعدني ربي حقاً ،
وقد والله يا رسول الله أصبحت مشتاقاً إلى مرافقته في الجنة ،
وقد كبرت سني ودق عظمي وأحببت لقاء ربي فادع الله يا رسول
الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة سعد في الجنة .
فدعا له رسول الله بذلك .

وقال أنس بن قنادة :

— يا رسول الله هي إحدى الحسينين ، وإما الغنيمة والظفر
يقتلهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

— إني أخاف عليكم المزعمة .

فأبوا إلا الخروج والجهاد ، فوعظهم عليه السلام وأمرهم
بالجد والاجتهاد وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا ، ففرح الناس
حيث أعلمهم رسول الله — صلى الله عليه وآله — بالشخص إلى
عدوهم ، وكره ذلك المخرج بشر كثير من أصحاب رسول الله
وأمرهم بالتهيو لعدوهم ، ثم صلى العصر بالناس وقد حشد الناس
وحضر أهل العوالي ورفعوا النساء إلى الآطام ، فحضرت بنو عمرو
ابن عوف بلبغها ولقيفها والنبيت (١) ولقيفها وتلبسوا السلاح ،
فدخل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بيته ودخل معه أبو بكر
وعمر فعماه ولبساه .

وصيَّف الناس له ما بين حجرته إلى منبره ينتظرون خروجه ،

(١) اللف : المختلط البنييت : الناشئة .

فجاءهم سعد بن معاذ وأسيد بن محضِر فقالا لهم :
— قلتم لرسول الله ما قلتم واستكبرتموه على الخروج والأمر
يتنزل عليه من السماء ، فردوا الأمر إليه فما أمركم فافعلوه وما رأيتم
فيه له هوى أو أربا فأطيعوه .

فبينما القوم على ذلك من الأمر وبعض القوم يقول :
— القول ما قال سعد :

وبعضهم على البصيرة على الشخوص وبعضهم للخروج كاره ،
إذ خرج رسول الله — صلى الله عليه وآله — قد لبس لأمته (قد لبس
الدرع) فأظهرها وحزم وسطها بمنطقة من حائل سيف من أدم
كانت بعد عند آل أبي رافع مولى رسول الله — صلى الله عليه وسلم ،
واعتم وتقلد السيف . فلما خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم ،
ندموا جميعا على ما صنعوا وقال الذين يلحون على رسول الله —
صلى الله عليه وسلم :

— ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما بدا لك ، وما كان لنا أن
تستكبرك والأمر إلى الله ثم إليك .

فقال عليه السلام :

— قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبئتم . ولا ينبغي لنبى إذا
لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه .

اختلفوا فى الخروج من المدينة والمقام بها ، وكره النبى صلى
الله عليه وسلم الخروج ثم خرج على مضض . ثم ندم القوم الذين
أشاروا بالخروج ، ثم عزم رسول الله عليه السلام على الخروج
بعد أن لبس لأمته ، فتفرقت الكلمة بينا كانت الكلمة يوم بدر

واحدة لكأنما قد اجتمع المسلمون يوم ذاك على قلب رجل واحد ،
ترى هل ينتصرون في هذه الغزوة كما انتصروا يوم بدر والنصر
معقود بالعزم والجد والبصيرة في الحرب واتفاق الكلمة ؟

وكان مالك بن عمرو التجارى مات يوم الجمعة ، فلما دخل
رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولبس لأمته وخرج وهو موضوع
عند موضع الجنائز صلى عليه ثم دعا بفرسه ثم قال للمسلمين :
— انظروا ما أمرتكم به فاتبعوه ، امضوا على اسم الله فلكم
النصر ما صبرتم .

وركب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إلى أحد .

التذييل

يقول الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه « الله » : ترقى الإنسان في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات ، فكانت عقائده الأولى مساوية لحياته الأولى ، وكذلك كانت علومه وصناعاته ، فليست أوائل العلم والصناعة بأرقى من أوائل الأديان والعبادات ، وليست عناصر الحقيقة في واحدة منها بأوفر من عناصر الحقيقة في الأخرى .

وينبغي أن تكون محاولات الإنسان في سبيل الدين أشق وأطول من محاولاته في سبيل العلوم والصناعات ؛ لأن حقيقة الكون الكبرى أشق مطالبا وأطول طريقا من حقيقة هذه الأشياء المنفردة التي يعالجها العلم تارة ، والصناعة تارة أخرى .

ويقول علماء المقابلة بين الأديان : إن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب ، وهي : دور التعدد .

ودور التمييز والترجيح .

ودور الوحدةانية .

ففي دور التعدد كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات ، ويوشك في هذا

الدور أن يكون لكل أسرة كبيرة رب تعبده أو تعويذة تنوب عن الرب في الحضور وتقبل الصلوات والقرابين .

وفي الدور الثاني وهو دور التمييز والترجيح تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها في البروز والرجحان على سائرها ، إما لأنه رب القبيلة الكبرى التي تدين لها القبائل الأخرى بالزعامة وتعمد عليها في شئون الدفاع والمعاش ، وإما لأنه يحقق لعباده جميعا مطلبها أعظم وألزم من سائر المطالب التي تحققها الأرباب ، وهي موضع رجاء أو خشية يعلو على موضع الرجاء والخشية عند الأرباب القائمة على تسيير غيرها من العناصر الطبيعية .

وفي الدور الثالث تتوحد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة تؤلف بينها مع تعدد الأرباب في كل إقليم من الأقاليم المتفرقة ، ويحدث في هذا الدور أن تفرض الأمة عبادتها على غيرها كما تفرض عليها سيادة تاجها وصاحب عرشها ، ويحدث أيضا أن ترضى من إله الأمة المغلوبة بالخضوع لإلهها مع بقاءه وبقاء عبادته كبقاء التابع للمتبوع والحاشية للملك المطاع .

ولا تصل الأمة إلى هذه الوحدة الناقصة إلا بعد أطوار من الحضارة تشيع فيها المعرفة ويتعذر فيها على العقل قبول الخرافات التي كانت سائغة في عقول الهمج وقبائل الجاهلية ، فتصف الله بما هو أقرب إلى صفات الكمال والقداسة من صفات الآلهة المتعددة في أطوارها السابقة ، وتقترن العبادة بالتفكير في أسرار الكون وعلاقتها بإرادة الله وحكمته العالية ، وكثيرا ما ينفرد الإله الأكبر في هذه الأمم بالربوبية الحقة ، وتنزل الأرباب الأخرى إلى مرتبة

الملائكة أو الأرباب المطرودين من الخطيرة السماوية .
والرأى الأرجح عند علماء المقابلة بين الأديان أن الاعتقاد
بالتنائية يأتى أحيانا كثيرة بعد اعتقاد الوجدانية ، ويعللون ظهور
التنائية بعد الوجدانية بأن الإنسان يترقى فى هذا الطور فيحاول
تفسير الشر فى الوجود بنسبته إلى إله غير إله الخير ، ولا يكون
هذا من قبيل النكسة فى عقيدته لأنه لا يزال يسبغ تعدد الأرباب
ويسبغ التمايز والترجيح بينها والتفاوت بين درجاتها وطبائعها .
فلا تكون التنائية بعد الوجدانية نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل
تقدما من الأدنى إلى الأعلى لتنزيه الله والارتفاع بصفاته إلى أرفع
صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان فى أطوار العبادة .
ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تاتى بعد
جميع هذه الأطوار توفيقا بين النقص والضرورات وإثباتا لوجود
الله من طريق الثبوت الذى لا شك فيه ، وهو ثبوت الكون بالحس
والعقل والإيمان .
. واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية
أو أصل الباعث عليها ، فمن قائل إن الأساطير هى أصل الدين
بين المممج ، ومن قائل إن ملكة الاستحياء هى أصل الاعتقاد
بالأرباب ، ويرجح آخرون أن السحر هو أصل العبادة وأصل
الشعائر الدينية ، ويعلل آخرون العقيدة الدينية بضعف الإنسان
بين مظاهر الكون وأعدائه فيه من قوى الطبيعة والأحياء ، فلا
غنى له عن سند يبتدعه ابتداعا ليستشعر الطمأنينة بالتعويل عليه
والتوجه إليه بالصلوات فى شدته وبلواه .

يقول الفيلسوف كونت : « إن الدين عبادة الإنسانية » ؛
ويقول سنيكا : « إن الدين معرفة الله والتشبه به » ؛ ويقول
الفيلسوف الألماني كنت : « ينحصر الدين في اعتقادنا بأن كل
واجباتنا أوامر إلهية » ، ويقرر إسكندر باين : « أن الدين عاطفة
يكونها الانفعال الهادئ مقرونا بالخوف وحساسية الخضوع للعظمة » ،
ويقول هكسلي : « إن الدين إجلال المثل الأعلى من الأخلاق ومحبة
العمل على تحقيقه في الحياة » .

ورأى بعض المفكرين أن الوجود البشري إن هو إلا حوار
مع الله . وجعل بعض المفكرين من الروح الدينية عرضا من أعراض
طفولة الشعوب أو قصور العقل البشري أو انحراف الشخصية
الفردية ، وعجز المفكرون والفلاسفة عن تقديم تعليل يتفق عليه
عن أصل العقيدة الدينية وأصل الباعث عليها .

وقد أخذ الأستاذ العقاد فكرة ترقى الإنسان في العقائد ترقيه
في العلوم والصناعات من قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك
ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم حتى وصلت إلى الوحدةانية ،
وهذا القول خاطئ من وجهة النظر الإسلامية ، فهو يعتمد على
فكرة أن الله من خلق الإنسان ، وينفي عنه الثبات .

يقول القرآن الكريم إن الله خلق آدم وأن آدم كان على علم :
« وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا
أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها
ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم

صادقين . قالوا سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبلون وما كنتم تكتمون (١) . فتكون الوحداية ومعرفة الله هي الطور الأول من الأدوار التي مرت بها عقائد الشعوب حسب ما يقرره القرآن المجيد .

كان آدم على علم بالله بل كان أكثر البشر معرفة به ، فقد جرى بينه وبين خالقه حوار مباشر دون وساطة ودون حجب : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين . وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فآزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين (٢) » .

ولم تنقطع صلة آدم بالله عقب هبوطه إلى الأرض بل اصطفاه ربه ليبلغ بنه حقيقة الحق ، فلم يعرفوا إلها إلما واحدا لا شريك له ولم يتخذوا أربابا بالعشرات كما يزعم علماء المقابلة بين الأديان الذين يدحض نظريتهم واقع التاريخ .

فلو كانت نظرية النمو الديني صحيحة لبدات العبادة بعبادة أرباب متفرقين ، ثم بانتصار رب من الأرباب وبدء دور التمييز والترجيح ، ثم ترقى البشرية وتشيع المعرفة ويتعذر على العقل قبول الخرافات ، ويأتى عصر النور الإلهي ولا تكون ردة بعده

أبدا . ولكن الدارس للتاريخ الدينى للبشرية يجد أن هذا التسلسل الذى يحاول أن يمتطيه علماء الأديان لم يكن له مكان فى تاريخ البشرية الطويل ، فلو أننا تركنا مسألة خلق آدم وأن آدم كان على علم ، ولو لم نعتزف بأن إدريس الحفيد السابع لآدم قد نادى بالتوحيد ، وأنكرنا رسالة نوح مع المنكرين ، وسلمنا بأن إبراهيم الخليل لم يدع إلى الإسلام ولم يعرف الله الواحد القهار ولم يدع إلى عبادته وحده ، ولم نعتزف مثلهم إلا بما نقش على الحجر أو وجد مكتوبا على ورق البردى ، وتوغلنا معا فى جوف الزمن حتى نصل إلى فجر الضمير الذى تكون فى مصر فى زمن الفراعين ، فاننا نجد أن أختنا تون قد عرفت التوحيد ، فما إن تولى الملك حتى ثار على دين آمون وعلى ما يتبعه الكهنة من أساليب ، وأعلن فى شجاعة أن ديانة المصريين وثنية وأنكر الآلهة جميعا إلا إله واحدا لا شريك له هو « آتون » ، وهو خالق حرارة الشمس ومغذيها ، وأن كل ما فى الشمس من مجد ملتهب إن هو إلا رمز للقدرة الغائبة التى لا تراها العيون .

وحرم أختنا تون رسم صور للاله « آتون » فهو يرى أن إلهه الحق لا صورة له . وراح يتاجى ربه قائلا :

ما أجمل مطلعك فى أفق السماء !

أى « آتون » الحى .. مبدأ الحياة .

فاذا ما أشرقت فى الأفق الشرقى .

ملأت الأرض كلها بمجالك .

إنك جميل ، عظيم .. براق .. عال فوق كل الرعوس !

أشعثك تحيط بالأرض ، بل بكل ما صنعت !
وإنك تربطها جميعا برباط حبك !
ومهما بعدت فإن نورك يغمر الأرض !
ومهما علوت فإن آثار قدميك هي النهار !
ما أبهى الأرض حين تشرق في الأفق .

هذا هو أختناون وهذا هو توحيدِه منذ فجر التاريخ ، فلو كانت نظرية ارتقاء الإنسان في العقائد كارتقائه في العلوم والصناعات صحيحة ، ولو كان قول علماء المقابلة بين الأديان بأن هناك ثلاثة أطوار عامة مرت بها الأمم البدائية في اعتقادها بالآلهة والأرباب حتى وصلت إلى دور التوحيد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لحق على البشرية ألا ترتد إلى عبادة أرباب متفرقين بعد أن اهتدت إلى الإله الواحد . ولكن الواقع التاريخي يكذب هذه المزاعم كلها ، فقد كانت البشرية تعرف التوحيد ثم تعود إلى الشرك . ثم التوحيد فالشرك . والقرآن الكريم يوضح هذا التذبذب بين التوحيد والشرك أبين توضيح : « ألم بأن للذين آمنوا أن تحشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (١) » ، « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون . وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين . ولكن أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في أهل

مدین تلوو علیهم آیاتنا ولکننا کننا مرسلین (١) ، « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي (٢) » ، « قل من يكلوكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون . أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يُصبحون . بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون . قل إنما أنذركم بالوحي ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون (١) » .

فالقرآن الكريم يكذب نظرية ترقى الإنسان في العقائد ترقيه في العلوم ، ويؤكد أن القائلين بمرور البشرية بأطوار ثلاثة هي التعدد والتميز والترجيح والوحدانية قد جافاهم التوفيق ، فالأصل التوحيد ثم طول الأمد ففسوة القلوب فارسل رسول يوحى إليه أنه لا إله إلا الله فيدعو قومه إلى التوحيد ويقضى على الخرافات والأساطير ، فيطول على الناس العهد فيتخذون آلهة في الأرض وفي السماء ويشركون برب العالمين ، فيأتيهم ذكر من ربهم فيعودون إلى الإيمان بالله واحد في السماء والأرض المستعان على ما يصفون .

إنها في نظر الإسلام دورة : وحدانية فشكل بالله ، سواء أكان ذلك الشكل تعدد الأرباب أو ثنائية في الاعتقاد بوجود إله.

(٢) طه ٨٦ -

(١) القصص ٤٢ - ٤٥

(٢) الانبياء ٤٢ - ٤٥

للخير وإله للشر ، فارسل رسول إلى الذين طال عليهم الأمد
فقتس قلوبهم لينير صدورهم بنور التوحيد ، فطول العهد ،
فردة إلى الشرك المقيت ، فارسل رسول بلسان قومه ليبين لهم
فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم .

وتاريخ البشرية سواء أكان التاريخ الديني الذي جاء في الكتب
الساوية ، أو التاريخ الذي نقش على الحجارة أو كتب بالخط
المسامي على الطين ثم جفف ، أو دون على ورق البردي أو الرقاق
أو سعف النخيل ، يؤيد الحقيقة القرآنية كل التأييد ويسخر من
الزعم الذي وصل إليه من عرفوا بعلماء المقارنة بين الأديان من أن
البشرية قد مرت بأطوار ثلاثة قبل أن تبلغ نضج التوحيد .

يقرر القرآن أن آدم كان على علم وأن الله اصطفاه لبنيه
أن الله واحد لا شريك له ، فلما طال على بنيه العهد ألفوا المحسوس
وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى ما هم فيه من مطعم شهى ومنظر
حسى ولا عالم وراء هذا المحسوس ، فقتس قلوبهم فأرسل إليهم
إدريس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وكانت رسالة إدريس
أول خطوة على الطريق الطويل الذي ستقطعه الرسالات لتأكيد
وحدانية الله على مر العصور .

وعرف الناس التوحيد والبعث والخلود ثم ارتدوا إلى الظلمات
بعد النور ، فأرسل الله رسله ليزيل الغشاوات التي رانت على
القلوب لتنبليج في الصدور أنوار الحقيقة : « ألم يأتكم نبي الذين
من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله
جاءهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا

بما أرسلتم به وإنا لنرى شك بما تدعوننا إليه مريب . قالت رسلهم
أفئ الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من
ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا
تريدون أن تصدون عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين .
قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء
من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله
فليتوكل المؤمنون . وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا
ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون (١) .

وقد عرف الناس الإيمان والإلحاد منذ بدء الخليقة ، عرفوا
الكمال والحرام والحلال والعرش والملائكة والروح والقلم والجنة
والنار ، ثم لما طال عليهم الأمد قالوا إن أنهار الجنة وطورها
وثمارها إن هي إلا ترغيبات للعوام بما يميل إليه طباعهم ، وإن
سلاسل النار وأغلالها إن هي إلا خزي ونكال وترهيبات للعوام
بما ينزخر عنه طباعهم .

وقد عرف الصابئة الأولى عاذيمون وهرمس وهما شيت
وإدريس عليهما السلام ، فلما طال عليهم الأمد قالوا لخلود
وأحكام عقلية أخذوا أصولها وقوانينها من مؤيد بالوحي ، ثم
أنكروا الوحي والرسالة فقالوا إن الأنبياء أمثالنا في النوع وأشكالنا
في الصورة ويشاركوتنا في المادة ويأكلون مما نأكل ويشربون مما
نشرب ، أناس بشر مثلنا ، فمن أين لنا طاعتهم ؟ وبأية مزية
لهم لزمنا متابعتهم ؟ ولئن أطعتم بشر امثلكم إنكم إذا لخاسرون (٢) ..

وقالوا : الروحانيات هم الأسباب المتوسطون في الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال ، وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ، يستمدون القوة من الحضرة القدسية ، ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية :

فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة في أفلاكها وهي هياكلها ؛ فلكل روحاني هيكل ، ولكل هيكل فلك ، ونسبة الروحاني إلى ذلك الهيكل — الذي اختص به ، نسبة الروح إلى الجسد ، فهو ربه ومدبره ومديره .

وسموا الهيكل أربابا ، وربما سموها آباء والعناصر أمهات .
تفعل الروحانيات تحريكها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات في الطبائع والعناصر ، فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات في المركبات ، فيتبعها قوى جسمانية ، وتركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات وأنواع الحيوان .

ثم قد تكون التأثيرات الكلية صادرة عن « روحاني كلي » ، وقد تكون جزئية صادرة عن « روحاني جزئي » ، فمع جنس المطر ملك ومع كل قطرة ملك .

ومنهم مدبرات « الآثار العلوية » الظاهرة في الجو : مما يصعد من الأرض فينزل مثل الأمطار والثلوج والبرد والرياح ، ومما ينزل من السماء مثل الصواعق والشهب ، ومما يحدث في الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وقوس قزح وذوات الأذناب ، والمالة والمجرة ، ومما يحدث في الأرض مثل الزلازل والمياه والأعيرة .

ومنها « متوسطات القوى » السارية في جميع الموجودات .
ومدبرات الهداية الشائعة في جميع الكائنات ، حتى لا نرى موجودا
ما بخاليا من قوة وهداية إذا كان قابلا لهما .

يمثل هذا التفكير تحول الإنسان الأول من عبادة الله الواحد ،
التقهار إلى عبادة الملائكة والكواكب والأجرام السماوية وبعض
ظواهر الطبيعة ، بعد أن خدع نفسه بقوله إن الواجب الإقرار
بالعجز عن الوصول إلى جلال الله ، وإنما يقترب إليه بالمتوسطات
المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرها وفعلا
وحالة .

وقد انقسم أهل الأهواء والنحل منذ بدء التاريخ إلى طبيين .
دهريين قد ألفوا المحسوس وركنوا إليه وظنوا أنه لا عالم سوى
ما هم فيه ، وإلى فلاسفة إلهيين ترقوا بالتحصيل عن المحسوس ،
وأثبتوا المعقول ولكنهم لا يقولون بخلود وأحكام وشرائع
ويؤمنون بأن الشرائع والحلال والحرام مسائل وضعية فيها
مصلحة الناس ، وإلى صابئة يقولون بالمحسوس والمعقول والحدود
والأحكام ولا يقولون بالشرعية التي أتى بها رسل الله وأنبيأوه .

كانت رسالة إدريس دعوة إلى عبادة الله ، إلى العودة إلى
الصراط المستقيم ، إلى الوحدةانية بعد الشرك بالله ، فلما طال على
الناس العهد عبدوا الملائكة والكواكب واتخذوا لها أصناما ترمز
إليهم ، فأرسل الله إليهم نوحا : « إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن
أنذر قومك من قبل أن يأتيتهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم
نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعوه : يغفر لكم من ذنوبكم

ويؤخركم إلى أجل مسمى .. (١) ، « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه
 فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . فقال الملأ
 الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم
 ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين . إن هو
 إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » (٢) ، « ولقد أرسلنا نوحا
 إلى قومه إنى لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم
 عذاب يوم اليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا
 بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما
 نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قوم أرايتم
 إن كنت على بينة من ربى وأتاني رحمة من عنده فعميت عليكم
 أنزل مكموها وأنتم لها كارهون » ويا قوم لا أسألكم عليه مالا
 إن أجرى إلا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم
 ولكنى أراكم قوما تجهلون . ويا قوم من ينصرنى من الله إن
 طردتهم أفلا تذكرون . ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم
 الغيب ولا أقول إنى ملك ولا أقول للذين تردى أعينكم لن
 يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم إني إذا لمن الظالمين (٣) .
 دعوة إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده قبل أن تقوم مملكة
 آشور ومملكة بابل فى بلاد ما بين النهرين ، وقبل أن يزعم الملوك
 أن الملكية قد نزلت من السماء ، وقبل أن يجلس الملوك على العرش
 تشبها بالله وعرش الله ! دعوة مبكرة إلى الوحدانية تلخص مزاعم

(٢) المؤمنون ٢٢ - ٢٥ .

(١) نوح ١ - ٤ .

(٣) هود ٢٥ - ٣١ .

القائلين بترقى الإنسان في العبادة ترقيه في العلوم والصناعات ، وتكذب زعم علماء المقابلة بين الأديان الذين حسبوا أن الحضارة البشرية مد مطرد لا تتوره نكسات ، فقالوا إن البشرية قد مرت بأطوار النمو الديني حتى بلغت رشد الإيمان باله واحد قهار .

وطال على الناس العهد فقست قلوبهم فعادوا إلى عبادة الملائكة والكواكب والنجوم واتخذوا من دون الله أربابا ، فأرسل الله إليهم أخاهم هودا ليعيدهم إلى الصراط المستقيم : « وإلى عاد أخاهم هودا ، قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملائكة الذين كفروا من قومه إنا نراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين . قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين . أوعجبت أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون (١) » .

وعرفت البشرية التوحيد مرة أخرى ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم فارتدوا إلى الشرك وعبادة الأصنام التي اتخذوها رموزا للملائكة أو الكواكب السيارة أو الظواهر الطبيعية التي كانت تنزل الرعب في قلوبهم أو يأملون منها الخير العظيم . ولما كانت سنة الله سبحانه وتعالى أن يرسل الرسل إلى عباده بعد أن تقسو قلوبهم لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، فقد أرسل صالحا إلى قومه : « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم :

اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ، قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (١) .

كانت الدعوات كلها تستهدف عودة البشرية إلى عبادة الله وحده ، وقد كادت أن تكون عبارات الدعوة واحدة ، فنوح عليه السلام يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وهود يقول لقومه : يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون ، وكذلك كانت دعوة صالح . ولم يتخذ أحد منهم اسماً للدين الذي يدعو إليه لأن البشرية لم تكن قد تفرقت في الدين إلى مذاهب ، ولم يتخذ المشركون لأديانهم أسماء يميزون دياناتهم بها فقد كانوا يؤمنون أنهم يتقربون إلى الله بالمتوسطات المقربين إليه . أما في زمن إبراهيم الخليل فقد أطلق على أديان الكفر أسماء فعرفت عبادة نانا وهي عبادة القمر ، وعبادة مردوخ وهي عبادة كوكب المشترى ، وعبادة شمش وهي عبادة الشمس ، ثم أطلقت أسماء على عبادات الشرك فكان لا بد من إطلاق اسم على دين الله ، فكان الإسلام ذلك الاسم منذ رسالة إبراهيم عليه السلام ، وقد أطلق بعد ذلك على كل عبادة تدعو إلى التوحيد : « وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا

ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير (١) .

وكانت دعوة إبراهيم وإسماعيل وهما يقيمان القواعد من البيت أن يجعلهما الله مسلمين له ومن ذريتهما أمة مسلمة : « ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك (٢) » .

وأكد القرآن الكريم أن من يرغب عن ملة إبراهيم إنما يفسده نفسه . وأن بنيه ويعقوب (إسرائيل) كانوا مسلمين : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين . ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون . أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون (٣) » .

وعبدت الشمس قبل إبراهيم الخليل وعبدت من بعده في بلاد ما بين النهرين وفي مصر وفي اليمن وفي كل بقاع الأرض التي كانت مأهولة بالسكان في ذلك الزمان ، وهذه حقيقة لا تتفق مع ما يقول به علماء المقابلة بين الأديان من أن أطوار العقيدة الإلهية تشعبت بين الناس فلم تطرد على مراحل متشابهة في جميع الأمم ولا في جميع الأديان ، وأن عقيدة الأرواح لم تفارق أطوارها

(١) الحج ٧٨ . . (٢) البقرة ١٢٨ .

(٣) البقرة ١٣٠ - ١٣٣ .

الأولى ، وأن عبادة الأسلاف امتزجت بعقيدة الأرواح ثم اتسعت نظرة الإنسان إلى دنياه حتى التمس لها علة في السماء فكانت الشمس هي أكبر ما رآه وتوجه إليه بالعبادة ، ثم أصبحت الشمس رمزا للخالق حين تجاوزها الإنسان بنظره إلى ما هو أعظم منها وأعلى ، فهي القنطرة الأخيرة بين العدوتين : عدوة التعديد وعدوة التوحيد . ولم يبق بعد اعتبار الشمس رمزا للقوة الكونية إلا قبول التوحيد الصحيح ، فتعلمه الإنسان من الديانات شيئا فشيئا حتى بلغ بالقوة الإلهية نهاية التنزية .

وكان الله باللغة الآرامية « الإيل » فسمى إبراهيم ابنه البكر إسائيل أى من سمع الله لك فيه ، وسمى حفيده إسرائيل ، ونسبت مدينة بابل إليه باب إيل . ويقول الأستاذ العقاد في كتابه عن الله : « ويدعو لنا هذا الرقى الدينى من ترقى العقل في تفسير كلمة الإله ... فكلمة « إيل » بالآرامية مرادفة لمعنى القوى أو البطل ، ثم أصبحت كلمة الإيل بالتعريف مرادفة لبطل الأبطال أو للبطلوة المطلقة ، كما نميز عالما بكلمة العالم مع التعريف ، لنقول إنه العالم دون سواه » .

أخذ الأستاذ العقاد بنظرية الرقى الدينى عن علماء المقابلة بين الأديان ، وإن الدارس لتاريخ البشرية الدينى ليجد في سر أن هذه النظرية محض خيال ، فقد ارتدت البشرية عن الوحدانية بعد إبراهيم الخليل وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف ، فلما طال على الناس الأمد قست قلوبهم ونسوا الإسلام الذى دعا إليه كل الرسل والأنبياء من بعد خليل الرحمن عليه السلام ، فيوسف

«الصديق يسأل ربه أن يتوفاه مسلماً ويلحقه بالصالحين : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً وألحقني بالصالحين(١) » .

وعادت البشرية إلى الشرك بالله ودور تعدد الآلهة والأرباب بعد التوحيد ، حتى بنو إسرائيل ورثة العلم والتوحيد عبدوا العجل وما كان يعبد المصريون ، فأرسل الله إليهم موسى عليه السلام ليعيد الإسلام ناصعاً كما كان أيام إبراهيم الخليل أبي المسلمين : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وملئه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد(٢) » .

ولم يطق بنو إسرائيل التوحيد طويلاً ، فقد طلبوا أن يرتدوا إلى الشرك والتعدد وموسى كلمهم فيهم « قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » ، ولم يكتفوا بالتمنى بل عبدوا العجل لما ذهب موسى لميقات ربه : « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار(٣) » ، « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بأساً خلفتموني من بعدي(٤) » .

وترك موسى عليه السلام التوراة فاذا ببني إسرائيل يختلفون فيها وينقسمون إلى شيع وأحزاب كل طائفة تكفر الأخرى : « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب » .

(٢) هود ٦٦ - ٦٧ .

(١) يوسف ١٠١ .

(١) هود ١١٠ .

(٤) الاعراف ١٥٠ .

(٣) الاعراف ١٤٨ .

وبعث الله داود إلى بنى إسرائيل وآتاه زبوراً ليعبد بنى إسرائيل إلى الإسلام دين الله منذ بدء الخليقة الذى لم يعرف الربى ولا التبديل والتغير . دين الفطرة الذى كانت رسالته على الدوام أن لا إله إلا الله . وورث سليمان داود واستمر فى الدعوة إلى التوحيد وإلى الإسلام : « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم . ألا تعلوا علىّ وأتوفى مسلمين (١) » .

« قيل لها ادخلى الصرح فلما رآته حسبته لجة وكشفت عن ساقها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إني ظلمت نفسى وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين (٢) » .

وعرفت اليهودية كدين بعد داود وسليمان فلم يكن لها ذكر قبل ذلك ، فداود وسليمان كانا من نسل يهوذا الابن الرابع ليعقوب (إسرائيل) . فلما آل إليهما ملك بنى إسرائيل رأى رهم يهوذا أن ينتهزوا هذه الفرصة وأن يخلدوا حدث اعتلاء اليهوديين عرش بنى إسرائيل لأول مرة . فنفوا عن داود وسليمان الرسالة وثبتوا لها الملك فقالوا داود الملك وسليمان الملك ثم أطلقوا اليهودية على ما ابتدعوا من دين .

وإن الواقع التاريخى يؤيد هذه الحقيقة . وقد جاء فى القرآن الكريم : « يا أهل الكتاب لم تحتاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاجبتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً

(١) النمل ٢٠ - ٢١ .

(٢) النمل ٢٢

مسلمًا وما كان من المشركين (١) .

وقد عقد كل من هنرى برستيد في كتابه فجر الضمير وأرثر ويجال في كتابه حياة إخناتون مقارنة بين صلوات إخناتون وأحد مزامير داود فاتفقت المعاني بينهما اتفاقًا لا ينسب إلى توارد الخواطر ، وقد خلاصا من ذلك أن المزامير قد أخذت معانيها عن ابتهالات إخناتون .

وقد يكون ذلك الاستنتاج صحيحًا ولكنه لا يطعن في رسالة داود . فان اليهود في مناهم في بابل قد أعادوا كتابة التوراة متأثرين بالديانة البابلية والديانة المصرية . ولم يجعلوا داود نبيًا بل ملكًا له خطايا قد يرفع عنها سواد البشر . إن القرآن الكريم يقرر أن الله قد آتى داود زبورًا كما آتى موسى فرقانًا ولم يثبت أن المزامير الواردة في توراة بابل هي الزبور الذي ذكره الله في قرآنه .

وألف « فرويد » كتابًا سماه « موسى والوحدانية » عقد فيه مقارنة بين عقائد إخناتون والعقائد العبرية . وانتهى من مقابلاته وفروضه إلى تقرير رأيه المرجح لدى . وهو أن موسى عليه السلام تربى في مصر في كنف الوحدانية ونشأ في أعقاب المعركة بين آتون وآمون واستعد للتوبة في هذه البيئة الموحدة فلم يبن إسرائيل كيف يوحدون الله ويعظمون صفاته وآلامه . وكان خروج بني إسرائيل — في رأيه — فيما بين القرن الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد : أى في الحيل التالى لانتشار التوحيد بالبلاد المصرية ...

وامرسل فرويد في تقديراته - وهو من بنى إسرائيل - حتى
ظن أن موسى عليه السلام من دم مصرى وليس من اللاويين
كما جاء في التوراة .

وقد رأى المنكرون للرسالات من رجال هذا العصر في قول
بريستد وويجال وفرويد ما يؤيد إلحادهم ، واطمأنوا إلى هذه
الاستنتاجات كأنما كانت حقيقة لا يأتيها الباطل من أمامها
ولا من خلفها ولا عن يمينها ولا عن يسارها . ولكن حفريات
البحر الميت ألقت الضوء على رأى جديد يقول إن موسى كان
في عهد تحتمس الثالث وأن حثشبوت هى التى التقطته من اليم .
أى قبل عهد الصراع بين آمون وآتون وقبل أن يولد أخناتون .
فزعزع ذلك الاكتشاف جبال الأوهام التى أقامها في الهواء
بريستد وويجال وفرويد .

وطال على بنى إسرائيل الأمد فقست قلوبهم ونسوا الإسلام
الذى جاءهم به موسى . فوصفوا الله بالصفات البشرية ونسبوا
التقاربة الإنسانية إليه . فاطلقوا على أبنائهم عمائيل (من العمومة)
أو إيل أب من الأبوة . وغير ذلك من أواصر الأسرة البشرية .
ونسبوا إلى الإله أعمال الإنسان وحر كاته . فذكروا أنه
كان يتمشى في الحنة وأنه كان يصارع وياكل ويشرب . وأنه
دفن موسى حيثما مات في مواب ! ثم اتخلوا التائيل رمزا للإله
وسرعان ما عبدوها : وقد جاء في الإصحاح الثامن عشر من كتاب
الملوك الثاني أن حزقيا ملك يهودا : .. أزال المرتفعات وكسر
التماثيل وقطع الموارى وسحق حية النحاس التى عملها موسى

لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها » .

وغزا نبوخذ نصر (مختصر) إسرائيل وحمل بني إسرائيل أسرى إلى بابل . وفي أرض المنفى تأثر بنو إسرائيل بعقائد البابليين ونسوا الحنة والنار وما جاءهم به موسى بعد أن حرق مختصر كل نسخ التوراة . وفي أرض السبي أعاد أنبياء بني إسرائيل كتابة التوراة فدرسوا فيها أساطير الشعوب ووصموا أنبياء الله بكل نقيصة . ولما كان البابليون لا يؤمنون بالبعث ويقولون إن الموت يذهبهم إلى الأرض التي لا رجعة منها فقد خلت التوراة التي كتبت في بابل من ذكر البعث واليوم الآخر . فالأرض السفلى أو الحب أو شيول هي الهاوية التي تأوى إليها الأيتام بعد الموت ولا نجاة منها لميت ... » وإن الذي ينزل إلى الهاوية لا يصعد » .

كان قدماء المصريين يؤمنون بالبعث والحساب قبل أن تكتب التوراة في بابل بآلاف السنين . فما رأى السادة علماء المقابلة بين الأديان القائلين بالترقي في الديانات على مر العصور ؟ ألم يكن القراءين الأولون أكثر رقا في العقيدة من بني إسرائيل في المنفى ؟

وفي ذلك الوقت قام في فارس زرادشت يدعو إلى عبادة أهورامزدا إله النور . وعرفت فارس التوحيد واعتنق الناس ديانة زرادشت . وسرعان ما عادوا إلى عبادة النار ومزجوا الأساطير بالدين التقيم فإذا بأهورامزدا يصبح على رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة .

وعرف المنجوس الشائبة في العبادة فقالوا إن أهورامزدا إله

النور والخير وأمرهم أن يله الظلام والشر . وقد عرف الثنائية قبلهم قلماء المصريين فقالوا إن أزوريس إله الخير وست . إله الشر . وقد كانت الثنائية معروفة منذ فجر التاريخ وهذا يلجس زعم علماء المقابلة بين الأديان بأن الثنائية تأتي غالبا بعد التوحيد وأنها ليست نكسة من الأعلى إلى الأدنى بل تقدا من الأدنى إلى الأعلى ، لتزيه الله والارتقاء بصفاته إلى أرفع صور الكمال الموافقة لترقى الإنسان في أطوار العبادة .

وعاد بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وقد تأثرت ديانتهم بديانة البابليين وأساطيرهم . وضاعت آفاقهم الدينية فقالوا إن الإله هو رب إسرائيل وحدهم وزعموا أنهم الناس وأن من عداهم أمم ، كلاب البشرية ، وقالوا إن الذي يعيش في بيت المقدس فهو يعيش مع الله ، ومن نام خارجها فهو لا يعيش مع الله ، ووصفوا « يهو » إلههم بأنه غيور شديد البطش متعطر إلى الدماء سريع الغضب ينتقم من شعبه كما ينتقم من أعداء شعبه ، وزعموا أن الرسالة فيهم وحدهم فهم شعب الله المختار .

يزعم بنو إسرائيل أن الله اصطفاهم وأن الرسالة والنبوة فيهم . ويزعم بعض علماء الأديان أن الرسالة والنبوة انحصرت في الشرق الأوسط ويسوقون لذلك تفسيرات يحاولون أن يلبسوها ثوب العلم واليقين . ولكن الباحث في بيانات الهند وفارس والممالك التي كانت معروفة في زمن الرسالات يجد فيها آثار ديانات سماوية طمستها الأساطير لما طال على الناس العهد . وإن القرآن الكريم يقرر : « إن من أمة إلا خلا فيها

تذير (١) هـ . « ولكل أمة رسول (٢) » :

ويذكر الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » أن اليونان عرفت النبوة وأن حكماءهم تأثروا بها ، وأن تاليس الملطي الذي كان أول من تفلسف في ملطية وقال : إن للعالم مبدعا لا تدرك صفة العقول من جهة هويته إنما يدرك من جهة آثاره . وهو الذي لا يعرف اسمه فضلا عن هويته إلا من نحو أفاعيله وإبداعه وتكوينه الأشياء . فلما ندرك له اسما من نحو ذاته إنما من نحو ذاتنا . إنما تلقى مذهبه من مشكاة النبوة ، فتاليس يقول إن المبدع الأول هو الماء . وفي السفر الأول من التوراة : « إن مبدأ الخلق هو جوهر خلقه الله تعالى . ثم نظر إليه نظرة إلهية فذابت أجزاءه فصار ماء ، ثم ثار من الماء بخار مثل الدخان فخلق منه السموات . وظهر على وجه الماء زيد مثل زبد البحر فخلق منه الأرض ثم أرساها بالجبال » .

ويقول أنكسيمانس الملطي : « إن الباري تعالى أزل لا أول له ولا آخر . هو مبدأ الأشياء ولا بد له ، هو المدرك من خلقه أنه هو فقط وأنه لاهوتية تشبهه وكل هوية فمبدعة منه . هو الواحد ليس كواحد الأعداد ، لأن واحد الأعداد يتكرر وهو لا يتكرر ... أبداع يوحداية صورة العنصر ، ثم صورة العقل انبعث عنها يبدعة الباري تعالى .

ويقرر الشهرستاني في نهاية حديثه عن فلسفة أنكسيمانس : هو أيضا من مشكاة النبوة اقتبس . وبعبارة انقسام التيس .

أما عن رأى أنباد قليس فيقول الشهرستاني : « وهو من الكبار عند الجماعة . دقيق النظر في العلوم رقيق الحال في الأعمال . وكان في زمن داود النبي - عليه السلام - مضى إليه وتلقى منه العلم واختلف إلى لقمان الحكيم واقتبس منه الحكمة ، ثم عاد إلى يونان وأفاد .

قال : إن البارئ تعالى لم تزل هويته فقط وهو هو العلم المحض ، وهو الإرادة المحضة ، وهو الجود والعزة والقدرة والعدل والخير والحق ... لا أن هناك قوى مسماة بهذه الأسماء ، بل هي هو وهو هذه كلها .

ويستمر الشهرستاني في سرد مذاهب الحكماء السبعة الذين هم أساطين الحكمة . ويبدءون بـتاليس الملطي ويستنهون بأفلاطون ، مؤكدا أنهم قد أخذوا الحكمة من معدن النبوة . فيقول إن فيثاغورس الذي ادعى أنه شاهد العوالم العلوية بحسه وحده وبلغ في الرياضة إلى أن سمع خفيف الفلك ووصل إلى مقام الملك وقال : ما سمعت شيئا قط ألد من حركاتها . ولا رأيت شيئا أبهى من صورها وهيئاتها . وقال إن البارئ تعالى واجله لا كالآحاد . ولا يدخل في العدد . ولا يدرك من جهة العقل ولا من جهة النفس ، فلا الفكر العقلي يدركه ولا المنطق النفسي يصفه . فهو فوق الصفات الروحانية غير مدرك من نحو ذاته ، وإنما يدرك بآثاره وصنائه وأفعاله . فيثاغورس هذا كان في زمان سليمان النبي ابن داود عليهما السلام .

ومبقراط اقتبس الحكمة من فيثاغورس واقتصر من أصنافها على الإنينات والأخلاقيات ، واشتهر بالزهد والرياضة النفس.

وتهذيب الأخلاق وأعرض عن ملاذ الدنيا واعتزل إلى الجبل وأقام في أعلاه . ونهى الرؤساء الذين كانوا في زمانه عن الشرک وعيادة الإوثان فتوروا عليه الغاغة وألخنوا ملكهم إلى قتله ، فحبسه الملك ثم سقاه السم .

قال سقراط : إن البارئ تعالى لم يزل هوية فقط وهو جوهر فقط . وإذا رجعنا إلى حقيقة الوصف والقول فيه وجدنا المنطق والعقل قاصرين عن اكتناه وصفه وحقيقته وتسميته وإدراكه ، لأن الحقائق كلها من تلقاء جوهره ، فهو المدرك حقا والواصف لكل شيء وصفا والمسمى لكل موجود اسما ، فكيف يقدر المسمى أن يسميه اسما ، وكيف يقدر المحاط أن يحيط به وصفا ؟ ! . فترجع فنصفه من جهة آثاره وأفعاله ، وهى أسماء وصفات إلا أنها ليست من الأسماء الواقعة على الجوهر المخبرة عن حقيقته . وذلك مثل قولنا : إله أى واضح كل شيء ، وخالق أى مقدز كل شيء ، وعزيز أى ممتنع أن يضام ، وحكيم أى محكم أفعاله على النظام . وكذلك سائر الصفات .

ثم إن مذهب « سقراط » أن أخص ما يوصف به البارئ تعالى هو كونه حيا قيوما ، لأن العلم والتقدير والجود والحكمة ... تتدرج تحت كونه حيا . والحياة صفة جامعة لكل ، والبقاء والسرمد والدوام وحفظ النظام فى العالم تتدرج تحت كونه قيوما . والقيومية صفة جامعة لكل .

وربما يقول : هو حى ناطق من جوهر أى من ذاته ، وحياتنا ونطقنا لا من جوهرنا ولهذا يتطرق إلى حياتنا ونطقنا العدم والدور

والفساد ، ولا يتطرق إلى حياته ونطقه — تعالى وتقدس .
ومن مذهب سقراط أن النفوس الإنسانية كانت موجودة قبل وجود الأبدان على نحو من أنحاء الوجود إما متصلة بكلها وإما متميزة بذواتها وخواصها : فاتصلت بالأبدان استكمالا واستدامة ، والأبدان قوابلها وآلاتها فتبطل الأبدان وترجع النفوس إلى كليتها .

وقال الشهرستاني عند الحديث عن رأى أفلاطون الإلهي إنه آخر المسلمين الأوائل الأساطين معروف « بالتوحيد » والحكمة ، ولد في زمن أردشير بن دارا في سنة ست عشرة من ملكه ، ولما اغتيل سقراط بالسّم ومات قام مقامه وجلس على كرسيه ، وقد أخذ العلم من سقراط وطيمائوس وضم إليه العلوم الطبيعية والرياضة .

وحكى عنه قومه ممن شاهده وتلمذ له مثل : أرسطاطاليس . أنه قال : إن للعالم محدثا مبدعا أزليا واجبا بذاته ، عالما بجميع معلوماته على نعت الأسباب الكلية ، كان في الأزل ولم يكن في الوجود رسم ولا تطلل إلا مثالا عند البارئ تعالى ، ربما يعبر عنه بالحيولي وربما يعبر عنه بالعنصر ولعله يشير إلى صور المعلومات في علمه تعالى .

قال : فأبدع العقل الأول ويتوسطه النفس الكلية . وقد انبعثت عن العقل انبعثت الصورة في المرأة ويتوسطها العنصر . وقال : والعالم عالمان : عالم العقل وفيه المثل العقلية والصور الروحانية ، وعالم الحس وفيه الأشخاص الحسية والصور

الجسمانية ، كالمرأة المجلوة الى تنطبع فيها صور المحسوسات .
فان الصور فيها مثل الأشخاص ، وكذلك العنصر — في ذلك
العالم مرآة لجميع صور هذا العالم يتمثل فيه جميع الصور كلها ،
غير أن الفرق أن المنطبع في المرأة الحسية صور خيالية يرى أنها
موجودة تتحرك بحركة الشخص وليس في الحقيقة كذلك، وأن
التمثل في المرأة العقلية صور حقيقة روحانية هي موجودة بالفعل
تحرك الأشخاص ولا تتحرك ، فتسبب الأشخاص إليها كنسبة
الصور في المرأة إلى الأشخاص فلها الوجود الدائم ولها الثبات
القائم ، وهي تمايز في حقائقها تمايز الأشخاص في ذواتها .

وقال : وإنما كانت هذه الصور موجودة كلية دائمة باقية .
لأن كل مبدع ظهرت صورته في حد الإبداع فقد كانت صورته
في علم الأول الحق والصور عنده بلا نهاية ، ولو لم تكن الصور
معه — في أزليته — في علمه لم تكن لتبقى ، ولو لم تكن دائمة
بدوامها لكانت تدثر بدثور « الهوى » ، ولو كانت تدثر مع
دثور الهوى لما كانت على رجاء ولا خوف ولكن لما صارت
الصور الحسية على رجاء وخوف استدل به على بقائها ، وإنما
تبقى إذا كانت لما صور عقلية في ذلك العالم ترجو اللحاق بها
وتخاف التخلف عنها .

قال : وإذا اتفقت العقلاء على أن هناك حسا ومحسوسا
وعقلا ومعقولا . وشاهدنا بالحس جميع المحسوسات وهي
محدودة ومحصورة بالزمان والمكان . فيجب أن نشاهد بالعقل
جميع المعقولات وهي غير محدودة ومحصورة بالزمان والمكان ،

فصكون مثلاً عقلية .

أخذ الحكماء السبعة حكمتهم من مشكاة النبوة ، فلما طال على الناس العهد تشعبت آراء الفلاسفة وحكمهم . وقد تفلسف أهل الكتاب الأول والعلم الأول بعد أن أفسدوا التوراة في أرض المني ، وكان أقدم فلاسفة اليهود الذين أسسوا كنطرة الاتصال بين الدين والفلسفة فيلون السكندري الذي ولد في السنة العشرين قبل الميلاد وتوفي بعد ذلك بنحو سبعين سنة .

تقدم اليهود في الزمن وتقدموا في دراسة الفلسفة اليونانية ، وبلغ اختلاطهم بمذاهب الفلسفة آتمة في مدينة الإسكندرية قبل الميلاد لأنها أصبحت مركز الثقافة في العالم المتحضر بعد انتهاء عصر الفلسفة من أثينا وسائر بلاد الإغريق .

تعلم فيلون من دينه أن الله ذات ، وتعلم من الفلسفة اليونانية أن الله عقل مطلق مجرد من ملابسات المادة . فلم يستطع أن يقبل الصفات والأنباء التي أسبندت إلى الله في كتب اليهود بدلالتها الخرقية ونصوصها الظاهرة . ولم يستطع أن يجاري الفلاسفة في عزهم بين الله وخلقاته ورفعهم عناية الله عن الاشتغال بأحوال هذه المخلوقات .

إلا أنه كان على اقتناع مكين بتزيه الله عن صفات التشبيه والتجسيم . وكان يرى أن عقل الإنسان لن يستتب من صفات الله شيئاً . غير أنه موجود ولكنه في وجوده الكامل المطلق أعلى من أن تحده صفة تدركها العقول .

فكيف يتأتى الاتصال بين هذا الخالق وبين مخلوقاته في هذه

الصور المادية ؟ وكيف يفهم الصفات والأنباء التي أسندت إليه
في كتب أنبياء اليهود ؟

أما كتب الأنبياء فهو لا يرفضها ولكنه يقبلها على الرمز
والمجاز ، ويقول إنها تنطوي على حقيقة أعمق من الحروف
والتصوص يفهمها المستعدون لها على درجات ، وأما الاتصال
بين الخالق والمادة فأنما يكون بوسيلة العقل أو الكلمة ، فالعقل
يصدر عن الله والمادة تنقاد للعقل فتتحرك وتنظم وتتعدد فيها
طبقات المخلوقات .

وكان فيلون يرفض أقوال الرواقين التي تشبه القول بوحدة
الوجود وتجعل الله من العالم والعالم من الله ، ولكنه كذلك كان
يرفض مذهب أرسطو في تجريده الله عن العمل في المخلوقات
وزعمه أن كمال الله يقتضى هذا التجريد . قال : إن بعضهم ممن
فاق إعجابهم بالعالم إعجابهم بصانعه يقولون إن العالم أبدى بغير
بداية ، وينسبون إلى الله نسبة خلقت من التقوى والحق إذ يجرّدونه
من العمل وكان أخرى بهم أن يقفوا موقف الروعة أمام قدرته :
قدرة الصانع والأب ، ولا يتجاوزوا الحد في تعظيم العالم وتمجيده .
وقد كان موسى الذى بلغ الذروة في الفلسفة واهتدى بوحى الله
إلى أعماق أسرار الطبيعة يعلم أن الضرورة أوجبت أن يوجد في
الكون سبب محرك ومادة لا حراك بها ، وأن السبب المحرك هو
العقل أو هو عقل الكون الظهور الذى يعلو على الفضيلة والعلم .
ويعلو على الخير نفسه وعلى الح . نفسه .. أما المادة التي لا حراك
بها فليست لها روح حياة ولا صفة لها بالحركة من عند ذاتها ،

ولكنها متى تحركت بالعقل واستمدت منه روح الحياة صارت إلى هذا الصنع المحكم العجيب المتجلى لنا في هذا العالم . وإن أولئك الذين يحسبون العالم بلا بداية لا يصرون أنهم يقطعون بذلك الحسبان ألزم عنصر من مقومات الدين وهو الإيمان بالعناية الإلهية ، لأن العقل يثبت أن الأب الخالق يعنى بما خلق ... » .

ورفض فيلون زعم الزاعمين أن الله يحتويه مكان أو زمان لأنه محيط بكل مكان وزمان . ويرفض زعم الزاعمين أن الله لا يستجيب للصلاة لأن الصلاة أصل من أصول العلاقة بين الإنسان والله . وعنده أن الله يستجيب دعاء « الكلمة » لهذه الموجودات الأرضية . وأن موسى عليه السلام هو « الكلمة » الذى استجاب الله دعاءه فى سيناء : وهو الذى خلص من شوائب المادة فلحق بالطبيعة الإلهية « (١) » .

قال : إن الله أحد . ولكنه بقدرته خير حاكم . فبالخير صنع العالم وبالحكم يديره . وثمة شئ ثالث يجمع بين القدرتين وهو الكلمة : لأن الله — بالكلمة — وجود وبحكم .. والكلمة كانت فى عقل الله قبل جميع الأشياء .. وهى متجلية فى جميع الأشياء . وكان مذهب فيلون مبدأ ثورة دينية فى بنى إسرائيل . فتابعه أناس فى التأويل والتفسير . وأحجم الناس عن كل تأويل وتفسير مشفقين على التراث القديم . وانتهى الخلاف إلى انشقاق حاسم بين القرائين وهم المزمون للنصوص وبين الربانيين الذين يجيزون تفسيرها والتوفيق بينها وبين مقررات العلم ومذاهب الحكمة .

(١) عن كتاب « الله » للإستاذ العقاد .

أفسد اليهود التوراة في أرض بابل وكتبوها بأيديهم وأضافوا إليها سير من قاموا بخدمات لشعب بني إسرائيل . فأنحرفت من كتاب منزل من السماء إلى كتاب أدب وتاريخ يسجل أعمال البارزين في التاريخ اليهودي . واعتنق بعض مفكرى اليهود المذاهب الفلسفية التي انتشرت في ذلك الوقت فإذا بالقلوب تقسو وإذا بشطحات الفكر تقود إلى الكفر والشرك بالله . وإذا بالزمان يصبح في حاجة إلى رسول من عند الله ليزيل الأساطير التي رانت على الضائير ويعيد إلى الأرض الإسلام دين الله . فأرسل الله إلى بني إسرائيل المسيح عليه السلام . « ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون . ثم قمينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون » . (١)

ودعا المسيح عليه السلام إلى الإسلام وآمن له الخواريون : « وإذا أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بي وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون » . (٢)

ولم يطل مكث الإسلام الذى جاء به المسيح في الأرض فقد قام بولس بمزج الأمثلة الدينية بصور الفلسفة ولا سيما فلسفة الحلول . وراح يقول إن المسيح جالس على يمين الله ويدعو لمن يظلب لهم الخبز « أن تسكن فيهم كلمته » . ويسأل لهم الغفران منه

ويبشرهم بأنهم سيلغون المجد متى عاد إلى الأرض .
وأشار إلى المسيح عليه السلام في صلواته : « باسم ربنا يسوع
المسيح » . وسمى نفسه باسم « رسول يسوع المسيح بحسب أمر الله
مخلصنا وربنا يسوع المسيح » . وإن كان القرآن الكريم يؤكد أن
الله قد تابعد على آدم بعد خطيئته : « فخلق آدم من ربه كلمات
فكتاب عليه (١) » إلا أن بولس استمر يؤكد أن أبناء آدم قد توارثوا
خطيئته وسماها « الخطيئة الموروثة » ، وقال إن المسيح إنما صلب
ليظهر البشرية من تلك الخطيئة .

وكان لنظرية بولس أعماق الأثر في إلحاد من إلحدوا من
منكرى المسيحية وفلاسفتها . فنظرية الخطيئة الموروثة لا تستقيم
مع ذلك الله الذي يقرره في كل دياناته السماوية : « ولا تزر وازرة
وزر أخرى (٢) » . « وأن ليس للانسان إلا ما سعى (٣) » .

فاضت كتب رجال الدين وآباء الكنيسة وبسكال وبوسويه
وماسيون وغيرهم من الناطقين باسم التقليد المسيحي بفكرة أن
الإنسان في نظر هؤلاء جميعاً مخلوق وضع لا يملك أية طهارة
ولا يتمتع بأية فضيلة ولا تتطوى نفسه على أية براءة ! إنه عند
أصحاب نظرية الخطيئة الأولى « مخلوق ساقط يهيم تعميهِ شهوته
الدينية بحيث إنه لولا خوفه من نار جهنم أو لولا احترامه لسلطة
المجتمع لأقدم على ارتكاب أدنى الموبقات . ولما تورع عن إتيان
أحط الجرائم ! (٤) » .

(٣) النجدة ٢٦

(٢) قاطر ١٨

(١) البقرة ٢٧

(٤) مشكلة الانسان : الدكتور زكريا ابراهيم .

احتدم الخلاف بين المجامع والكنائس لما اعتنق أباطرة
الرومان الدين المسيحي كما جاءهم به بولس ، واشتد الجدل حول
تفسير كلمات الأب والابن والروح القدس والكلمة ، واختلفوا
في أقانيم الثالوث : هل الابن مساو للأب ؟ وهل هو ذو طبيعة
واحدة أو ذو طبيعتين إلهية وإنسانية ؟ وهل هو إله أو إنسان مفضل
على سائر البشر ؟ وهل يصدر الروح القدس من الأب وحده أو
من الأب والابن معا ؟ وهل المسيح هو الكلمة أو هو الابن فقط .
أو أن الكلمة والابن مترادفان ؟ أو أن الكلمة هي الأب والإله ؟
ظل شيخ « الخطيئة الموروثة » يطارد أفكار المفكرين والفلاسفة
حتى بعد القول بأن الصلب كان كفارة عنها ، وذلك يظهر
بوضوح في فلسفة نيتشه فهو يقول :

« إن كان من شأن فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على
براءة الأرض ، فانه لابد للمؤمنين بالحس الأرضي مع أن يهوا
بمعالهم على تلك الفكرة » .

وراح نيتشه ينادى : « طوبى لأتقياء القلب لأنهم لا يعاينون
الله .. لقد صرنا بشرا ولهذا فإننا لا نريد إلا ملكوت الأرض ..
إلى أين مضى الله ؟ سأقول لكم إلى أين مضى ! لقد قتلناه . أنتم
وأنا ، أجل نحن الذين قتلناه . نحن جميعا قاتلوه ! ألا تسمون
رائحة العفن الإلهي ؟ .. إن الآلهة أيضا تتعفن ! لقد مات الله
وسيطل ميتا » .

وكتب نيتشه يقول : « إن فكرة الله قد بقيت حتى الآن
أقوى اعتراض ضد الوجود ... ونحن جميعا ننكر الله وننكر

مسئولية الله فأننا عن هذا الطريق إنما ننقذ العالم .
ويردد سارتر عبارات نيته فيقول : « إن الله قد مات ولكن
هذا لا يعنى أنه غير موجود أو أنه لم يعد موجودا ، بل إن الله
قد مات بمعنى أنه كان يحدثنا في صمت فلم نعد نستطيع أن نلمس
منه الآن إلا جثة هامدة ، إن الله قد مات ولكن هذا لا يعنى
بطبيعة الحال أن الإنسان قد أصبح ملحدا ، فإن صمت المتعالى ،
مضافا إليه استمرار قيام الحاجة الدينية لدى الإنسان الحديث ،
إنما هو فى صميمه مشكلة كبرى ، وهذه المشكلة التى ثارت بالأمس
كما تثار اليوم إنما هى المشكلة التى لا زالت تؤرق نيته وهيدجر
ويسرز » .

أرقت فكرة « الخطيئة الأولى » زجال الفكر مذ قال بها بولس .
فهى فكرة إن دلت فأنما تدل على ظلم الإله الذى ينبغى أن ينزه
عن كل نقيصة ، وقد دارت حولها مناقشات على مر العصور حتى
دفعت بعض الفلاسفة فى العصر الحديث إلى أن يقولوا إن الله قد
مات .

ثارت المشكلات اللاهوتية وشغلت عقول الباحثين بين
المسيحيين . وذهب الدين المسيحى شيعا مختلفة لكل شيعة قوانين
تناقض نفسها . وصار بعض العقائد لا يتفق فى شىء مع ما جاء به
المسيح عليه السلام على الرغم من قرب العهد . فمن قائلين إن
التثليث يشمل الأب والابن وروح القدس إله واحد . كما يتكون
الإنسان من جسم وروح وعقل باطنى . -ومن قائلين إن المسيح
ابن الله ولكنه منفصل عنه وأقل منه . -ومن قائلين إن للمسيح
طبيعتين مختلفتين إلهية وإنسانية وأن مريم إن هى إلا أمه وإنه لمن

الكفر أن تدعى أم الإله . ومن قائلين إن عيسى هو الله قبل التجسد وبشر أثناء التجسد . ومن شيعة من النساء يعبدن مريم العذراء . ومن مريميين يقدسون التثليث ، فالله الأب والله الابن والله الأم مريم . وضاع الإسلام الذي جاء به السيد المسيح في ركाम الفلسفة والأساطير ، وظهر الفساد في البر والبحر وبدأ أن شجرة الحضارة قد دب فيها الفساد حتى الباب . وفي ذلك الوقت أرسل الله محمد ابن عبد الله ليدعو الناس كافة إلى الإسلام .

إن النظرية الإسلامية تقرر أن الأصل التوحيد ثم الشرك كلما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم ، ثم التوحيد فالشرك . وإن الواقع التاريخي يؤيد ما جاء في القرآن الكريم وينكر كل الإنكار ما زعمه علماء المقابلة بين الأديان من أن الإنسان قد ترقى في العقائد كما ترقى في العلوم .

وكان الإسلام منذ بدء الخليقة هو دين الله : دعا إليه كل الرسل والأنبياء لم يعرف الترقى . ويؤيد ذلك قول الله تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام (١) » . « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه (٢) » .

وقد أنزل الله على رسله كتباً لهداية البشر فاندثرت أو حُرفت أو كُتبت بأيدي الناس ثم قالوا : هذا من عند الله . ولما كان الله سبحانه وتعالى قد جعل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم خاتمة الرسالات فقد كتب على نفسه حفظ كتابه الكريم . فقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون (٣) » .

(١) آل عمران ١٩ . (٢) آل عمران ٨٥ . (٣) الحجر ٩ .

وإن كل يوم يمر والقرآن بين الناس ليزيد هذه الحقيقة تأكيداً .
ويقول الأستاذ العقاد في كتابه « الله » : فلما ظهر الإسلام في
الجزيرة العربية كان عليه أن يصحح أفكار كثيرة لا فكرة واحدة
عن الذات الإلهية . وكان عليه أن يجرد الفكرة الإلهية من أخلاط
شئ من بقايا العبادات الأولى وزيادات المتنازعين على تأويل
الديانات الكثرية .

فإذا كانت رسالة المسيحية أنها أول دين أقام العبادة على
« الضمير الإنساني » وبشر الناس برحمة السماء — فرسالة الإسلام
التي لا التباس فيها أنها أول دين تمم الفكرة الإلهية وصححها بما
عرض لها في أطوار الديانات الغابرة .

فالفكرة الإلهية في الإسلام « فكرة تامة » لا يتغلب فيها
جانب على جانب ولا تسمح بعارض من عوارض الشرك والمشابهة
ولا تجعل لله مثيلاً في الحسن ولا في الضمير . بل له المثل الأعلى
وليس كمثلته شيء .

فالله وحده لا شريك له « ولم يكن له شريك في الملك (١) » ..
« فتعالى الله عما يشركون (٢) » .. « سبحانه وتعالى عما يشركون (٣) » ..
والمسلمون هم الذين يقولون : « ما كان لنا أن نشرك بالله (٤) » ..
« ولن نشرك بربنا أحداً (٥) » .. ويرفض الإسلام الأصنام على
كل وضع من أوضاع التمثيل أو الرمز أو التقريب .
ولله المثل الأعلى من صفات الكمال جمعاء وله الأسماء الحسنى .

(١) الفرقان ٢ . (٢) الاعراف ١٩٠ . (٣) يونس ١٨ .
(٤) البقرة ٢٨ . (٥) البقرة ٢٨ .

فلا تغلب فيه صفات القوة والقدرة على صفات الرحمة والمحبة .
ولا تغلب فيه صفات الرحمة والمحبة على صفات القوة والقدرة .
فهو قادر على كل شيء ، وهو عزيز ذو انتقام ، وهو كذلك رحمان
رحيم غفور كريم .. قد وسعت رحمته كل شيء ، و « يختص برحمته
من يشاء (١) » .

وهو الخلاق دون غيره و « هل من خالق غير الله (٢) ؟ » .
فليس إلا الله . في الإسلام مصدر النظام وكفى ، ولا مصدر
الحركة الأول وكفى ، ولكن « الله خالق كل شيء (٣) » .. و « خلق
كل شيء فقدره (٤) » .. و « إنه يبدأ الخلق ثم يعيده (٥) » .. وهو
بكل شيء عليم (٦) » .

ومن صفات الله في الإسلام ما يعتبر ردا على « فكرة الله »
في الفلسفة الأرسطية ، كما يعتبر ردا على أصحاب التأويل في
الأديان الكتابية وغير الكتابية ، فالله عند أرسطو يعقل ذاته ولا
يعقل ما دونها . ويتزهد عن الإرادة لأن الإرادة طلب في رأيه
والله كمال لا يطلب شيئا غير ذاته ويخل عن علم الكليات والحزليات
لأنه يحسبها من علم العقول البشرية ، ولا يعنى بالخلق رحمة
ولا قسوة لأن الخلق أخرى أن يطلب الكمال بالسعي إليه .

ولكن الله في الإسلام « عالم الغيب والشهادة (٧) » و « لا يعزب
عنه مثقال ذرة (٨) » ... و « وهو بكل خلق عليم (٩) » .. « وما كنا عن

- | | |
|----------------|-----------------|
| (١) البقرة ١٠٥ | (٢) طه ٢ |
| (٣) الزمر ٦٢ | (٤) الفرقان ٢ |
| (٥) يونس ٤ | (٦) الانعام ١٠١ |
| (٧) الانعام ٧٢ | (٨) سبأ ٢ |
| | (٩) يس ٧٦ |

الخلق غافلين (١) « ... » وسع كل شيء علماً (٢) « ... » ألا له الخلق والأمر (٣) « ... » عليم بما في الصدور (٤) .

هذا هو رأى الأستاذ العقاد وهو فى كل ما يقرر متأثر بفكرة ترقى الإنسان فى العقائد ترقية فى العلوم والصناعات ، وإنى أرى أن الأستاذ العقاد قد قارن بين الإسلام وبين اليهودية والنصرانية بعد أن اعتورها التبديل والتحويل لما طال على الناس الأمد فقست قلوبهم ، ولكن الناظر فى آيات القرآن الكريم يجد أن الإسلام الذى دعا إليه جميع الرسل والأنبياء لا يختلف عن الإسلام الذى دعا إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، فالفكرة الإلهية فى كل من دعوة موسى عليه السلام ودعوة عيسى عليه السلام لا تختلف عن الفكرة الإلهية التى دعا إليها رسول الإسلام صلوات الله وسلامه عليه ، فهى فكرة تامة فى كل الديانات السماوية . فإن كانت عوارض قد عرضت للديانات الغابرة فإذ ذلك من عند الله ولكنه من عند الناس . وإن كان الإسلام الذى دعا إليه محمد عليه السلام أكد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، فجميع الديانات السماوية قد أكدت نفس الدعوة وأكدت علمه وأنه عالم الغيب والشهادة وأنه الخلاق دون سواه .

إن دين الله لم يعرف الترقى منذ آدم ، إنه ثابت لا يتغير وكل ما كان يعتوره من تبديل إنما بفعل البشر كلما طال عليهم العهد . « أقطال عليكم العهد أم أردتم أن يخل عليكم غضب من ربكم (٥) » ..

(٢) طه ٦٨

(١١) المؤمنون ١٧

(٤) التورى ٢٤ (٥) لاه ٨٦ .

(٣) الاعراف ٥٤ .

« بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر (١) » ... « فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم (٢) ». « ولكننا أنشأنا قرونا فطاول عليهم العمر (٣) » ..
واختلف علماء المقابلة بين الأديان على أصل العقيدة الدينية أو أصل الباعث عليها . وقد جاء في القرآن الكريم : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون (٤) » . فالله قد فطر البشر على أنه لا إله إلا هو : « فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله (٥) » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« كل مولود على الفطرة » فالله سبحانه وتعالى يخلق عباده حنفاء والآباء يفسدون الفطرة بما يلقنون الأبناء من خرافات وأساطير .

ويرى علماء المقابلة بين الأديان أن وحدة الوجود تأتي بعد دور التعدد ودور التمييز والترجيح ودور الوحدة ودور الثنائية : توفيقا بين التناقض والضرورات وإثباتا لوجود الله من طريق ثبوت الكون بالحس والعقل والإيمان . ووحدة الوجود باختصار هي القول بأن الله سبحانه وتعالى هو جميع هذه الموجودات ، وأنها ليست فيه على سبيل التجزئة والفرقة ولكنها تكمن فيه كما يكمن الربع والنصف في الواحد . فليس هو كله وليس هو منفصلا عنه وليس هو موجودا على التحقيق ولكنه

(١) الأنبياء ٤٤ (٢) الحديد ١٦ (٣) القصص ٤٥ -

(٤) الأعراف ١٧٢ - ١٧٣ (٥) الروم ٣٠ .

موجود بالإضافة إلى وجود الله : أو أن وجوده كوجود الفرد بالنسبة إلى حقيقة النوع ، فهو ليس بمعلوم ولكنه لا يزيد تلك الحقيقة ولا ينفصل عنها .

أرادت الفلسفة أن تجد تفسيراً للوجود فقالت إن هذا الوجود إنما هو تعبير عن الموجود وتعريف به حين أراد أن يعبر عن نفسه ليعرف . والإسلام في هذه القضية واضح كل الوضوح : فهو يقرر إذعان الإنسان لحالقه والإقرار بالعبودية لله وحده دون سواه . وقدرة الموجد وحكمته وجلاله وعظمته . فكل موجود قد أوجدته القدرة الإلهية وهو مقهور لهذه القدرة مسير بأمرها ويؤدى ما يجب للمعبود على العباد من طاعة وشكر : « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم (١) » .

وقد عرّف بعض متصوفة الإسلام وحدة الوجود . ويقولون لسان الدين بن الخطيب فى مفهوم هذه الوحدة عند الصوفيين الموحدين فى التصوف : « إن الزمان والمكان والغيب والظهور والألم واللذة والوجود إنما هى عندهم أوهام راجعة إلى إخبار الضمير . وليس فى الخارج شيء .. فإذا سقطت الأوهام صار مجموع العالم بأسره وما .. واحدا .. ذلك أن الواحد هو الحق وإنما الحق مؤلف من طرفى حق وباطل ، فإذا سقط الباطل - وهو اللازم - بالأوهام - لم يبق إلا الحق ! » .

والتعبّد عندهم عبارة عن التزام الأوهام الواقعة بها التعدد والتعدد باطل ! وقالوا : العالم لا يصبح أن يقال فيه قديم ومحدث .

إذ ذلك مبني على الزمان .. والزمان وهم إذ هو مقدار الحركة ...
والحركة وهم .. وما ثم إلا حيز مجرد .. لا شيء منه في الخارج .
وهذا التصوير يكاد يكون نقلا عن الفلسفة الرواقية التي تنكر
معطيات الحواس وتذهب إلى دفع كل ما تجيء به من أنباء عن عالم
الحس وعدها كل ذلك من عمل الوهم والخداع .

ويقول ابن خلدون في فلسفة الوحدة : عن بعض المتصوفة:
الذين يؤمنون بأن وحدة الوجود لا تقوم على الشك في معطيات
الحواس وإنما تستند إلى نشأة الوجود وإلى الصلة بين الخالق.
وما خلق : « وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه.
وهو يتضمن الكمال بإضافة الإيجاد والظهور لقوله سبحانه في.
الحديث القدسي الذي يتناقلونه : « كنت كنزا مخفيا ، فأردت أن.
أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني » .

وهذا الكمال المنزه في الوجود وتفصيل الحقائق هو عندهم
عالم المعاني والحضرة الكمالية والحقيقة المحمدية . : وفيها حقائق
الصفات واللوح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمال
من أهل الملة المحمدية : وهذا كله تفصيل للحقيقة المحمدية ..
وتصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى في الحضرة الهائية وهي
مرئية المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الأفلاك ثم العناصر
ثم عالم التركيب .. هذا في عالم الرق ، فإذا تجلت فهي في عالم
الفتق .. ويسمى هذا المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر
والحضرات .. وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على تحصيل مقتضاه
لغموضه وانغلاقه . .

ويقول ديور في كتابه تاريخ الفلسفة الإسلامية : « غير أن الغلاة من أهل التصوف زادوا على هذا بأن قالوا : بأنني لا موجود في كل شيء إلا الله ، ومن هذا المنزع الأخير نشأ مذهب في وحدة الوجود خالف مذهب جمهور المسلمين وكان من شأنه أن يجعل العالم خيالا لا حقيقة ، كما وجد بين الإنسان وذات الله . وبعد أن كان المتكلمون يقولون بوحدة الذات الإلهية - أي نفي الصفات عن الله وأنه عن صفاته - قال المتصوفة بوحدة شاملة لكل شيء . وبعد أن كان الأولون - أي الجبرية من المعتزلة - يقولون بفعل الله في كل شيء قال الآخرون - المتصوفة - بوجود الله في كل شيء . »

وفي أقوال القائلين بوحدة الوجود من المتصوفة خروج على مقررات الشريعة ومفاهيمها خروجا واضحا ، بل عودة إلى الشرع وعبادة غير الله ، فالجلى أحد شيوخ المتصوفة يقول : « إن الحق من حيث ذاته يقتضي ألا يظهر في شيء وإلا يعبد ذلك الشيء . وقد ظهر - أي الحق - الله في ذات الوجود ، فحق أن تعبد هذه الذوات وليس شيء منها أولى من شيء بتلك العبادة . »

طال على الناس الأمد فقت قلبهم وما كان الله ليعثر رسولا بعد محمد عليه السلام ، فكتاب الله بين أيدي الناس يرجعون إليه وينهلون من مناهل الحق وقد كتب الله على نفسه أن يحفظه :

ولقد عرفنا آراء بعض الفلاسفة والمفكرين على مر العصور في ذات الله . وإن خير ما نحتم به هذا التذليل سرد خطبة للإمام على بن أبي طالب ربيب النبوة يتحدث فيها عن الله :

« الحمد لله الذى لا يبلغ مدحتمه القائلون ، ولا تحصى نعماءه
 العبادون . ولا يؤدى حقهم المجتهدون ، الذى لا يدركه بعد الهيم .
 ولا يناله غوص القطن . الذى ليس لصفته حد محدود ، ولا نعت
 موجود ، ولا وقت معدود ، ولا أجل ممدود . فطر الخلائق
 بقدرته ، ونشر الرياح برحمته ، ووطد بالصخور ميدان أرضه .
 أول الدين معرفته ، وكمال معرفته التصديق به ، وكال التصديق
 به توحيده ، وكال توحيده الإخلاص له ، وكال الإخلاص له
 نبى الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، وشهادة
 كل موصوف أنه غير الصفة ، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه .
 ومن قرنه فقد ثناه ، ومن ثناه فقد جزأه ، ومن جزأه فقد جهله .
 ومن جهله فقد أشار إليه ، ومن أشار إليه فقد حده ، ومن حده
 فقد عدده ، ومن قال : « فيم » فقد ضمنه ، ومن قال : « علام »
 فقد أخلى به (١) .

كائن لا عن حدث ، موجود لا عن عدم ، مع كل شيء لا
 بمقارنة ، وغير كل شيء لا بمزاولة . فاعل لا بمعنى الحركات
 والآلة ، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه . متوحد إذ لا سكن
 يستأنس به ولا يستوحش لفقده . أنشأ الخلق إنشاء ، وابتداء
 ابتداء ، بلا روية أجالها ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدثها .
 ولا هامة نفس اضطرب فيها . أحال الأشياء لأوقاتها . ولا هم بن
 مختلفاتها ، وغرز غرائزها . وألزمها أشباحها ، عالما بها قبل
 ابتدائها ، محيطا بخدودها وانتهائها . عارفا بقرائنها وأحنائها .

(١) من تصور أنه على الكرسي أو العرش فقد أخلى منه غير ذلك الموضع .

المراجع

- | | |
|-------------------------|----------------------|
| للحافظ ابن كثير | القرآن الكريم |
| | الكتاب المقدس |
| | صحيح البخارى |
| | عمدة التفسير |
| | تاريخ الطبرى |
| لابن ابي الحديد | شرح نهج البلاغة |
| لابن هشام | السيرة النبوية |
| للدكتور زكريا ابراهيم | مشكلة الانسان |
| للدكتور زكريا ابراهيم | مشكلة الحرية |
| لأبي الفرج الأصفهائى | الأغاني |
| لشهرستانى | الملل والنحل |
| لعبد الكريم الخطيب | الله .. ذاتا وموضوعا |
| لعباس محمود العقاد | الله |
| للتيسابورى | اسباب النزول |
| لفرويد | Moses and Monotheism |
| للألوسى | بلوغ الأرب |
| للتويرى | نهاية الأرب |
| لعلى برهان الدين الحلبى | السيرة الحلبية |

للمؤلف

الطبعة الاولى

١٩٤٢	مايو سنة	نصه	احسن بطل الاستقلال
١٩٤٣	يوليو سنة		ابو ذر الغفارى
١٩٤٤	مايو سنة		بلال مؤذن الرسول
١٩٤٤	ديسمبر سنة	مجموعة اقاصيص	في الوظيفة
١٩٤٥	يوليو سنة		سعد بن ابى وقاص
١٩٤٦	فبراير سنة	مجموعة افاصيص	هزات الشياطين
١٩٤٦	اكتوبر سنة		ابناء ابى بكر الصديق
١٩٤٧	يناير سنة		الرسول (حياة محمد ترجمه مع محمد محمد فرج)
١٩٤٧	سنة	رواية	في قافلة الزمان
١٩٤٨	مايو سنة		اهل البيت
١٩٤٩	سنة	قصة	اميرة قرطبة
١٩٥٠	مايو سنة	قصة	النقاب الازرق
١٩٥١	سنة		المسيح عيسى بن مريم
١٩٥٢	سنة		نصوص من الكتب المقدسة
١٩٥٢	سنة	رواية	الشارع الجديد
١٩٥٢	سنة	مجموعة اقاصيص	صدى النين
١٩٥٢	سنة		حياة الحسين
١٩٥٣	سنة	قصة	قلعة الاطال
١٩٥٧	ديسمبر سنة	قصة	الستقم

الطبعة الاولى

١٦٥٨ سنة	بنابر	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة
١٦٥٨ سنة	مارس	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة
١٦٥٨ سنة	يوليو	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة	١٦٥٨ سنة
١٦٥٩ سنة	سبتمبر	١٦٥٩ سنة	١٦٥٩ سنة	١٦٥٩ سنة	١٦٥٩ سنة
١٦٦١ سنة	أكتوبر	١٦٦١ سنة	١٦٦١ سنة	١٦٦١ سنة	١٦٦١ سنة
١٦٦٢ سنة	ديسمبر	١٦٦٢ سنة	١٦٦٢ سنة	١٦٦٢ سنة	١٦٦٢ سنة
١٦٦٣ سنة	يناير	١٦٦٣ سنة	١٦٦٣ سنة	١٦٦٣ سنة	١٦٦٣ سنة
١٦٦٤ سنة	يونيو	١٦٦٤ سنة	١٦٦٤ سنة	١٦٦٤ سنة	١٦٦٤ سنة
١٦٦٥ سنة	يوليو	١٦٦٥ سنة	١٦٦٥ سنة	١٦٦٥ سنة	١٦٦٥ سنة
١٦٦٦ سنة	أكتوبر	١٦٦٦ سنة	١٦٦٦ سنة	١٦٦٦ سنة	١٦٦٦ سنة
١٦٦٧ سنة	يناير	١٦٦٧ سنة	١٦٦٧ سنة	١٦٦٧ سنة	١٦٦٧ سنة
١٦٦٨ سنة	أكتوبر	١٦٦٨ سنة	١٦٦٨ سنة	١٦٦٨ سنة	١٦٦٨ سنة
١٦٦٩ سنة	يناير	١٦٦٩ سنة	١٦٦٩ سنة	١٦٦٩ سنة	١٦٦٩ سنة
١٦٧٠ سنة	أكتوبر	١٦٧٠ سنة	١٦٧٠ سنة	١٦٧٠ سنة	١٦٧٠ سنة
١٦٧١ سنة	يناير	١٦٧١ سنة	١٦٧١ سنة	١٦٧١ سنة	١٦٧١ سنة
١٦٧٢ سنة	أكتوبر	١٦٧٢ سنة	١٦٧٢ سنة	١٦٧٢ سنة	١٦٧٢ سنة
١٦٧٣ سنة	يناير	١٦٧٣ سنة	١٦٧٣ سنة	١٦٧٣ سنة	١٦٧٣ سنة
١٦٧٤ سنة	أكتوبر	١٦٧٤ سنة	١٦٧٤ سنة	١٦٧٤ سنة	١٦٧٤ سنة
١٦٧٥ سنة	يناير	١٦٧٥ سنة	١٦٧٥ سنة	١٦٧٥ سنة	١٦٧٥ سنة

القَصَصُ الدِّينِي

(للأطفال)

١٨ جزء	قصص الانبياء
٢٤ في	قصص السيرة
٢٠ في	قصص الخلفاء الراشدين
٢٤ جزء	العرب في أوروبا

مَحْمَدٌ رَسُولُ اللَّهِ

وَالَّذِينَ مَعَهُ

فِي عَشْرِينَ جُرْءًا

تأليف

عبد الحميد جوذة السحار

مليم جنبه

— ٥٠٠

١٥ ٠٠٠

ثمن الجزء الواحد

ثمن المجموعة كاملة

السيرة النبوية

محمد رسول الله والذين معه

في ٢٠ جزءاً

- | | |
|---------------------------|-------------|
| ١ - ابراهيم ابو الانبياء | ١٦٦٥ أكتوبر |
| ٢ - هاجر المصرية أم العرب | ١٦٦٦ مارس |
| ٣ - بنو اسماعيل | ١٦٦٦ سبتمبر |
| ٤ - العدنانيون | ١٦٦٧ فبراير |
| ٥ - قريش | ١٦٦٧ مايو |
| ٦ - مولد الرسول | ١٦٦٧ يوليو |
| ٧ - اليتيم | ١٦٦٧ أكتوبر |
| ٨ - خديجة بنت خويلد | ١٦٦٨ يناير |
| ٩ - دعوه ابراهيم | ١٦٦٨ مارس |
| ١٠ - عام الحزن | ١٦٦٨ يونيه |
| ١١ - الهجرة | ١٦٦٨ سبتمبر |
| ١٢ - غزوة بدر | ١٦٦٨ نوفمبر |
| ١٣ - غزوة احد | ١٦٦٩ يناير |
| ١٤ - غزوة الخندق | ١٦٦٩ مايو |
| ١٥ - صلح الحديبية | ١٦٦٩ يونيه |
| ١٦ - فتح مكة | ١٦٦٩ نوفمبر |
| ١٧ - غزوة تبوك | ١٦٧٠ فبراير |
| ١٨ - عام الوفود | ١٦٧٠ مايو |
| ١٩ - حجة الوداع | ١٦٧٠ نوفمبر |
| ٢٠ - وفاة الرسول | ١٦٧٠ ديسمبر |

حار مضر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

رقم الابداع ١٥٣٩ / ٧٨
الترقيم الدولى ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل سعدى - الجمالا

دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه